
أنيس منصور
دار الشروق

زمن الهموم الكبيرة

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

أنيـــس منصـــور

زمن الهموم الكبيرة

دار الشروقـــ

كلمة أولى (*)

هذا نوع آخر من التاريخ . إنه مجموعة عظام ، أى أن الحيوانات التى كانت تعيش من ملايين السنين قد ماتت فى ظروف لم نعرفها ، وتركت بقاياها . وجاء العلم الحديث فجعل العظام فحما ، ثم درس الفحم وحلله وراح يعد ذراته ليعرف كم واحدة من هـذه الذرات قد ماتت . . وعن طريق الذرات الباقية يعرف عمر هذه الحيوانات .

ويمكن أن يقال : إن التاريخ كومة تراب وجدها أحد العلماء فى أحد الكهوف . ففى الكهوف جاء الإنسان القديم وأمسك غصن شجرة وغمسه فى الدم ثم رسم على الجدران صورا لهذه الحيوانات . . وجاءت الأجهزة الحديثة واستخرجت من الدم شهادة ميلاد الإنسان وشهادة دفن هذه الحيوانات .

وجاء الإنسان مرة أخرى وجمع التراب والعظم ونظم منهما معانى جديدة لكل ما حدث . . فالتاريخ عمل إنشائى . . أو موضوع إنشاء . . ففيه الكثير من الكذب الجميل .

فالتاريخ هو دكان سمك . . أو حظيرة أبقار . . لأنه تاريخ الحيوان على هذه الأرض . . لكن هذا التاريخ لهذه الحيوانات وبهذا المعنى ظلم لها جميعا ، لأن الحيوانات قد قاومت ملايين السنين ، واكتسبت تجارب ، وتصلبت ضلوعها وأرجلها ، وارتفعت أعناقها ، ونبت لها الريش والزعانف ، وقاومت قوى الطبيعة ، وقاومت الإنسان . . واستطاعت أن تبقى أكثر تنوعا وأكبر عددا وأطول عمرا . .

(*) مقدمة كتابى : «التاريخ أنياب وأظافر» .

وسوف تنتهى الحياة الإنسانية على هذه الأرض أو تنتقل إلى كواكب أخرى، ولكن الحيوانات هى التى سترث الأرض وما عليها.

فكل الحيوانات التى تعيش الآن وأضعف من الإنسان كانت آلهة، عبدها الإنسان وتلمس بركتها، وأقام لها المعابد وأشعل من أجلها الحروب.

وفى الكهوف والمعابد القديمة آثار باقية تدل على هذا التقديس العظيم للكلاب والقطط والطيور والثعابين والحيوانات الأخرى. فكأن هذه الحيوانات كانت فوق، على العين والرأس، ثم أصبحت تحت أحذية الإنسان.. كانت آلهة فأصبحت عبيدا يسوقها ويذبحها، أو يحبسها ويتفرج عليها.. إن كل هذه الحيوانات آلهة مال عليها الزمن!

عبدها الإنسان.. ثم طاردها، وقتلها، ثم طاردها وصادها، وحاول أن يستأنسها، وتحقق له ذلك ورباها ليذبحها ويأكلها، ثم استخدم بعض هذه الحيوانات فى جر العربات وجر عربات التاريخ من قارة إلى قارة، ومن مرحلة إلى مرحلة.. ففى السنة التى ولد فيها الرسول عليه السلام هاجمت الفيلة الكعبة، وكان ذلك عاما حاسما.. وسمى عام الفيل..

والقائد هانيبال زحف إلى أوروبا وأثار فيها الرعب، وانسحبت أمامه كل قواتها لأنه استخدم الفيل لأول مرة..

والخيول دخلت مصر مع الهكسوس.. وبدخول الخيول مصر تغير وجه التاريخ.. وتغيرت معالم المعابد وجدرانها.

وحيوانات أخرى غيرها اشتركت فى ملحمة الحياة والصبر عليها والصمود من أجل ما هو أفضل لها ولصغارها.

وتاريخ الإنسان والحيوان هو ملحمة العذاب من أجل البقاء؛ إنها معارك الصداقة والعداوة، معارك السيادة.. وكان من الطبيعى أن يسود الإنسان بعقله، وقد سجل ذلك كله فى أغانيه وأعماله الفنية وفى أساطيره..

والبداية قديمة جدا، فالحياة بدأت على هذه الأرض من ثلاثة آلاف مليون سنة، وكان شكل الحياة بسيطا بدائيا، عبارة عن خلية حية؛ هذه الخلية ظهرت فى الماء.

والحياة على الأرض كلها خرجت من الماء. القرآن الكريم يقول: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾. فقد كانت الأرض ملتهبة أول الأمر، وأخذت تبرد في ملايين السنين، وتتكون من حولها السحب. ومن هذه السحب التي بها كل عناصر الحياة: الهيدروجين والأوكسجين وثاني أكسيد الكربون ومن ورائها ومن حولها الأشعة فوق البنفسجية التي تفيض من الشمس ـ خرجت الحياة، أو كان «الجو» أو «البيئة» أو «الحضّانة» التي لابد أن تخرج منها الحياة، وخرجت وكان ذلك في الماء.

ومضت ملايين أخرى من السنين عندما انحسر الماء وأصبحت هناك محيطات وشواطئ من الوحل، والوحل هو الماء والطين معا، أو هو «الحل الوسط» بين البر والبحر. ومضت ألوف السنين لتتعقد الحياة ويكون لها شكل، وتنتقل هذه الكائنات من البحر إلى البر، وتعيش هنا وهناك. وما تزال في المحيطات كائنات غريبة عجيبة، هذه الكائنات هي سلالات مستمرة من مئات ملايين السنين.

وتوجد بعض الآثار في شمال أمريكا وشمال أوروبا تشير إلى هذا النوع من الحياة التي ظهرت في البحر وتسللت إلى البر ثم عادت إلى البحر . .

وفي الصراع المستمر من أجل البقاء تدرعت بعض الكائنات البحرية بالعظام والأنياب حتى لا تفنى، وتطورت الأشكال العظمية وأنيابها وازدادت مرونة، بل إننا نجد بعض الكائنات البحرية أصبح لها فك أكثر مرونة، وأقدر على أن يمسك وأن يعض، وهذه خطوة هائلة في تطور الكائنات البحرية . . أو الأسماك . . ولا تزال بعض الأسماك محبوسة في أقفاصها العظمية، وهذه الأقفاص سجل تاريخي لما كانت عليه هذه الحيوانات من مئات ملايين السنين.

وفي الوقت الذي ظهرت فيه الأسماك في البحر، ظهرت الأعشاب على الشاطئ . . والشجيرات والأشجار الكثيفة . . وانتقلت الأسماك من البحر إلى الشاطئ، وليس هذا الانتقال قصيرا كهذه العبارة، ولكنه طويل بملايين السنين وأهم ما حدث: هو أن هذه الحيوانات استطاعت أن تتنفس الهواء مباشرة، أي هواء الجو وليس الموجود في الماء!

ومنذ ٣٠٠ مليون سنة حدث ارتفاع في درجة حرارة الأرض؛ فذابت المساحات الهائلة من الجليد، وحدث طوفان. غرقت الأرض، وزحف البحر على الأرض،

فكان كل شيء بحرا، وغرقت معظم الغابات وتراكم بعضها فوق بعض. ومضت ألوف السنين، وانحسر الماء الساخن، أو الماء الذى يغلى، والذى جف. واحترق كل شيء على الأرض، وتحولت الأشجار المحترقة إلى فحم.. إلى مناجم الفحم التى تستخدمها الحضارة الصناعية وقودا منذ مائتى عام..

ولم تنعدم الحياة على الأرض.. بل كانت هذه الحياة قد اكتسبت تجارب عديدة، واتخذت لها أشكالا متنوعة. وتعلمت الحشرات أن تطير من الأرض إلى الشجر، ومن الشجر إلى الشجر. بعض الأسماك تطير أيضا، ولا يزال بعضها يرتفع من الماء إلى الشاطئ، أو من البحر إلى النهر، أو من النهر إلى البحر.. وبعضها له زعانف كالأجنحة تماما.. أو هى أجنحة.

واجتهد العلماء فى تفسير ما حدث لهذه الحيوانات، ذهابا وإيابا من البر إلى البحر.

ففى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وعلى أيام نابليون تصور العلماء أن تطور الحياة يشبه التطورات السياسية. ففى أيام نابليون كانت عروش تقام وعروش تنهار، وحدود يمحوها الإنسان، وحدود جديدة يضيفها الإنسان.. وتصور العلماء أن الحياة كانت على شكل ما ثم حدث ما غير هذا الشكل بعنف.. ومعنى ذلك أن تطور الحياة كالتطورات السياسية، هزات عنيفة وانتكاسات وثورات، فتاريخ الحياة ينتقل من عنف إلى عنف.

وظهرت نظرية تقول إن الزواحف أطول عمرا؛ لأن الزواحف تخرج من الماء إلى البر، وتعود إلى الماء، وأن هذه المرونة واتساع مجال الحركة والحياة قد أعطياها فرصا أكبر للبقاء لأنها تضع بيضها على الشاطئ بعيدا عن الزواحف أو الأسماك المفترسة، ويظل البيض على الشاطئ أو فى الطين حتى تخرج الصغار من البيضة. وإذا كان البيض يحمى الصغار حتى تخرج، فبعد خروجها تفتقر هذه الحيوانات الصغيرة إلى الحماية مرة أخرى. من مشاكل التماسيح الآن فى بحيرات أواسط إفريقيا أنها تضع بيضها على الشاطئ، وعندما تخرج التماسيح الصغيرة من البيض تعالجها القردة بقتلها.. أو أن القرود تحطم البيض قبل أن يفقس.. ولذلك فالقرود خطر على هذه التماسيح!

وظهرت حيوانات ضخمة ، هذه الحيوانات الضخمة كانت قادرة على أن تقاوم الحيوانات الصغيرة ، ولكن هذه الحيوانات قضت على نفسها أيضا ، فضخامة حجمها جعلتها أثقل حركة ، وجعلتها أقل مرونة ، وجعلتها إذا وقعت لا تقوم ، وإذا قامت تنحشر بين الأشجار أو بين الجبال ، وتظل كذلك حتى تموت . .

فالعلم الحديث كشف لنا عن عدد من فصائل الديناصور الهائل قد حبسها أحد الوديان حتى ماتت . . مع أن أصغر حيوان يستطيع أن يتسلق الأحجار وأن يصعد الجبل ومنه إلى الوادى أو الكهف ويستأنف حياته من جديد .

فضخامة الأجسام آفة هذه الحيوانات . . فالكبير عاجز عن الشيء الصغير الذى ينقذه من الموت أو من الفناء !

وقد فنيت هذه الكائنات الكبيرة ، لأنها كبيرة . والفيل والنمر خير دليل على ذلك ؛ الفيل أكبر وأقوى ، ولكنه أقل حركة ، ولذلك كان «مجاله الحيوى» ضيقا . . أى المساحة التى يستطيع أن يتحرك فيها أضيق من المساحة التى يتحرك فيها النمر ، فانقرضت فيلة كثيرة جدا ، وبقيت نمور أكثر . .

فالقوة ليست العضلات ، ولكنها القدرة على مواجهة المشكلات والإفلات منها ، بالدوران حولها أو عدم التعرض لها ، أو بالقضاء عليها ـ انظر إلى حياتك وتذكر مواقف معينة ثم تساءل كيف هزمتك أو كيف قهرتها ؟ مع فارق واحد : أن لديك عقلا ، ولدى الحيوانات مخالب وأنياب . وأنها بأنيابها وأظلافها وأظافرها نقشت تاريخها على أنقاضها وأنقاضنا ، وبقيت وبقينا ولكننا أقدر وأفضل !

ولا بد من لفت نظر هنا والآن وبسرعة :

حتى لا نتصور إن الحياة أخرجت نفسها من الماء إلى الأرض ، وزحفت وطارت وقاومت من تلقاء نفسها ، يجب ألا ننسى أن هناك «إرادة عاقلة» . . أن هناك «حكمة واعية» أو «عقلا كونيا» يعنى : الله . .

فنحن لا نقول مثلا إن فندق شيراتون عبارة عن مجموعة من قوالب الطوب . . أو مجموعة من الألواح الزجاجية أو الخشبية . . مع أن هذا الفندق مجموعة قوالب وألواح وأسلاك ، ولكن الفندق ليس كومة من المواد المختلفة ، وإنما هو شكل

هندسى معمارى . هذا الشكل هو مجموعة قوانين ونظريات فى العمارة والكهرباء والميكانيكا والاقتصاد والسياسة أيضا . إنه صورة عقلية ، صورة حكيمة . أى أن هناك عقلا أو أكثر من عقل جعل الطوب غرفا والألواح نوافذ والأسلاك كهرباء وتليفونات وتلغرافات . . ثم هناك قواعد وقوانين تربط بين الموظفين والزبائن . .

والذى يحدث فى فندق حدث فى ألوف الملايين من الكائنات عندما تحولت من خلايا إلى كائنات حية . . إلى كائنات متطورة . . إلى زحف عنيف نحو الحياة والبقاء رغم كل الظروف الطبيعية والإنسانية المضادة . .

هناك ـ إذن ـ حكمة الحياة . . التى هى إرادة هذا الكون . . إرادة الله التى لا نعرف منها إلا القليل ؛ لأن وسائل المعرفة صغيرة ، فوسيلتنا هى العقل ، والعقل ما يزال عاجزا عن الكثير جدا (ألف مرة جدا) مما فى هذا الكون . . مما فى هذه الأرض . . أو مما فى هذا الجسم الإنسانى أو الحيوانى . . أو فى هذه الخلية الحية فى حيوان أو إنسان أو نبات ! انتهى لفت النظر !

والنقوش فى الكهوف تصور الحيوانات على جدرانها ؛ الحيوانات تجرى ؛ بعض هذه الحيوانات تنزف دما ، إذن لقد صورها الإنسان وهو يطاردها لأنه أقوى منها ، وهو يصورها دامية استعراضا لقوته ، فالدم إذا نزف يدل على أنه قتلها ، وأنه لا يخافها ، وإنما يغريه ذلك بأن يكرر ذلك مرة وألف مرة .

ونحن لا نعرف بالضبط إن كان الإنسان قد استأنس الحيوانات أولا ، ثم أكلها ، أو أنه أكلها قبل أن يستأنسها . على كل حال بعض النقوش تصور لنا هذه الحيوانات هادئة ساكنة ، كأنها رضيت بحكم إنسان عليها ، وحكمه عليها أنه حبسها وأذلها أو ذللها حتى أصبحت ذيلا له . . مثل كلبه تماما .

والإنسان كان يستخدم الكلب فى الصيد ، ومعنى هذا أنه استأنس الكلب ثم أطلقه على الحيوانات ، فالكلب هو أول حيوان استأنسه الإنسان .

وعندما عرف الإنسان كيف يستأنس هذه الحيوانات ، عرف أيضا أن يبنى الأسوار لتحمى الحيوانات وراءها . وكانت الأسوار من الأشجار ثم من الأحجار ، وعرف الحبال التى يمسك بها الحيوانات . . ولابد أن تلتف الحبال حول أرجل أو أعناق الحيوانات .

ولا يمكن أن تلتف الحبال دون أن يعرف الإنسان كيف يصنع من الحبل «عقدة»، وعندما اهتدى الإنسان إلى العقدة كان قد اكتشف شيئا عظيما جدا، فهذه العقدة كانت رابطة للخيوط والأنسجة والحبال.

وقد تبدو العقدة عملا تافها، وهى بالفعل كذلك الآن، ولكن من مئات الألوف من السنين كانت اكتشافا لا يقل عن اختزان الكهرباء فى البطاريات الجافة فى السيارات والبطاريات والراديوهات وسفن الفضاء!

وتدل الآثار التى عثر عليها العلماء فى البرازيل أن الهنود الحمر كانوا يحبسون الخنازير دون أن يعرفوا أنها طعام يمكنهم أن يعيشوا عليه.. كل إنسان كان «يقتنى» بعض الحيوانات لا لأنها طعام، ولكن لأنها جميلة الشكل فقط، أى أن الإنسان كان يصيد الغزال والماعز والحصان لأن لها شكلا جميلا.

ومعنى ذلك أن الإنسان كان فنانا محبا للجمال، وهذا الحب للجمال معناه أن لديه ما يأكله، وأن لديه ما يتفرج عليه..

والإنسان لا يستطيع أن يحقق الفائدة المادية واللذة الجمالية إلا عن طريق القوة.. قوة الصيد وقدرته على حماية ما يصيده.. فاحتفاظه بهذه الحيوانات دليل على اقتداره ودليل على ذوقه.

وفى سنة ١٨٧٩ عثر الأب برويل فى أسبانيا على نقوش فى كهوف، هذه النقوش هى القوة والجمال؛ فالحيوانات منطلقة بسرعة هائلة، والإنسان قد سجل هذه الحركة؛ فهو اقتناها وراقب حركتها، وتمتع بذلك، ثم انتقل من مجرد الإعجاب إلى تسجيل ذلك. وجاءت ابنة هذا العالم، وبالصدفة، فدخلت أحد الكهوف وراحت تصرخ بالأسبانية: توروس.. توروس.. أى ثيران. ولم يكن الذى رأته ثيرانا فقط، وإنما كانت هناك خيول أيضا، ألوانها حية قوية جميلة، وكانت هذه الخيول والثيران تعيش على حدود أسبانيا وفرنسا من عشرين ألف سنة.

وبعد ست عشرة سنة عثر العلماء فى أنحاء متفرقة من الكرة الأرضية على نقوش مماثلة تسجل ما جرى فى العالم فى الوقت نفسه.

ولابد أن فكرة «رأس المال» قد ظهرت فى هذا الوقت؛ لأن كلمة «رأس» هذه قد جاءت من رءوس الغزلان والأبقار والخيول، فالذى يملك عددا كبيرا منها هو

الأغنى وهو الأقوى وهو القادر على صيدها والاحتفاظ بها وحمايتها وإطعامها والتباهى بها. فهذه الحيوانات ثروة وقوة، ولا يزال رأس المال قوة، ولا تزال بعض القبائل البدائية ترى فى كثرة الحيوانات مصدرا للقوة والسلطة، ولا يزال «المهر» هو عددا من الأغنام أو الأبقار. إن قطيعا منها هو استعراض واضح بارز متحرك لثروة الأب وأهمية العروسين عند الأهل أو القبيلة . .

وبعد ذلك عرف الإنسان أن الحيوانات ليست إلا طعاما مدخرا . . طعاما يمشى على أربع . . والحيوان ليس إلا حارسا للحمه حتى يجىء الإنسان فيقرر أن يذبحه ليأكله، أو يذبحه ليبيع لحمه، أو يبيعه لغيره من الناس . .

والقصة طويلة ومتنوعة ومثيرة ومسلية، وفيها الكثير من الإشارات والتلميحات إلى الإنسان نفسه كما سنرى.

وإذا كانت الحيوانات يقتل بعضها البعض جوعا - أى من أجل الطعام والبقاء بعد ذلك - فإن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يقتل الحيوان أو الإنسان الآخر لأسباب أخرى غير الجوع. وقد حاول الإنسان أن يقنع نفسه بالعدول عن القتل، ولكن هذه المحاولات لم تنجح بعد، مع أن حيوانات كثيرة قد عدلت عن ذلك من وقت طويل!

مصباح لكل إنسان (*)

أشهر إنسان أمسك فى يده فانوسا هو فيلسوف يونانى قديم اسمه ديوجين اللانرسى . . وهو لم يدخل التاريخ لأنه أمسك فانوسا . . فما أكثر الذين أمسكوه وصنعوه وكسروه، وتحركوا فى ضوئه . . ولكن لأنه أمسك الفانوس فى وضح النهار! وكان الناس ينظرون إليه ويضحكون. أما الذى يضحكهم فهو أن رجلا عاقلا حكيما مثله يمسك فانوسا فى ضوء الشمس. كأن نور الشمس لا يكفيه فى البحث عن الذى يريد.

ولما سألوه : عن أى شيء تبحث؟

كان جوابه المشهور والذى لا يزال حكيما : إننى أبحث عن إنسان !

إنه لا يبحث عن إنسان؛ فما أكثر الإنسان، إنهم فى زمانه بمئات الملايين وفى زماننا بألوف الملايين. ولكنه يبحث عن القيم الإنسانية : عن الخير الخالص والحب الصادق والجمال الصافى والعدل المطلق . .

إن هذه القيم لم تعد موجودة بين الناس، وإنما نحن نجد أناسا قد تحولوا إلى حيوانات أخرى : جبناء أو مصاصى دماء أو جشعين أو مغرورين أو كذابين أو أنانيين.

ومن المؤكد أنهم من الناحية الفسيولوجية يدخلون تحت باب الإنسان الأبيض والأسود والأصفر، الإفريقى والآسيوى والأوروبى والأمريكى والأسترالى . . وأثناء القرن العشرين بعد الميلاد والقرن العشرين قبل الميلاد.

(*) مقدمة كتابى : «مصباح لكل إنسان» .

إنهم يمشون على ساقين ويتكلمون ؛ لأنهم بشر . .

ولكن هل كل إنسان هو إنسان حقا . . أى يكفى أن يكون الإنسان ناطقا لتتجسد فيه كل قيم الإنسانية؟

إن واحدا فقط هو الذى تنطبق عليه هذه الصفة : إنه الطفل . . فهو الإنسانية الصافية الخالصة . . ولكنه الإنسانية الخرساء . إن الطفل قطعة لحم إنسانية ، فلا هو قادر على العطاء أو على التعبير ، ولذلك كان إنسانا أو كان إنسانية فى دور التكوين . . أى فى طريقه إلى أن يكون ملاكا أو عفريتا . . إن مثل هذا الإنسان هو الذى يبحث عنه ديوجين ، ونحن أيضا لعلنا نجده فى النهار ، فقد بحثنا عنه فى الليل فلم نجده . .

وكل إنسان يحمل فى يده أو فى عقله أو فى قلبه فانوسه الخاص الذى يبحث به وفى ضوئه عن المثل العليا التى يحلم بها ويستريح إليها . . وقد يعيش الإنسان ويموت ، دون أن يجد هذا الذى يبحث عنه . .

وليس الصيام إلا شهرا يخلو فيه الإنسان إلى الإنسان لعله يهتدى إلى هذه المعانى ـ أى يخلو فيه الإنسان إلى نفسه؛ لعله يجد نفسه أو يجد غيره ، وليس كل الناس سعداء إلى درجة أن يجدوا بسهولة ما يريدون : .

والذى يخفف عن الإنسان أنه ينشغل تماما بالبحث عن الطعام والمركز والبيت ، وينسى فى الزحام أنه لم يجد نفسه ولم يجد غيره . ويمضى العمر ويذبل ضوء الفانوس والفانوس نفسه ، وقد لا يجد الإنسان أحدا أو شيئا .

إلا من هدى الله . . وما الهدى والهداية إلا من عند الله !

كتاب عن كتب (*)

أقفل المعرض الدولى للكتاب أبوابه، ولم تشتر كتابا واحدا. ولا يهمك. فليس من الضرورى أن يحصل الإنسان على كل ما يريد، ولا من الضرورى أن الذى يعجبنى يجب أن أقتنيه . . فنحن جميعا نحب القمر والنيل والنسيم والحقول الخضراء، فمن الذى يملكها؟ ربما تجد من يملك حديقة لا يراها، ولا يستمتع بها . .

وأنا أقول لك بعض تجاربى فى القراءة - وتجاربى كثيرة وطويلة، ولا أقول إنها أحسن ما يمكن أن يعايشه إنسان، ولكنها جزء من تاريخ عريض فى صناعة الكتابة وفن القراءة.

كانت الكتب التى وجدتها فى بيتنا دينية، وكانت كثيرة وكبيرة، صفحاتها عريضة، لونها أصفر، لم يفكر مؤلفوها أن قراءها سوف يكونون من الأطفال، وإذا حاول طفل أن يقرأها فلابد أن يحملها على ذراعيه وأن ينحنى عليها ليقرأ حروفا ملتوية فى كلمات متداخلة ونقط خفية، وإذا قرأ فعليه أن يفهم، وإذا لم يفهم وجب أن يسأل، وإذا سأل فلن يجد أحدا يطاوعه. إذن كان لابد أن يقرأ وأن يفهم، وأن يصبر.

وفى طفولتى كان أناس كثيرون مثل هذه الكتب ننحنى على أيديهم كما ننحنى على صفحاتها، ونقبل الجميع : المصحف والكتب وأيدى الناس الكبار من علماء الدين والأكبر سنا. وليس بين هذه الكتب واحد تستطيع أن تقرأه وأنت واقف، أو تضعه فى جيبك أو تأخذه معك إلى السرير . . وإنما يجب أن تجلس وتحمله على يديك، أو تضعه على مكتب وتكتفى بقراءته واقفا.

(*) مقدمة كتابى : «كتاب عن كتب» .

ولم أتصور أن هناك كتبا أخرى فى أى موضوع ليس دينيا ، أو أصغر حجما ، فهى - إذن - بداية جادة حزينة جافة أيضا ! وكان أعظم اكتشاف فى طفولتى أن وجدت «روايات الجيب» من ترجمة عمر عبد العزيز أمين، انقلابا . الكتب صغيرة ، لها أغلفة ملونة ، وأحيانا عليها صور عارية ، ويمكن وضعها فى جيبك ، وقراءتها وأنت ماش، وأنت نائم . . فى أى وقت وعلى أى وضع ، وموضوعاتها ليست دينية . . بل حكايات كلها بوليسية . . مثيرة ممتعة ولا تشبع منها ، بل أنت متلهف عليها وعلى المزيد منها . . فعندما عرفت روايات الجيب ، عرفت المتعة والتسلية والرغبة المؤكدة فى القراءة ، وانتقلت الكتب الدينية إلى تحت السرير ، إلى الظل .

وفجأة ظهرت كتب أخرى أصغر حجما وأجمل غلافا ، وهى كتب دينية : إذن فمن الممكن أن يكون الكتاب دينيا وسهلا ومسليا ويوضع فى الجيب ورخيص الثمن . إنها كتب الصحفى الكبير محمد صبيح . .

ورحت أبحث عن الكتب ذات الأغلفة الأنيقة ورخيصة الثمن ، والتى تريحك إذا قرأتها ماشيا أو نائما أو جالسا ، ولست مضطرا أن تنحنى عليها تقبلها أو تخشى أن تقع منك ، بل تقع ويقع عليها الطعام . لا خوف وليس حراما !

ويوم ذهبت أتسلم جائزتى عندما جاء ترتيبى الأول فى مسابقة الفلسفة ، والأول فى التوجيهية من وزير المعارف فى ذلك الوقت نجيب الهلالى باشا ، أعطانى كتبا من نوع لم أره قبل ذلك ، إنها مطبوعات «لجنة التأليف والترجمة والنشر» الغلاف أزرق لامع ، والورق مصقول ، والكتب ضخمة . مثلا : دزرائيلى - تأليف أندريه موروا ترجمة حسن محمود - من أمتع الكتب التى قرأتها فى حياتى . . كتاب «مبادئ النقد الأدبى» تأليف إبركرومبى ترجمة د. محمد عوض محمد . . الفلسفة اليونانية - تأليف يوسف كرم - وليس أروع من هذه الكتب أثرا فى حياتى ، لقد انفتحت نوافذ وأبواب وقلاع الحضارة الغربية تأليفا وترجمة على الآخر . .

وفجأة وجدت نوعا آخر من الكتب . من تأليف الصحفى الكبير أحمد الصاوى محمد . إنها أجمل وأمتع الكتب التى ظهرت أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية :

الرقص على البارد . . المرأة لعبتها الرجل . . الشيطان لعبته المرأة . . تاييس . . ففى هذه الكتب أناقة الطبع وأناقة العبارة !

* * *

وأخطر حدث فى حياتى قارئا وحريصا على أن تكون له مكتبة : ظهور كتب الجيب الصغيرة جدا التى تطالعها قوات الاحتلال البريطانى . فقد طبعوا لهم روائع الأدب العالمى فى طبعات رخيصة ، وكان يسكن إلى جوارى فى إمبابة بائع لهذه الكتب ، واشتريت مائة كتاب منها . . أى كل الذى كان يعرضه للبيع على عربة يد . . فكانت أول نواة لمكتبتى التى تضم اليوم أكثر من سبعين ألف كتاب . ولا أزال أحتفظ ببعض هذه الكتب ، حتى لا أنسى فرحتى بهذا الحدث الذى كان نقطة تحول فى حياتى الأدبية .

وارتبطت نهائيا بالكتب . . أقرؤها ، وأشتريها ، وأحرص عليها ، وأرتبها وأفهرسها ـ أما الآن فلكثرة الكتب وتنوعها وتعدد لغاتها (سبع لغات) لم أعد قادرا على الترتيب والتبويب . . إننى أعرفها من النظر إلى لون أغلفتها .

وعند دخول الجامعة اكتشفت شيئا لم أكن أعرفه : دوائر المعارف . . كنت أقرأ عنها ولكن لم أرها ، لم ألمسها ، لا أعرف كيف يكون شكلها وحجمها ولا الطريق إلى شواطئ محيطاتها العميقة . وفى مكتبة الجامعة تعلمت كل ما كان ينقصنى من الجلوس الطويل ، والصمت العميق ، وكيف ينسى الإنسان طعامه وشرابه ودنياه والزمن والهموم فى المكتبة الجامعية . . وكيف أنه يجلس إلى جوار الأساتذة يطلب العلم مثلهم . وأمام العلم ، فكل الناس صغار . . وكل الناس يجب أن يتواضعوا ، فلا نهاية لما لا يعرف من كل شىء !

رأيت «دائرة المعارف الكاثوليكية» فى الدير الدومنيكى بشارع مصنع الطرابيش بالعباسية . . تحفة فلسفية دينية . .

ورأيت «دائرة المعارف البريطانية» فى مكتبة الجامعة .

ورأيت «دائرة المعارف الألمانية» فى بيت المستشرق اليوغسلافى الألمانى باول كراوس ، وكان أستاذى فى اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية . .

ثم رأيت «دائرة كولومبيا» فى بيت الأستاذ العقاد . .

واليوم أملك من هذه الدوائر عشرين بست لغات .

ومن أعز ما أملك فى مكتبتى وثيقة كتبها أمين مكتبة المنصورة يشهد لى فيها بأننى عندما كنت تلميذا قرأت كل ما فى المكتبة من كتب وقصص . . ويدعو الله أن يباركنى وأن ينفع بى بلدى وأهلى . ولم يكن من أجل هذه الوثيقة قرأت واستمتعت، وإنما من أجل المتعة التى هى أعظم وأرقى وأنبل وأبقى المشاعر العقلية .

والمثل اللاتينى القديم يقول : العلم طويل والعمر قصير !

تماما كالطعام والماء والهواء ـ مهما أخذت فالباقى كثير جدا .

ورفاعة الطهطاوى المثقف الأول فى العصر الحديث عندما كدس الكتب أمامه فى باريس، وجد أن الذى يجب أن يقرأه فى حجم الهرم الأكبر . . وحيره ذلك . ولكن عليه أن يختار، ويريح نفسه . يقول فى ذلك شعرا بسيطا :

ما حوى العلم جميعا أحد   لا ولو مارسه ألف سنه
إنما العلم عميق بحره   فخذوا من كل شىء أحسنه !

وعندما فكر الطهطاوى فى أن يتوكل على الله ويترجم روائع الأدب الفرنسى رأى فى نومه حلما عجيبا، وحار فى تفسيره . أما الحلم فهو أنه يمسك أعوادا من القش يريد أن يصنع منها جسرا يربط بين القاهرة والجيزة، وأدهشه ذلك ولم يفهم إلا بعد وقت طويل . . أن الذى يصنعه فى ترجمة الكتب الغربية كالذى يصنع جسرا بين مصر وفرنسا من أعواد القش . . إنه عمل ضخم جدا، وليس من أعواد القش . . إنه حلم خرافى . . أو إنه مهما فعل فالمطلوب كثير جدا وليس فى استطاعته وحده أن يفعل ذلك !!

ولا فى استطاعة أى أحد أن يشترى أو يقتنى كل الكتب . . ولذلك فالمكتبة العامة هى أعظم المرافق التى هيأتها الدولة للناس ـ حتى لو كان فى استطاعة الناس أن يشتروا ألوف الكتب، ففى المكتبة العامة الهدوء والاحترام والصمت والتفرغ والتواضع ونسيان غريزة الملكية . . أن تملك هذا وذاك . . لماذا؟ ما دمت لا تستطيع

الآن، فالمكتبة أفضل، فإذا استطعت فبعض الكتب، وإذا استطعت أكثر، فسوف تبقى المكتبات العامة أهم وأنبل ما تقدمه الدولة من فرص عامة للسعادة الثقافية !

ولكن أهم ما صنعته القراءة: أننى اعتدت عليها. إننى لا أستطيع أن أعيش بغيرها. والله خلق الإنسان قارئا متحدثا مفكرا، وأول كلمة فى القرآن: اقرأ . . وأول عبارة فى التوراة: فى البدء كانت الكلمة . . والكلمة هى العقل والحكمة التى هى من عند الله . . .

وأهم ما يجب أن نغرسه فى الطفل والشاب: أن يتعود القراءة، أن يدمن القراءة. ومن تجربتى أن نترك الطفل والشاب يقرآن أى شيء؛ كل ما يجدان؛ لأن أهم ما فى القراءة: المتعة . . اللذة . . التسلية . . الاستغزاق الذى ينسيك كل ما حولك وما فى داخلك . . والاستغراق وحده هو الذى يغسلك ويعصرك وينشرك، ويريحك بعد ذلك . .

وبعد أن تكون القراءة متعة فأمامك بعد ذلك أن تختار الذى تخصصت فيه. وإذا مللت الذى تخصصت فيه اتجهت إلى الكتب المسلية . . لقد كان العالم الفيزيائى الكبير أينشتاين يقرأ الروايات البوليسية . . وكان أستاذنا العقاد لا يحب الروايات وكان يرى فيها مضيعة للوقت . . ولو عرف العقاد الروايات لكان توتره العصبى أقل ومصرانه الغليظ أهدأ ولكانت معدته أقدر على الهضم . . ولكن العقاد اختار أن يفكر طوال الوقت، وأن يقوم عقله بدور عشرين حصانا جامحا تجرجر القلب والمعدة والمصارين فى كل اتجاه !

وأعود إلى المندهش الأول فى تاريخ الثقافة الأزهرية، إلى أول من تلقى «الصدمة الحضارية» عندما ذهب إلى باريس فى القرن التاسع عشر: رفاعة رافع الطهطاوى، يقول فى سذاجة وصدق:

أربعة من الناس ميزتهم — أحوالهم مكشوفة ظاهره
فواحد دنياه مقبوضة — تتبعها آخرة فآخره
وواحد دنياه ممدودة — ليست له من بعدها آخره
وواحد دنياه معمورة — كذاك أخراه غدت عامره
وواحد بينهم ضائع ! — ليست له دنيا ولا آخره !

وهم الذين يقرءون والذين لا يقرءون، أو يقرءون النافع فى الدنيا والآخرة، والذين لا قرءوا ولا فهموا، فضاعوا دنيا وآخرة !

وأحسن ما جاء فى الكتب العربية القديمة أن أديبا دخل على الخليفة عبد الملك بن مروان فوجده يقرأ، فقال له : يا أمير المؤمنين إن الكتاب أنبل جليس، وآنس أنيس، وأصدق صديق، وأحفظ رفيق، وأكرم مصاحب، وأفصح مخاطب، وأبلغ ناطق، وأكتم وامق (محب)، يورد إليك، ولا يصدر عنك، ويحكى لك، ولا يحكى عنك، إن أودعته سرا كتمه، وإن استحفظته علما حفظه، وإن فاتحته فاتحك، وإن فاوضته فاوضك، وإن جاريته جاراك، ينشط بنشاطك، ويغتبط باغتباطك، ولا يخفى عنك ذكرا، ولا يفشى لك سرا، إن نشرته شهد، وإن طويته رقد، خفيف المئونة، كثير المعونة، حاضر كمعدوم، غائب كمعلوم، لا تتصنع له عند حضوره فى خلوتك، ولا تحتشم له فى حال وحدتك. فى الليل نعم السمير، وفى النهار نعم المشير.

فقال عبد الملك بن مروان: لقد حببت إلى الكتاب، وعظمته فى نفسى، وحسنته فى عينى . .

وقال شاعر قديم ينصحك أن تتسلى بالشعر :

إذا الهموم نزلن منك ولم تجد ... أنسا، ومل فؤادك الأحبابا
فاعمد إلى الكتب التى قد ضمِّنت ... أوراقها الأشعار والآدابا
فهى التى تنفى الهموم ولن ترى ... أحدا له أدب يمل كتابا !

ومن الممكن أن تمل القراءة، طبيعى، فعندما يمل الإنسان كل شىء، تكون الكتب أولى الضحايا . . .

تماما كما أن الأصابع لا تقوى على أن تمسك بشىء، والعين ترفض أن تلاحظ شيئا، والأذن تمج الأصوات، فإن العقل يطرد الأفكار، والقلب ينكر المشاعر . .

وعندما تمل كل شىء، فهذه لحظة يتحول فيها الوجود إلى عدم، والجميل إلى قبيح، وكل شىء إلى هباء، وأنت تحتاج إلى مقشة تكنس الدنيا من أمامك . . .

لقد جربت هذه الأحاسيس العنيفة الرافضة المتمردة . . هذه اللحظة الوجودية الثورية . .

ولكن لا شيء يروض العقل مثل الكتب . . وعليك أن تروض العقل وتراوده حتى تجد الكتاب الذى يهدئ هذه الثورة . . قد يكون كتابا فى الحب . . فى الجنس . . فى أى موضوع . لا يهم الموضوع . المهم هو أن تستعيد شهيتك المفتوحة على الدنيا . . حدث لى ذلك كثيرا ، ويحدث ، وأعرف الداء والدواء .

فكثيرا ما أجدنى فى الساعات الصغيرة من كل يوم فى نشاط وحيوية . ولكن لا أريد أن أكتب ، ولا أريد أن أقرأ ما كان فى نيتى . إذن فعقلى يريد أن يلهو ويلعب . . أن يتمرد فيقفز بلا قيود ، مثل رواد الفضاء على القمر ، حيث تضعف خيوط الجاذبية . فليكن . من حق العقل أن يستريح منى . . ولذلك أجدنى أقلب فى كتب الرحلات . . فى الفلك . . فى النبات فى الحيوان . . فى الاعترافات . . فى الشعر ، المهم أن يلهو العقل ويلعب على مرأى منى مربوطا بخيوطى .

ولن يتحقق لك ذلك إلا بعد تمرين مستمر وتدريب طويل . . ولكن المهم ألا تنزعج إذا وجدت عقلك كذلك ، أما الداء فأنت تعرفه والدواء أيضا .

* * *

صدقنى كل الذين حولك يكذبون . . كل الذين تدور حولهم ، تكذب عليهم أنت أيضا . ولا لوم عليك : فالكذب والنفاق أوكسجين الحياة الدنيا التى هى مصالح فى مصالح فى مصالح ، والذى نسميه الحب : هو ماكياچ خارجى . والأرقام تؤكد لنا أن أعظم صناعة فى الدنيا هى صناعة الماكياچ والعطور والتجميل ، لماذا؟ لأننا قد اتفقنا على الكذب والخداع وإخفاء الحقيقة . .

إلا الكتاب . . إنه صريح . . إما أن تقبله كله وإما أن ترفضه كله . . ولا يقاومك . . فإذا ضاقت بك الدنيا ، وهى ضيقة ضائقة ، فالكتاب أوسع وأرحب . . كتاب تملكه أو تستعيره !

كيمياء الفضيحة (*)

فى البدء كانت الفضيحة . .

كان الشعور بالفضيحة . . فقد كانت فى الجنة شجرة محرمة، ولكن الشيطان ضحك على حواء التى ضحكت على آدم، فأكل الاثنان منها . . وفجأة اكتشفا أنهما عاريان تماما . . فراح الاثنان يتغطيان بأوراق الشجر . .

وبسبب هذه المعصية نزلا إلى الأرض . . أى بعد أن افتضح أمرهما . . وبعد أن ظهرا عاريين تماما كان لابد أن يخرجا من الجنة ويكفرا عن هذه الغلطة . . هذه الخطيئة . . وكانت حياتهما . . وحياتنا . . على هذه الأرض تكفيرا وتطهيرا واستمرارا فى الخطايا والتكفير عنها . .

وعندما قتل قابيل أخاه هابيل . سئل : كيف حدث ذلك؟

قال ما معناه : وهل أنا حارس لأخى؟

يعنى لا أعرف من الذى قتله، ولم يكن غيرهما فى هذه الدنيا، فهو القاتل . .

وترك جثمان أخيه مكشوفا . . فجاء غراب ودفن غرابا قد مات . . وعرف هذا الأخ القاتل أنه أقل فهما من الغراب . .

وقبل ذلك عندما طلب الله إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا . . إلا إبليس، وكان كبير الملائكة، رفض لأنه مصنوع من النار، وآدم مصنوع من التراب . والنار أشرف من التراب . ولكن فوجئ بأن آدم أهم عند الله من إبليس . .

(*) مقدمة كتابى : «كيمياء الفضيحة» .

وأن آدم له العقل والقلب وحب المعرفة والقدرة على التطوير والإبداع . . وأهم من ذلك أنه ولد ليموت . . فالحياة بلا موت قاسية . . فعندما يطول العمر وتكثر الأوجاع يتمنى الإنسان الموت لأنه أرحم من الحياة . .

وكان آلهة الإغريق يحسدون الإنسان لأنه يموت . . أما هم فلا يموتون . . فحياتهم مملة . . بل إن آلهة الإغريق كانوا يجعلون أنفسهم بشرا ليتمتعوا باللذات البشرية . . فهم يحسدون الإنسان على أنه فان وليس خالدا، والخلود حياة واحدة مملة .

وشعر إبليس بأنه مفضوح . . بأنه جاهل . . بأنه مغرور . . وأن آدم قد مسح به التراب الذى خرج منه . . وأنه رغم التراب أشرف عند الله . .

وقد رأيت فى فيلم «الكتاب المقدس» الذى كتبه الشاعر الإنجليزى كريستوفر فراى وقامت ببطولته صوفيا لورين . . رأيت أن دم هابيل بن آدم قد تسلل إلى مياه الأنهار ليشربه كل أولاد آدم بعد ذلك . . فتكون الخطيئة فى دمهم . . فالإنسان مخطئ، وحياته خطيئة، ومحاولة هروبه من الخطيئة التى لها أول وليس لها آخر . .

ولولا فضيحتك أنت شخصيا لكانت حياة جارك مملة . . فأنت متعته التى لا تنتهى .

وقد تكون الفضيحة لحظة . . كأن يسقط منك بنطلونك فى حفلة عامة !

وقد تكون الفضيحة عشرات السنين كأن يسقط البنطلون والجاكتة الشيوعية عن كل الدول التى كانت جزءا من الإمبراطورية السوفييتية . . فقد جاء الزعيم جورباتشوف وفضح الانحلال والانتهازية والمخدرات والفساد الشيوعى . . فسقطت الشيوعية بعد سبعين سنة من الممارسة العنيفة . . وتفككت الدول التى كانت مربوطة بالحديد والنار والخوف . . فكان الاتحاد السوفييتى مثل الطائر إيكاروس الذى ألصقوا الريش فى جناحيه بالشمع . . فلما اقترب من الشمس تساقط كل الريش . . وتحطم إيكاروس، كذلك كل الدول الشيوعية !

فهى أكبر فضيحة مذهبية سياسية اجتماعية فى التاريخ . .

أذكر أننى عندما كنت فى أندونيسيا عام ١٩٥٩ قرأت فى الصحف أن الدولة قد أبطلت الأوراق المالية من فئة المائة والخمسين روبية، فى تلك اللحظة قفزت من المقعد إلى الجلوس على الأرض، فهذا هو المكان المناسب لواحد خسر كل ما لديه من مال.. تماما مثل إيكاروس الذى سقط.. فقد سقطت وأحسست أننى عريان وبلا غطاء.. ولا أمل فى غطاء.. واكتشفت أننى غلطان، فقد نصحونى أن أحتفظ بأوراق ذات فئات صغيرة، ولكن اخترت الفئات الكبيرة حتى لا يتكوم ويتكدس الورق فى جيبى.. ولكن ماذا يحدث لو تكدس الورق أو تكوم؟ إنها غلطة وفضيحة ذكاء، فقد توهمت أننى أذكى وأننى أقدر وأبعد نظرا من الآخرين، فكانت هذه النتيجة..

ومن الممكن أن تكون فضيحة دولية.. فوزير الدفاع البريطانى بروفومو الذى يملك أسرار الحرب والسلاح والمخابرات، هذا الرجل كان عشيقا لواحدة جميلة.. هذه العشيقة، كانت عشيقة للملحق العسكرى الروسى.. فكانت أسرار بريطانيا فى جيب الملحق العسكرى. فضيحة ما بعدها فضيحة. وانكشف ضعف الرجل أمام الجنس، وضاعت أسرار بريطانيا بسبب ذلك!

إنها ليست فضيحة رجل ولا فضيحة وزير، ولكن عار دولة من أولها لآخرها.. وكارثة شعب استسلم لأحد رجاله وأئتمنه على سر وجوده!

وغير بروفومو كثيرون مثل الرئيس كنيدى والرئيس نيكسون وولى عهد بريطانيا..

* * *

وهناك فضيحة عصر..

فشاعرنا العظيم المتنبى كان يعيش على مدح الخلفاء والأمراء.. إن أعطوه مدحهم، إن منعوه شتمهم.. ثم يذهب إلى آخرين يمدح ويقدح..

وكان المتنبى، وهو أعظم شعراء العرب، عاطلا.. صناعته الشعر.. وسلعته المدح والهجاء..

وحياة المتنبى فضيحة لزمانه كله.. فالشعر لا ثمن له والشاعر العظيم لا قدر له.. وإنما الشعر زينة الخلفاء والأمراء.. أما الشاعر نفسه فلا شىء.. لا هو قادر

على طبع ديوان له . . ولو فعل فإن الديوان لا يساوى وزنه ترابا . . وهكذا عاش مئات الشعراء عاطلين، وليس العيب فيهم، ولكن العيب فى زمانهم . . وليس نظم الشعر فى أى غرض فضيحة لهم . . ولكنها فضيحة العصر كله . .

والمقامات هى تأكيد لذلك . .

ففى مقامات بديع الزمان الهمذانى ومقامات الحريرى . . نجد البطل رجلا يتظاهر بالفقر ويبهر الناس بعلمه ويضحكهم لكى يعطوه . . وهو يرتزق بعد أن يجعل نفسه أراجوزا بليغا فصيحا . . ثم يكتشف الناس أنه أبو زيد السروجى . . أو أبو الفتح السكندرى الذى يصف نفسه قائلا :

تعارجت لا رغبة فى العرج ولكن لأقرع باب الفرج
وأحمل حبلى على غاربى وأسلك مسلك من قد مرج
فإن لامنى القوم قلت اعذروا فليس على أعرج من حرج

فالرجل ليس أعرج، ولكنه يتعارج . . وليس بهلوانا، ولكنه يفتعل ذلك !

فليس الأدب ولا الشعر ولا البلاغة ولا الفصاحة، ولكن إضحاك الناس وإثارتهم ليكتشفوا أنه خدعهم وضحك عليهم . . وهم ينتظرون ذلك، ويطلبون منه المزيد فى خداعهم . . وإلا فلن يعطوه مالا . .

ويسمى هذا الأسلوب فى التحايل على الرزق : الكدية . .

وهذا شأن الظرفاء فى الأدب والشعر . . ليس الأدب وليس الشعر، ولكن «الكدية» أى التكسب بالأدب وبالشعر . . أى بأن يبذل الشاعر ماء وجهه من أجل الرغيف والكساء . .

ولم يعرف الأدب العربى رجلا تعيسا مثل «أبى حيان التوحيدى» فهو دميم مثل الحريرى والجاحظ والبحترى وسقراط . . وهو كافر بالدنيا وبالناس لأنه لا يجد لقمة إلا إذا بهر الناس بعلمه وحكاياته . . فإذا لم يفعل مات على باب الخليفة أو الأمير ـ منتهى الهوان، وفى الوقت نفسه فضيحة لكل الناس ولكل العصر !

* * *

نحشد الناس تمامًا كأنهم قطيع . . وأن نضع لهم أنيابًا وأظافر ليدافعوا عن الرغيف وعن مكانهم فى المجتمع وفى الدنيا أيضًا . .

حيوانات؟ نحن؟ نعم، وأقل من ذلك . .

أما الدول غير الشيوعية فهى «تنصب» على الناس وتخدعهم بأن تقدم لهم المخدرات . . أى الدين . . فالدين أفيون الشعوب، والغرض من الدين هو حماية أموال وثروات الأغنياء، وفى الوقت نفسه هناك وعد قاطع بتعويض الفقراء عن جوعهم يوم القيامة . . وكل ذلك أكاذيب اخترعتها الرأسمالية والإقطاع معًا لتسخير الناس وحشدهم للدفاع عن الأغنياء . .

ولذلك فالشيوعية تجرد الناس من هذا الأفيون وتأخذ من الأغنياء اللصوص - فكل الأغنياء لصوص - وتعطى أموالهم للفقراء . . بل تلغى حق أى إنسان فى أن يملك . . فالكل أمام القانون فقراء . .

طبقة واحدة من الجياع الأذلاء العراة . .

وسقطت الشيوعية، وأحس الناس أنهم مغفلون . .

وقبل أن تسقط الشيوعية شعرنا نحن فى الدول الأخرى أن الإنسان هو مزيج من العظمة والمعرفة . . وأنه يموت جوعًا ولا يمد يده، وأنه من أجل الكرامة يدفع أى ثمن . . وأهون ثمن يدفعه هو حياته - كنا نقول ذلك لأنفسنا ولغيرنا - ولكن عندما جاءت الشيوعية شعر الغرب كله والعالم الغربى بأن الشيوعية فضحت الإنسان . . فقد هدمت مشاعره . . وإيمانه بكرامة الإنسان وعظمة الإنسان . . ففى الدول الشيوعية مئات الملايين يعيشون بلا كرامة ولا عظمة . .

فليس الإنسان دائمًا ومهما كانت الظروف مزيجًا من العبقرية والكرامة والكبرياء؟!

إنها فضيحة لنا جميعًا شرقًا وغربًا!!

* * *

ثم جاءت مدارس التحليل النفسى تؤكد أننا حيوانات من الداخل والخارج . . والإنسان للإنسان ذئب وكلب وحمار . .

فالذى فعلته مدارس التحليل النفسى أنها كشفت أعماق الإنسان . . فإذا هى مظلمة . . وإذا الإنسان شرس متوحش لا رحمة معه ولا رحمة عنده . . وأن التعليم والثقافة والحضارة كلها ليست إلا تعليمًا وتهذيبًا لأظافر ومخالب الإنسان . . وتركيبًا للفرامل على كل مشاعره . .

وفى الدنيا يقتل الابن أباه، والأم ابنها . . وتقوم المجازر دفاعًا عن المذهب والدين . . وتقوم الحروب بين الشعوب التى تستخدم أعظم ما وصل إليه الإنسان من علم فى تحقيق أحط مشاعر الإنسان وأحقر رغباته . .

والناس فى الحروب كالسكير الذى يدخل البار . . إنه بكامل قواه العقلية ذهب لكى يفقدها ويقع فى الأرض ويتمرغ ويقول : أنا مبسوط كده!

وفى الحروب يستخدم الإنسان كل أدوات القتال . . أحدثها وأكثرها تطورًا وقدرة على التدمير . . ويتباهى بذلك . . ثم يحارب ويقتل الألوف ويموت منه الألوف . . وفى الدقيقة نفسها تدق الطبول والموسيقى تغنيًا بالحرب المقدسة دفاعًا عن الأرض المقدسة . . وأن هذه إرادة الشعوب التى هى إرادة الله، أى أن القتل كان باسم الله . . والموت هنا وهناك دفاع عن شريعة الله . . وهكذا ترى أن القاتل شهيد والقتيل أيضًا . .

وكلها تفضح وحشية الإنسان . . مهما كانت عقيدته، ومهما كانت طبوله، ومهما كان سلاحه . .

* * *

وفى حياتنا اليومية أحداث صغيرة، ولأنها صغيرة فإننا لا نلتفت إليها، وبذلك لا نستخرج معانيها العميقة، أى التى فى أعماقنا ثم خرجت ليكون خروجها فاضحًا لنا . .

تقول الأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار إن الشعب الفرنسى قد فضح نفسه عندما أحب بريجيت باردو وجعلها ملكة للإغراء والفتنة . . فالذى ينظر إلى هذه الفاتنة يجدها طفلة . . عيناها وشفتاها ودلعها . . كلها تؤكد طفولتها، ومعنى ذلك أن الشعب الفرنسى قد أحب طفلة ولم يحب أنثى ناضجة، لقد أكد ذلك فساد ذوق

الفرنسيين وشذوذهم أيضًا! لقد فضحوا أنفسهم. . أكدوا لنا دون أن يدروا أنهم شواذ. . وأنهم مرضى!

وقالت أيضًا: إن شباب فرنسا قد فضح نفسه مرة أخرى عندما وقف طوابير بالألوف يتفرج على تابوت توت عنخ آمون؛ ذلك الملك الطفل، والذى لا قيمة له فى تاريخ بلاده، وإنما هو صاحب المقبرة الوحيدة التى اكتشفوها سليمة، فالمقبرة هى التى وهبته الشهرة والحياة. . والشباب الفرنسى وقف مفتونًا بما يرى. . لماذا؟ لأن الشباب الفرنسى يتفرج على نفسه، فالملك توت طفل. . وهو صاحب التابوت الوحيد الذى لم يجد فيه الباحثون عضو الذكر. . بينما كل التوابيت الفرعونية قد بقى لأصحابها هذا العضو. . إلا توت عنخ آمون. . فهو نموذج للعجز الذى عند الشباب الفرنسى. وكأن حب الشبان للملك توت هو حبهم لأنفسهم. . وكَشْفٌ لهم. . لحقيقتيهم الجسمية والنفسية!

* * *

وأشهر فضيحتين فى الأدبين القديم والحديث فضيحة لوكريشيا والتى اتخذها الأدباء والشعراء والرسامون موضوعًا لهم. . ومن أحسن الذين تناولوا فضيحة لوكريشيا الأديب الفرنسى جان جيرودو عميد المسرح الفرنسى، فكتب مسرحية بعنوان «من أجل لوكرس»، وقد ترجمتها أنا إلى العربية بعنوان «من أجل سواد عينيها». .

ثم فضيحة أفسنتاسيا فى مسرحية الأديب السويسرى ديرنمات بعنوان «زيارة السيدة العجوز». . وقد ترجمتها أيضًا إلى العربية وبالاسم نفسه، وقد ظهرت على الشاشة بعنوان «الزيارة». .

أما لوكريشيا فتقول الأساطير القديمة إنها كانت سيدة فاضلة، وإنها كانت حديث المدينة كلها. . وكان زوجها كوتيلوس فى إحدى الحانات يباهى أصدقاءه بجمال وفضيلة زوجته. . وفى الوقت نفسه يتحدى الأصدقاء أن يجد الواحد منهم زوجته فى وضع محترم. . وتضايق الأصدقاء، وذهب كل واحد إلى بيته ليجد زوجته فى حضن رجل آخر. . إلا لوكريشيا فقد كانت ترتب فراشها وتطهو

طعامها . . وقد تضايق أحد الأمراء من ذلك، وقرر أن يمرغ لوكريشيا هي وزوجها في الوحل . . فهي جميلة وهي فاضلة وهي مصدر غيظ وضيق لكل الزوجات، فذهب إليها وفي يده خنجر، وهددها، وهدد حياتها إذا لم تستسلم له فسوف يقتل خادمها الزنجي ويقتلها ويلقى به فوقها . . ويقول للناس إنها كانت تخون زوجها، وإنه لذلك قتلها، فاستسلمت له، وذهبت لوكريشيا إلى زوجها وطلبت إليه أن يدعو أربعة من أصدقائه، واعترفت لهم بما حدث، وأنها لا تستطيع أن تعيش لحظة واحدة بعد هذا الاغتصاب، وأنها تريد أن يظل اسمها رمزا للشرف . . ثم انتحرت، ونهض زوجها وأخرج السيف من بطنها وقرر الانتقام . .

وفي مسرحية جان جيرودو تتفق جميع الزوجات على قضاء يوم خارج المدينة . . وذهب كل الأزواج وكل الزوجات . . إلا لوكريشيا التي تترفع عن مشاركة الزوجات المنحلات، ولكن الزوجات دبرن لها كارثة . . فقد بعثن برجل إليها في البيت . . وأخبرن زوجها بأن يدرك زوجته التي تخونه . . وذهب ووجد هذا الرجل . .

وكان الهدف أن تصبح لوكريشيا منحطة سافلة كبقية النساء . . ولم تفلح المكيدة . . فلم تنحط امرأة، وإنما انحطت مدينة كلها لم تستطع أن ترقى إلى مستوى لوكريشيا . . الرجال عاجزون عن تقويم النساء . . والنساء لم يفضحن واحدة منهن، وإنما فضحن كل النساء وكل الرجال !

أما فضيحة أنستاسيا بطلة «زيارة السيدة العجوز» . . فقد كانت تحب رجلا، والرجل في إحدى القرى، والقرية فقيرة جدا، وهي غنية جدا، وجاءت تنتقم . . كانت أتوبيساتها محملة بالبضائع والطعام، وأشبعت الشعب وأسعدته . . ثم تقدمت بمطالبها وهي إعدام الرجل الذي خانها وهجرها وحطم قلبها . . وإلا منعت عنهم المال والطعام . . وراحت القرية تحفر قبرا للرجل، والناس ذهابا وإيابا يشاهدون القبر . . بل إن الرجل الذي جاءت تنتقم منه قد شاهد أهل بلده يحفرون له قبرا . .

إنها امرأة جبارة جاءت تنتقم مستخدمة ضعف الناس وعجزهم وحاجتهم إلى الطعام أكثر من تظاهرهم بالرحمة والشفقة والكبرياء . .

فالمرأة العجوز لم تفضح شخصا واحدا . . وإنما فضحت مدينة كاملة . . فضحت ضعفها وعجزها . . وجعلت الناس يتوارون خجلا من أنفسهم : إذ كيف يحفرون قبرا لرجل ما يزال حيا، ولأن امرأة جاءت تصفى حسابها العاطفى معه . . كيف يفعلون ذلك دون خجل؟!

والجواب : الرغيف أقوى . .

* * *

إنها الفضيحة : إنه الشعور بالعار والعرى . . فى مرآتك أنت أو مرآة الشعب . . أو مرآة كل الشعوب . .

إنه شعور بالخجل والعجز لحظة . . أو ملايين اللحظات . .

ولكن الإنسان هو الحيوان الوحيد القادر على أن يقع فى الفضيحة . . وأن يتجاوزها . . ليقع فى واحدة أخرى ويتجاوزها بعد أن يكون قد عبر عنها واتخذها عبرة . . ولكن الإنسان ينسى . . ولا يثبت على حال . .

قال الشاعر القديم :

وما سمى الإنسان إلا لنسيه   وما سمى القلب إلا أنه يتقلب !

فالإنسان ينسى . . وقلبه ينقلب وعقله يبحث عن الغطاء، وكما صنع الغطاء فإنه يسقطه . . ليضع غيره وهكذا.

فمن فضيحة آدم وحواء فى الجنة إلى فضيحة أمريكا وروسيا فى حرب النجوم!!

فقد كنا نظن أن سفن الفضاء والكواكب الأخرى والتسابق عليها . . إنما هو من أجل البحث عن مكان أهدأ وكوكب أجمل . . سمواً بالإنسان وعلواً بمشاعره، وحرصا على الحياة الأهدأ والأجمل على أرض غير هذه الأرض . . .

وفجأة اكتشفنا أننا فقط إنما نغير مواقع القتال وبالأسلحة نفسها وللأهداف نفسها!

إنها فضيحة على أعلى المستويات الفلكية !

ما لا تعلمون (*)

يجب أن نهتم بالآثار . ولكن الحقيقة أنه لا أنا ولا أنت نهتم بها ؛ لأن الاهتمام بما حولنا ليس من طبعنا .

ولأن الآثار كثيرة ، وهى لكثرتها لا تستلفت العين ، ولا نهتم بها إذا انحنى عليها خواجة أجنبى ؛ فالملايين لم تدخل المتحف المصرى ولا بقية المتاحف ، والملايين لم تر توت عنخ آمون لا قبل زفافه فى باريس ولندن ولا بعد ذلك .

وعندما نسافر إلى الخارج ونزور المتاحف ونرى الحفاوة بالتحف المصرية فإننا نستمد بعض الأهمية من مجرد الوقوف أمامها ، ثم نعود إلى مصر نروى ذلك ، ولا نفعل أكثر من هذا .

حتى اللصوص الذين يسرقون الآثار فى صعيد مصر لا نهتم بهم لأنهم يسرقون الآثار ، ولكن لأن الذين يشترون منهم هذه التحف يرون فيها شيئًا عظيمًا ، وفى إهمالنا لها خطيئة أعظم ، فحتى لا نبدو مغفلين أمام الخواجات ، نطارد اللصوص فى مقابر الصعيد!

ولا نزال نحفر الأرض بحثًا عن مزيد من المقابر . ومنذ أيام اكتشف العلماء هرمًا ، أى مقبرة ، ثم عادوا فقالوا إنها مقابر كثيرة .

وسوف يوالى العلماء الحفر فى أرض مصر . .

وهذا الحفر معناه أننا نخفى وجوهنا فى الأرض ، هربًا من الحاضر وفزعًا

(*) مقدمة كتابى : «ما لا تعلمون» .

من المستقبل. تمامًا مثل جنون السفر إلى الكواكب الأخرى، ضيقًا بهذه الأرض وأهل الأرض. .

كأننا ونحن ندق الأرض نكتب عليها أن عصورنا الذهبية تحت أقدامنا، وليست فوقنا، وراءنا وليست أمامنا مع أننا نعيش فى عصر قوتين عظميين تعيشان على إدمان المستقبل. . فروسيا ترى مستقبل البشرية أمامها وأمريكا شعب ليس له ماض، ولكن له مستقبل!

وكأننا ونحن نريد أن نكتشف هرمًا جديدًا، نحل بذلك لغز الأهرام القديمة ـ فلا تزال الأهرام لغزًا ـ وتحت الهرم الثانى توجد بعثة من العلماء تسجل الأشعة الكونية لعلها تكشف ما فى داخل الهرم الثانى والثالث والأول. فعلى الرغم من أن الأهرام هى أبرز ما خلفه أجدادنا فإنها أكثرها غموضًا. . إنها واضحة بارزة حتى كأننا لا نراها.

وعندما وقف نابليون يوم ٢١ يوليو سنة ١٧٩٧ أمام الأهرام قال: أيها الجنود إن أربعين قرنًا تنظر إليكم من هذه الأهرام.

انتهت عبارة نابليون، ولكنها عبارة ناقصة؛ فهو لم يقل لجنوده ما الذى تقوله هذه القرون وهى تنظر. . إن نابليون كان يريد أن يقول لجنوده إن التاريخ كله ينظر إلى القوات الفرنسية وما سوف تعمله فى مصر وفى الشرق الأوسط؛ فكل خطواتها تاريخ، وكل انتصاراتها مجد. .

ولكن القرون الأربعين مضت ولم تقل شيئًا، فلا أحد يعرف ما الذى أراد الفراعنة أن يؤكدوه فى هذه الصخور، فالفراعنة قد عرفوا الخلود عندما اكتشفوا الحجر، والفراعنة شقوا الجرانيت، ولم يعرف إلا فى منتصف القرن الثامن عشر أنه يمكن شق الجرانيت بقطع من الألماس!

ولم يذهب أحد إلى أبعد مما قاله نابليون. . فالمؤرخون والكهنة والشعراء توالوا، وكل واحد قال حكمة تكسرت على أحجار الهرم. . وبقيت الأحجار واندثرت الكلمات. الشاعر شيلى قال: إن هناك أناسًا يشبهون الهرم، صدورهم عريضة إذا اقتربوا من الأرض، صدورهم ضيقة إذا ارتفعوا!

وقال الشاعر شيلى أيضًا : سوف يمضى النيل فى طريقه لا يغيره، وسوف ينهار الهرم، وتروى كل حجرة سر ما تحتها .

وغير النيل طريقه، ولم يتهدم الهرم، تساقطت منه أحجار ولم نعرف شيئًا!

وظل الهرم أو الأهرام نموذجًا لإنكار الذات، فالذى بناه لم يشأ أن يوقع بإمضائه عليه!

والشاعر إمرسون قال : حتى لو انهدم الهرم، فستكون هناك فراشات تتساقط منها بذور لنبات تخرج منها الزهور!

ولما جاء هيرودوت فى القرن الثالث قبل الميلاد روى له الكهنة كيف أن الملك خوفو أقام هذا الهرم، وكيف أنه أغلق المعابد وجند الشعب كله لبناء الهرم . . وكيف أن هذا الملك عندما عجز فى آخر أيامه عن إكماله الهرم . قال لابنته : ساعدينى!

وفتحت الابنة بيتها لكل عشاق مصر، وطلبت من كل عاشق أن يضع للهرم حجراً، فبنت الهرم الأول . ويقال إن الأحجار كانت تكفى لبقية الأهرام!

هل هى فضيلة ابنة . . أو سفالة أب؟!

وجاء المؤرخون الآخرون مانيثون وديودوروس الصقلى وأسترابون وبلينى والمقريزى والمسعودى وابن عبد الحكم وغيرهم، وكل واحد يستمع إلى قصة ويصدقها، فليس عنده دليل آخر غير الذى سمعه . وتنتهى روايات المؤرخين بـ « أن الله أعلم بما أراده الفراعنة»، وبقى الهرم الأول والثانى والثالث والخمسون سرا لا يدرى به أحد .

وعندما جاء ابن جبير الأندلسى إلى مصر بهره الهرم، ولكن ليس أكثر من مستشفى المجانين ومقياس النيل وجامع عمرو بن العاص . ووصف الأهرام «كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء، ركبت تركيبًا هائلاً بديع الإلصاق دون أن يتخللها ما يعين على إلصاقها، محددة الأطراف» .

وسمع هو أيضًا أن قوم «عاد» قد أخفوا فيها الحكمة والعلم فى زمانهم، «وبالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عز وجل» . ويقول أيضًا : وعلى مدى «غلوة» ـ الغلوة هى المسافة التى يقطعها السهم إذا رميته ـ صورة غريبة من حجر قد قامت

كالصومعة على صفة آدمى هائل المنظر وجهه إلى الأهرام وظهره إلى القبلة مهبط النيل يعرف «بأبى الأهوال».

ولما جاء ابن بطوطة بعد ذلك قال إن أحد ملوك مصر قد رأى فى نومه أن الطوفان قادم حتمًا، فأقام هذا الهرم وأودعه كل العلوم حتى لا يجرفها التيار..

ويقول ابن بطوطة إن الذى بنى الأهرام كتب عليها من الخارج «بنيت هذه الأهرام فى ستين عامًا، فليهدمها من يريد ذلك فى ٦٠٠ سنة فإن الهدم أيسر من البناء!».

ولم يدرك ابن بطوطة ما فى هذه العبارة من سخرية!

ويروى ابن بطوطة أن الهرم دق وفتح باب النظريات والفروض العلمية، وكان المصريون يشعلون النار ويصبون عليها الخل، ثم يدقون الأحجار حتى انفتح فى الهرم الأكبر هذا المدخل الذى نعرفه. ومن الغريب أن تكاليف فتح الهرم قد وجدت عند مدخله واندهش الخليفة الإسلامى كيف عرف الفراعنة تكاليف فتح الهرم!

وتوقفت دهشة المصريين والخليفة عند ذلك وبقى الهرم شامخًا عاليًا، ملايين علامة استفهام وتعجب واستنكار.

وتسلل العلماء إلى داخل الهرم، وانفتح باب النظريات والفروض العلمية والخرافية. أقرب النظريات وأطولها عمرًا، أن الهرم مقبرة، وأن الملك أقام كل هذا البنيان الشامخ من أجل أن يدفن فى داخله هو وزوجته، ولم يجدوا فى داخل غرفة الدفن لا جثمان الملك ولا جثمان الملكة. وقيل إن اللصوص سرقوهما، واللصوص هم الذين دفعوا الملوك إلى بناء مقابر صعبة الدخول، أو إيمان الملوك بالبعث والنشور يوم القيامة هو الذى جعلهم يحتفظون بالذهب والطعام والتيجان معهم حتى إذا قامت القيامة وجدوا كل شىء فى مكانه؛ الطعام والشراب والدعوات وأدوات الملك.. وحتى لا ينهض الملك فلا يجد نفسه ملكًا، أقيمت

هذه القبور الضخمة الفخمة، وكانت الأبواب الوهمية والدهاليز المضللة والآبار ليسقط فيها اللصوص.

ولكن الذين حسبوها جيدًا، استبعدوا أن يكون هذا البناء الضخم مجرد مقبرة.. تمامًا كما نستبعد نحن الآن أن الروس اخترعوا أول قمر صناعى ليكون مقبرة للكلبة لايكا.. أو أن الله خلق الحوت ليكون مقبرة للنبى يونس عليه السلام.. لابد أن يكون هناك سبب أخطر من ذلك.

واتجه علماء الفلك إلى أن الهرم قد أقيم بهذه الصورة المعمارية الهندسية الفلكية الفيزيائية لسبب خطير، لا أحد يعرفه بعد، فمن المؤكد أن بناء الهرم مضبوط جدا على الهيئة الفلكية.. أو بعبارة أخرى أن بناء الهرم يدلنا على شكل النجوم فى السماء يوم أقامه الفراعنة.. بل إن نجمة القطب الشمالى يوم أنشئ الهرم قد تزحزحت قليلاً عن مكانها.

وهناك رأى آخر يقول: كيف استطاع الفراعنة أن يقيموا هرمًا مرة واحدة.. هرمًا ليست له مقدمات.. أى لم تسبقه محاولات صغيرة بلغت قمتها فى الهرم الأكبر.. كيف قام مرة واحدة..

هناك اجتهادات من بينها أن الذين بنوا الهرم ليسوا من مصر.. وهناك إشارة إلى ذلك فى سفر إشعياء فى إصحاحه التاسع عشر (فى ذلك اليوم يكون مذبح للرب فى وسط أرض مصر وعهود للرب عند تخومها ـ أى على حدودها). وليس أبعد عن الواقع من مثل هذه العبارة، ولكنه اجتهاد مجهد!

وهناك رأى بأن الذين بنوا الهرم جاءوا من الغرب.. من ليبيا.. من أرض أطلانطس التى يقال إنها تشمل جنوب ليبيا والجزائر، فهذه المنطقة كانت مليئة بالأشجار والغابات وما تزال بها أصداف البحر. وفى كهوف «تسيلى» أكبر دليل على أن رواد فضاء قد هبطوا من كواكب أخرى إلى هذه المنطقة، وقد سجل الإنسان أشكالهم وحركاتهم على هذه الكهوف وهى حقيقة علمية، أى أن كائنات من الفضاء قد هبطت إلى هذه المنطقة، ولكن علاقتهم ببناء الأهرام هى التى لا تزال موضع بحث. وفى القصص المصرية القديمة أن أناسًا جاءوا من الغرب وأن «ذوى

الدم الأزرق النبيل» قد جاءوا من الغرب، ولا يزال الدم الأزرق النبيل من صفات النبلاء فى أوروبا وفى مصر الفرعونية.

وهناك رأى يقول إن المقاييس المصرية القديمة كانت «البوصة» أو ما يساوى البوصة الإنجليزية، ولكى أكون دقيقًا فإن كل ألف بوصة إنجليزية تساوى ألف بوصة وبوصة فرعونية، ولذلك لا يستبعد أن يكون فى الأهرام رسالة موجهة إلى الشعوب الإنجليزية، ومن الثابت تاريخيا أن الإنجليز أصلهم من فينيقيا.. وأن كلمة «بناة» تعادل كلمة بريطانيا فى اللغات القديمة.

(راجع كتاب بازل ستيوارت عن «الهرم الأكبر»).

ويذهب ستيوارت هذا وغيره من العلماء إلى أن فى داخل الهرم وفى مقاييسه ونقوشه الداخلية رسالة موجهة إلى الشعب البريطاني، وبعمليات حسابية معقدة اهتدى إلى أن الفراعنة قد حذروا من قيام الحرب العالمية الأولى فى موعدها باليوم والشهر والسنة، والحرب العالمية الثانية أيضًا.

ومثل ذلك دلت مقاييس الممرات والدهاليز على الفترة ما بين خروج اليهود من مصر وميلاد المسيح عليه السلام، وإذا كان التاريخ الميلادى قد سجلناه خطأ لأن المسيح عليه السلام قد ولد قبل التاريخ المعروف بأربع سنوات، فإن الفراعنة لم يقعوا فى هذا الخطأ.

ومن رأى عدد كبير من العلماء أننا نستطيع أن نجد لأهم الأحداث العالمية مكانًا فى داخل الهرم.. أو فى أرقامه.. أو نسبة طوله إلى عرضه.. أو «الدائرة المربعة» التى استطاع الفراعنة أن يهتدوا إليها عندما أقاموا قاعدة الهرم.. أو أن الشكل الهرمى نفسه يمنع تعفن الجثث.. وأن الجنود فى الحرب العالمية الثانية كانوا يفعلون ذلك عندما يستخدمون أجسامًا معدنية مفرغة على شكل هرم، ويضعون تحتها الأطعمة.. أو أمواس حلاقة فيجدونها حادة بعد أيام!؟

وهناك نظرية تقول إن الهرم كان مغطى بطبقة مفضضة، وهذه الطبقة كانت تؤدى إلى سقوط الأمطار، تمامًا كما نستخدم فى العصر الحديث نترات

الفضة نلقيها من الطائرات على السحب فتسقط مطرًا فى الصحارى الأمريكية والإفريقية!

وفى التاريخ الفرعونى القديم ما ينقله لنا هيرودوت من أن أطباقًا طائرة كانت تدور حول الهرم، وأن بعض هذه الأطباق الطائرة أو سفن الفضاء كانت تبدو مثل كرات من النار فى سماء مصر، وأن الملوك كانوا يجمعون الكهنة، ويسألونهم، ويؤكد هيرودوت أن الكهنة قد أطلعوه على أسرار كثيرة، وأنه وعدهم بألا يفتح فمه بأكثر مما قال. والذى قاله كثير جدا، ولكن الذى سكت عليه وعنه أكثر من ذلك!

ويقال إن أعمدة من النور كانت تخرج من الهرم (اقرأ دراسات للكاتب السويسرى فون دينكن عن «المراكب السماوية» ـ وهى أحدث الدراسات عن رواد الفضاء وسكان السموات والأطباق الطائرة والهرم الأكبر).

وعندما جاء الرحالة النرويجى تورهايردال إلى مصر دارت بينه وبين العلماء المصريين مناقشة حول تشابه أهرام مصر وأهرام المكسيك، وأنه لا يستبعد أن يكون الفراعنة هم الذين أقاموا أهرام المكسيك. ولم يسترح العلماء المصريون إلى هذا الاجتهاد، فجاءت رحلتا رع الأولى والثانية دليلاً على أن الفراعنة ـ إذا أرادوا ـ أن يصلوا إلى أمريكا على مركب من عيدان البردى لفعلوا ذلك.. فإذا أضفنا إلى هذا الرأى أن الفراعنة ليسوا من إفريقيا، ولا ملامحهم آسيوية.. ولا يستبعد أن يكونوا من سلالة غريبة.. لا أقول كل الشعب المصرى، ولكن الأسرة المالكة فقط ـ وهذا رأى آخر ـ ففى الغرب سكان قارة أطلانطس التى غرقت وهرب سكانها إلى الفضاء الخارجى، ويقال إنهم جاءوا منه.. وهذه نظرية أخرى..

ولم يناقش هايردال النظريات الكثيرة جدا عن أصل الملوك الفراعنة ولكنه وضع أمامنا أحد الاحتمالات الكبرى فى التاريخ القديم.

إن الفراعنة قد قالوا الكثير، ولكن الذى قالوه حول الهرم ما يزال قليلاً، والعلماء لا يؤمنون بالنظرية التى تقول: إن الإنسان ليس على يقين إلا من الذى فى جيبه، فهم يفتشون جيوب الآخرين بحثًا عن الذى فى جيوبهم، ويتطلعون إلى مقابر وإلى أهرام أخرى لعلهم يهتدون إلى هذه الأهرام الكبيرة، ويفتشون فى

أرض القمر بحثًا عن شهادة ميلاد الأرض. . ويتنصتون على سكان الكواكب الأخرى لعلهم يهتدون إلى ما كان يقوله الحكماء والأنبياء من سكان الأرض.

شيء عجيب: نحن نبحث في القمر عن الهرم، وفي الهرم عن الكون!

صحيح أن هرمًا واحدًا كثير. . ولكن المشكلة هي أن الهرم ليس إلا مليون «قفل حجرى»، وأن مفاتيح هذه الأحجار في مكان ما. . ومن المؤكد أن المفاتيح أصغر من هذه الخزائن الهائلة من أسرار الإنسان والكون. . ولكن أين؟!

والجواب: في أى مكان في داخل الهرم أو تحته أو في المكسيك أو في القمر أو تحت رأس حارس راحت عليه نومة من ألوف السنين!

لعنــة الفراعنــة (*)

كنت فى هونج كونج، وصلت متأخراً من أستراليا، لا أعرف أحداً ولا أنتظر أحداً، وكل ما أعرفه عن هذه الجزيرة هو ما قرأت عنها. وفى جيبى ورقة عليها اسم أحد الفنادق، ذهبت إليه وسألت إن كانت لى غرفة، فقيل: لا لا.. فتساءلت: كيف . لقد حجزت غرفة من أستراليا. وجاءنى الرد بأن الغرفة فى انتظارى، وقد جئت بعد موعدى بساعتين فقط..

لا توجد غرفة.

هل تنصحون بأن أذهب إلى فندق آخر تعرفونه.. أو تربطكم به صلة عمل. امتدت الأيدى الصينية القصيرة تشير إلى فندق على الناحية الأخرى من الشارع.. اتجهت إلى حيث كلمة «فندق».. وصعدت السلم. وأشاروا إلى غرفة مفتوحة، ودخلت، وألقيت متاعى، وارتميت على السرير، ونمت. وعند منتصف الليل صحوت على ضوضاء كثيرة وعلى باب غرفتى الذى انفتح، وقد رأيت كلبًا صغيراً نائمًا على حقيبتى. إنه يشبه الكلاب الفرعونية التى فى حراسة المعابد.. أو فى حراسة الروح فى طريقها من الأرض إلى السماء.

ولم أصدق أن الذى أراه حقيقة.. وإنما تخيلت أننى أحلم.. فاستدرت لأكمل النوم لولا أننى أدركت أنى قد صحوت من النوم فعلاً، ولم أجد الكلب، وضحكت. ونظرت فى الساعة ووجدت الليل قد انتصف، ونهضت وأقفلت الباب، ثم عدت أفتحه وأخرج لأسأل عن اسم الفندق الذى نزلت به.

(*) مقدمة كتابى: «لعنة الفراعنة».

وعرفت من وجوه موظفى استعلامات الفندق أن هذا ليس فندقًا بالمعنى المألوف . . ولا هو كباريه خاص . . وإنما هو فندق يعمل لحساب أحد الكباريهات وأن الرجل تحت أمرى . . وكل ما أفعله هو أن أشير بأصبعى لأختار ما يعجبنى من أى شيء . .

آه . فهمت . .

ودفعت أجر المبيت، وسألته إن كان يعرف أحد الفنادق، فهز رأسه أن إحدى قريباته تعمل فى فندق مجاور . وذهبت وعرفت اسم الفندق، ووجدت أن اسمه «فندق كارنرفون» ـ وكارنرفون هذا هو اسم الرجل الذى اكتشف مقبرة توت عنخ آمون . . إنجليزى، وهونج كونج هذه مستعمرة بريطانية . . فهذا الفندق له صلة بمصر، فأنا لست بعيدًا عن مصر . . صحيح أن طريقى إلى مصر ما يزال طويلاً . . فبعد هونج كونج سأسافر إلى اليابان ومنها إلى جزر هاواى ثم إلى أمريكا ثم إلى أوروبا ثم إلى مصر لأكمل رحلتى التى استغرقت ٢٠٠ يوم حول العالم بلا توقف . . ولكن هذا الفدق له اسم قريب من مصر . . أو هو قريب من مصر . .

ودخلت الغرفة وأقفلت الباب بالمفتاح . . فهذه جزيرة الخطف والنصب والاحتيال والغموض ـ وكل الأقلام تؤكد ذلك . . ولا أعرف كيف جاء النوم بسرعة ولكنه جاء، ومعه الكثير من الراحة التامة بجسمى ونفسى لولا أننى لاحظت نوعًا من البرد الخفيف بدأ يلسع أنفى، وواجهته بما يستحقه من الإسبرين والفيتامينات . . واختفت هذه اللسعة من الأنف والحلق، وحمدت الله أنه لا الزكام ولا اللصوص تسللوا إلى غرفتى . . وضحكت من فكرة أن يتسلل اللصوص إلى غرفتى . . ولو فعلوا لخاب أملهم تمامًا فليس عندى ما يغرى أحدًا بأن يسرق شيئًا ؛ لا شيء، ولو كان عند شيء ما سافرت هذه المسافات الطويلة، فكل ما معى من نقود أحوله بسرعة إلى تذاكر طائرات . .

ومضى يومان، وفى اليوم الثالث ركبتُ الطائرة إلى طوكيو، وفى الطائرة زارتنى فكرة مقلقة . لقد تذكرت أن حقيبتى ربما لم تكن هى . . ربما هى حقيبة مشابهة ولا أعرف كيف جاءتنى هذه الفكرة وأنا فوق السحاب . . هل جاء ذلك

بسبب أن الطائرة قد دخلت منطقة إعصار . . مركز إعصار عنيف اسمه «دينا» ولذلك أخذت تهتز بعنف وتهبط وتعلو والناس الصينيون واليابانيون من حولى ازدادوا اصفراراً . . ولكن انشغلت بهذه الفكرة عن كل لون السحب الذى يتكوم على شكل رغاوى الصابون . . ثم رغاوى الجير . . ثم تنفجر السحاب على شكل برق وحرائق خارج الطائرة ، وفزع وصراخ داخل الطائرة . . ولكن هذه الفكرة جاءتنى مثل طوق نجاه فقد تعلقت بهذه الفكرة واستغرقتنى تماماً ، فلم أعد أفكر فى هذا الذي يحترق خارج الطائرة . . وفجأة أدركت أن هذه الفكرة تشبه طوق نجاة من المطاط وقد امتلأ بالبنزين . . وأنه لن يمضى وقت طويل حتى ينفجر طوق النجاة . . ولا نجاة!

شيء غريب . . ثم تذكرت الكلب الذى نام على حقيبتى؛ صور غريبة متتابعة، أو هلوسة متواصلة . ونظرت إلى الطعام أمامى والشراب ، ولم أجد أية علاقة بين هذا الهذيان وبين الطعام .

وفى مطار طوكيو تأكدت أن هذه الحقيبة ليست لى ، إنها شبيهه بها تماماً . وأمام موظفي الجمارك فتحت الحقيبة ، ووجدت أنها قد امتلأت بملابس الأطفال الصغيرة . وقبل أن أفتح فمى بكلمة ، أقفل موظف الجمرك الحقيبة وأشار أن أحملها وحملتها إلى خارج المطار . وفى فندق «دايتشى» بطوكيو فتحتها لأجدها قد امتلأت بملابس أطفال وأحذيتهم . . ومعنى ذلك أننى الآن فى طوكيو بلا منديل ولا جورب ولا بيجاما ولا موس حلاقة ولا كتب ولا مذكرات!

وكل ما جاء في رأسى : أنها صدفة سخيفة . . ومقلب غير مقصود . . وبضعة مئات من الدولارات أشترى بها بعض الملابس، وكما هى عادتى، فإننى ألقي بالملابس فى الطريق بعد استخدامها بعض الوقت حتى تكون حقيبتى خفيفة . إنها عادة سيئة! فأنا أكره أن تكون الحقيبة خالية من الكتب أو مليئة بالملابس !

وفى نهاية رحلتى ذهبت إلى إيطاليا سعيداً بالراحة الهائنة التى سوف أحصل عليها : فقط أن أرتمى على أى فراش وأغلق الباب والشباك وأنام . . فقط أن أنام؛ فقد تعبت من السفر أكثر من ٢٢٣ يوماً حول الكرة الأرضية بلا توقف ، واخترت

من المدن الإيطالية مدينة رابالو على الريفييرا الإيطالية. المدينة جميلة أنيقة رشيقة، هادئة، وأكثر سياحها من الإنجليز والألمان. وفى القطار وجدت اسم فندق صغير «توتى توت». . اسم عجيب، ولكن أسعاره معقولة. وذهبت إليه، ووجدت صاحبة الفندق سيدة ضخمة، وجدتها ضاحكة من غير مناسبة، ككل الإيطاليين. فقالت : آه جائع!

قلت : جدا

قالت : من أين ؟

قلت : من أمريكا.

قالت : أنت أمريكى. . لا أظن ذلك!

قلت : قادم من أمريكا. . أنا مصرى. .

قالت : إذن أنت جائع جدا. .

قلت : جائع إلى النوم. فى عرضك. . أية غرفة، وأقفليها بالمسامير. . تمامًا كأنك تضعيننى فى تابوت. . كأى ميت فرعونى.

ولم تتوقف السيدة عن الضحك. .

وفى الصباح عرفت أن الفندق اسمه «توت عنخ آمون». ولكن على طريقة الإيطاليين فى تدليل الأسماء جعلوا اسمه «توتى - توت» أى كل شىء لتوت عنخ آمون. .

صدفة غريبة. أن أنزل فى فندق مكتشف توت عنخ آمون فى هوبج كوبج. . ثم فى فندق يحمل اسم جلالته على الريفييرا الإيطالية.

وتضايقت من إحساسى بأننى مشتاق تمامًا إلى مصر بهذه السرعة. . أو إلى أى شىء له صلة بمصر، فكل الذى يهمنى هو أن أنام بعض الوقت قبل أن أعود إلى مصر. . بعض الوقت!

وأنا لا أعرف السباحة. .

وركبت زورقًا مع بعض الأصدقاء، واهتز الزورق وسقطت فى الماء.. فى المكان نفسه الذى غرق فيه الشاعر الإنجليزى شيللى.. ولم يكن الماء عميقًا، ولا أعرف كيف غرق الشاعر لابد أنه كان مخمورًا.. وعندما أخرجونى من الماء اصطدمت ذراعى بالزورق فنزف دمى.. وعدت إلى الفندق مجروحًا مزكوما.

وحان موعد السفر..

ولا أعرف بالضبط ما الذى حدث لقد اشتعلت النار فى غرفتى.. كيف؟ واحترقت الستائر.. وحقيبتى، ولقيت كل الغرفة كما هى، وجاءت صاحبة الفندق لتضرب كفا بكف وتقول: كيف؟

فقلت: لا أعرف.. ولكن الجدران لم يصبها شىء.. ولا الفراش.. ولا السرير.. ولا ورق الصحف.. ولا أثر لكهرباء فى الجدار الخشبى..

ولم أفكر طويلاً، فقد كنت مشغولاً بالسفر إلى روما.. وكلها بضعة أيام وأعود إلى مصر.. وفى القطار فتحت حقيبتى لأصرخ: إنها ليست حقيبتى!

وكان القطار قد تحرك..

فقط هنا خطر لى أنها «لعبة» الفراعنة.. أو «لعنة الفراعنة». ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت ما الذى كنا نقصده عندما نذكر هذا التعبير؟ أى ما الذى يحدث لأى إنسان عندما يكون له أية صلة بالفراعنة؟ ثم ما هى صلتى بالفراعنة؟ وهل حدث الشىء نفسه لأصحاب فندق هونج كونج أو فندق راى يو.. ثم هل حدث الشىء نفسه لكل النزلاء؟ أو أن الفراعنة يخصون بمداعباتهم المصريين فقط؟ ثم من هم هؤلاء الفراعنة الذين يفعلون ذلك؟ هل هى أرواحهم تطارد الناس فى كل مكان؟ ثم ما هى لعنة الفراعنة التى أصابت مصر فى كل العصور، فنحن فراعنة، ونعيش حول قبورهم وبين أرواحهم؟

وتذكرت أن هذا التعبير «لعنة الفراعنة» لم يظهر على الأقلام إلا بعد اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون! فقد مات جميع الذين عملوا فى حفر قبر توت عنخ آمون على أشكال غريبة - أى كان موتهم غريبًا عجيبًا.. حدث ذلك لجميع العمال والمهندسين والأثريين والأطباء - جميعا دون استثناء!

ولم يتنبه الذين اكتشفوا المقبرة إلى تلك العبارة المكتوبة عند مدخل غرفة الملك والتى تقول: إن الموت يضرب بجناحيه الساميّن كل من يعكر صفو الملك!

فلم ينج أحد من ضربة هذين الجناحين. لا أحد..

واختلف العلماء فى تفسير معنى اللعنة..

ولا أظن أحداً قد استطاع ـ فى جو ورقة علمية ـ أن يناقش قصة اللعنة كما فعل الكاتب الألمانى فيليب فاندنبرج فى كتابه المشهور «لعنة الفراعنة». فقد قرأ الكثير من الدراسات المعاصرة، وتعمقها، ثم عرضها فى عبارة جميلة.

وتساءل: هل اللعنة هى إشعاع ذرى أو استخدام الفراعنة للمواد المشعة التى يتعرض لها كل من فتح المقبرة؟

هل اللعنة نوع من الغازات السامة تخرج من الأعشاب والخشب عند فتح المقبرة؟

هل هى نوع من النظريات تلاحق كل من اكتشف المقبرة أو لعب فى الخشب ـ لقد حدث ذلك لأناس كثيرين..

هل اللعنة مجرد صدفة ـ أى أن يموت الإنسان فى الوقت نفسه الذى يجىء مع انحطاط حالة «الإيقاع الحيوى».

هل الخفافيش فى الدهاليز والمقابر لها دخل فيما يصيب الناس بالهذيان حتى الموت؟ لقد حدث ذلك كثيراً جدا!

هل هذا خاص فقط بتوت عنخ آمون، دون بقية الفراعنة؟

هل لصوص المقابر من الأجانب الذين ماتوا فى ظروف غامضة قد أصابهم التراب الذرى أو السم النباتى؟

كيف نفسر أنه حيث توجد مومياء فرعونية فى أى مكان فلا بد من كارثة تحل بهذا المكان.. إن أعظم باخرة أنشأها الإنسان واسمها تيتانيك اصطدمت بجبل من الجليد وغرقت، لأن بها مومياء فرعونية مسروقة؟

ثم ما هذا الذى أصاب العلماء والأطباء المصريين الواحد وراء الآخر؟

ثم ما الذى ينتظر الأطباء والعلماء المصريين والفرنسيين الذين فتحوا مومياء رمسيس الثانى فى مصر وفى باريس ليعرفوا أسباب وفاته، وإن كان هو فرعون الذى أخرج اليهود من مصر؟

ثم إن عدداً كبيراً من العلماء يؤمن بأن هناك شيئًا ما « داخل الأهرام والمقابر الفرعونية جميعًا، يضر بصحة الإنسان». ولكن ما هو هذا «الشيء» لا أحد يعرف . . إن خروتشيف تلقى برقية من موسكو تحذره من دخول الهرم، ولم يدخل الهرم فى آخر لحظة، ولهذا السبب!

إن الفراعنة لم تنته أسرارهم بعد، إنهم تركوا الكثير فى كل العلوم، إنهم اهتدوا إلى سر المادة وسر الكون، وفى استطاعتك أن تشبع رغبتك فى مزيد من المعرفة إذا رجعت إلى كتابين لى هما : الذين هبطوا من السماء والذين عادوا إلى السماء . . فقد عاودت مناقشة هذه القضية الغريبة العجيبة، وسوف تظل كذلك إلى أن نعرف لها تفسيراً علميا أو أكثر من تفسير علمى . المهم أن تدخل فى نطاق العلم الإنسانى .

* * *

وفى الوقت نفسه الذى يؤمن بعض الباحثين بأن هناك قوة ما ، خارج الإنسان تستطيع أن تتسلط عليه . . أو توجهه أو تحرك حياته، فإن عدداً آخر يرى أن القوة هذه فى أعماق الإنسان . . ففى داخل الإنسان كل القوى . . بل إن الإنسان قادر على أن يجعل جسمه أو عقله منيعًا لكل ما فى الدنيا من توتر . . وهو قادر على أن يجعل رأسه محطة إذاعة تتلقى كل الأصوات فى هذا الكون ثم يعدلها لحسابه هو . . فأنت أقوى جدا مما تتصور، وتستطيع أن تجرب ذلك . .

فاللعنة الحقيقية إذن ألا نعرف ذلك . .

وفى الوقت نفسه نجد اتجاهات دينية أمريكية تعود إلى قداسة الفراعنة . . وعبادة الملك أخناتون . . أو أداء الصلوات فى داخل الهرم . . أو النوم فى داخل غرفة الملك خوفو، واستحضار روحه . . وتكذيب ما يسميه المؤرخون باللعنة الفرعونية . .

ونظرية « آدم سميث» تقول : إن الإنسان هو الهرم وهو الملك وهو الروح الفرعونية القادرة على كل ما يريد الإنسان ، وكل ما أراد . .

وآراء واجتهادات كثيرة تساوى ما يبذله الإنسان فى فهمهما أو محاولة ذلك. إن الفراعنة لم تفسر كلماتهم بعد .

لقد ماتوا ولكن لعنة التفكير فيهم وفى حياتهم وأثرها فى حياتنا ، ما تزال قوية حية !

هموم هذا الزمان (*)

ـ هل نقول عليه العوض؟

ـ نعم. قلها ولا تخف!

فقد ضاع الكثير، ولا عوض إلا فى وجه الله. أما الذى ضاع، فهو «النظرية الفلسفية» أى الرؤية لحياتنا.. كيف نفكر كيف نعمل... كيف ننجو من الخسائر المتلاحقة.

ـ هل نعلن إفلاس الفلسفة السياسية والاجتماعية والأخلاقية التى يجب أن نعيش وفقا لها؟ هل نقول إننا استنفدنا عدد مرات الرسوب.. ولذلك يجب أن نبحث لنا عن مكان آخر تحت الشمس أو تحت الأرض، أو عن طريق آخر.. أو عن نظرية أخرى!

ـ نعم قلها ولا تخف!

فما الذى أضاع من أقدامنا الطريق.. ما الذى أضاعنا من أنفسنا؟ إنه فهمنا الخاطئ للتاريخ..

فالتاريخ هو مسرح الإرادة الإنسانية من أجل أن نتحرر من الخوف والجوع والمرض والجهل والظلم.. من أجل المزيد من الحرية..

ولكنا أوقفنا التاريخ، جعلناه الماضى فقط، فلا حاضر ولا مستقبل. واخترنا من الماضى أتعس ما فيه.. واستوقفنا التعاسة وأقمنا مناحة كبرى على الذى أصابنا..

(*) مقدمة كتابى: «هموم هذا الزمان».

فهل ذهبنا إلى ما بعد النكسة العسكرية؟ نعم قليلا جدا . . فقط لكى نراها أوضح، ثم نعود إليها نبكى الذى كان والذى ما يزال يهد كيان مصر من أولها لآخرها . . فأقمنا السرادقات نتلقى فيها العزاء . . نعزى أنفسنا فى أنفسنا . . نمد اليد اليمنى نشد على اليد اليسرى . . نطوى عقولنا على قلوبنا ونقول: منه لله الذى كان السبب . . ولا يزال السبب !

وأمام النكسة العسكرية التى امتصت حاضرنا عشرين عاما وعشرين أخرى سوف تجىء، استراح بعض الناس، فقد وجدوا ينبوعا لا يجف من الحزن والأسى . . وعذرا قويا لأن يتوقف كل شىء عن الحركة . . فقد سقطنا جميعا فى مستنقع الهوان والذل والشلل، أصبحنا مثل سفن «ألف ليلة وليلة» التى شدتها جزيرة المغناطيس . . فسحبت مساميرها وأعوادها الحديدية . . فإذا هى ألواح خشبية . . وإذا قادة السفينة وملاحوها مثل ركابها غرقى فى بحر الدموع !

واستراح دراويش النكسة العسكرية إلى التفاف الناس حولهم والبكاء فى حلبات الذكر . . وإذا بهم يقدسون أبطال النكسة القادرين على توحيد الأمة المصرية والأمم العربية فى يونيفورم أسود . . فى فعل واحد هو البكاء . . ورد فعل واحد هو محاربة كل من يحاول سحبهم من الحداد الأبدى وضرب النفس بالجزمة . .

والدراويش يرون فى هذه القدرة الفذة على توحيد الزى وأداء نشيد قومى وهتاف واحد: بالروح والدم نفديك ياجمال . . بغبغانات تفدى من قتل مئات الألوف وشرد مئات الألوف ومحا حاضر ومستقبل مصر وجعل ماضينا ممتدا . . وأوقف التاريخ وهدم المسرح والمعبد على رءوسنا كشمشون الجبار . . ومثل رومولوس العظيم آخر أباطرة روما الذى قرر أن يصفى الجيش وأن يحاكم الإمبراطورية وأن يدينها، وأن يدخل الشعب كله فى قفص الاتهام لماذا؟ لأنه قرر أن يحاكم الناس وأن يدين التاريخ قبل أن يحاكموه ويحكموا عليه !

ثم إننا أوقفنا التاريخ مرة أخرى عندما صدقنا ما قاله عبد الناصر من أنه اشتراكى، وأن اشتراكيتنا نابعة من ذاتنا ـ أى أنها شىء جديد لم نعرفه ولم يجربه أحد من قبل . كيف؟ اسألوه .

وجاء من بعده السادات يبحث عن ذاتنا . . فاستعصى عليه أن يفلت من الاشتراكية الذاتية، أو أن يجد هذا الذات . . حتى انتصارات أكتوبر سنة ١٩٧٣ لم تفلح بكل عظمتها وجلالها أن تهون علينا الهزيمة . . وإنما جاءت مثل جاكتة جديدة أنيقة على جسد مقطع الذراعين . . إنها تسترت على الخسارة الفادحة، ولم تعوضنا عنها !

أحسن ما قيل فى هذا المعنى ما قاله توفيق الحكيم عندما سألته ونحن فى جنازة ولده الوحيد : وكيف حالك ياسيدى؟

قال الحكيم، وهو حكيم فعلا : ولا حاجة . . إنها عاهة أصابتنى، وسوف أعيش بها !

وكانت نكسة سنة ١٩٦٧ عاهة مصر ولا نزال نعيش بها . . وإن كانت هذه العاهة لا تزال أكبر منا، بل نحن عاهة نعيش بها هذه النكسة . . فهى لا تزال الأقوى !

ومما يؤسف حقا أن العسكريين قد اعتصموا بالصمت عن تصحيح الأخطاء أو توضيح الحقائق. هل لأنهم لا يقدرون؟ هل لأنه لا يصح لهم أن يقولوا شيئا ؟ . . هل لأن عندهم قانونا يمنعهم من الخوض فى السياسة؟ وكلها أعذار . . فليس أسهل من أن يعطوا المادة العلمية والتاريخية لأى كاتب أو مؤرخ فيروى لنا ما هو صحيح . . وينفى عن حاضرنا ما هو كذب وتضليل وتهويش وتخريف ووثنية !

ثم إن قادة إسرائيل جميعا قد كتبوا مذكراتهم وأوضحوا وفضحونا فى كل اللغات . . أما نحن فالعسكريون لا ينطقون وهواة التاريخ ودراويش النكسة يكتبون ويكذبون ويقدسون الخطيئة الأولى فى عصرنا الحديث.

وضاع الماضى وضاع الحاضر وارتبكت عقول الشباب بين الذى يصدقونه وبين الذى لا يصدقون . . وضلت عقول وقلوب الشباب . . فقد تكومت أمامها الأحجار وامتدت أيديها إلى الأحجار تريد أن ترجم عبد الناصر أو منظمة التحرير الفلسطينية أو إسرائيل . . أو القومية العربية ـ أما السادات فقد اغتالوه . .

والأحجار لا تزال فى كل مكان والملايين تبحث عن إبليس الأمة العربية . . بعضهم أضاف أحجارا إلى الأحجار . . وبعضهم صعد فوق الأحجار وألقى بنفسه من فوق عاجزا عن الفهم . . فبدلا من أن يقتلوا القاتل وأنبياءه الكاذبين، قتلوا أنفسهم !

هل ترى فداحة الخسارة؟

لقد خسرنا أجيالا من الشباب . . كلهم حيوية وأمل وإرادة وشجاعة مستعدون لأن يصنعوا تاريخا، ولكن عندما أخذوا الطريق ولم يجدوا الطريقة . . أو وجدوا الطريقة ولم يجدوا سيقانهم . . أما عيونهم فلم تعد ترى، فمن كثرة الظلام فقدت وظيفتها . . وعقولهم من كثرة الضباب لم تعد تفكر . . أما قلوبهم فمن نقص الحياة تحولت إلى حجر . .

أرأيت الذى أصابنا؟ لقد تحولت ساحاتنا وحقولنا ومعاهدنا إلى ما أصاب مدينة «بومبى» الإيطالية . . ثار عليها البركان وألقى عليها الحمم، فكانت نوعا من الصمغ القاتل . . فتجمد كل الناس فى مواقعهم، فكانت لوحة صارخة بارزة للموت الرهيب . . أما الرسام الحقيقى فقد نسى أن يوقع على لوحته . . ولكننا نعرفه، إنه البكباشى أركان الحرب جمال عبد الناصر حسين . . الشهير بناصر . .

إذن لقد آمنا إيمانا مطلقا بأننا انهزمنا، ولكن المصيبة أننا ذهبنا إلى أبعد من ذلك فقد آمنا بأننا مهزومون . . لا مرة واحدة ولكن ألف ألف مرة . . لا فى الماضى ولكن فى الحاضر والمستقبل أيضا . . فنحن الهزيمة . وهذا الإيمان جعلنا لا نساهم بشىء فى شىء، ولا نريد. لقد حررنا أنفسنا من مؤهلات العمل، وحيثيات الحياة، ومسوغات التعيين أعضاء عاملين فى المسرح المتحرك العائم القائم الدائرى الذى اسمه التاريخ !

وفى الوقت نفسه تسلطت علينا هذه السلبية المطلقة حين رفضنا الواقع المصرى والواقع العربى والواقع الدولى . . رفضنا كل محاولة لانتشالنا من وهدة الفشل والإحباط واليأس . . رفضنا أن يكون لنا دور . . أو أن نستأنف دورنا فى إلقاء أطواق النجاة للأجيال القادمة . . فى إقامة الجسور وإضاءة الطريق والتوزيع الموسيقى لبناة المستقبل . .

شيء خطير قد حدث كنوع من الرفض والانسحاب والهروب، فبدلا من أن يقف الناس أمام غول الهوان العسكرى والذل النفسى وإقامة حائط للصواريخ للتيارات المعادية وتنشيط المضادات الحيوية للموت القومى، فقد انفرط الناس . . تفككوا . . تكوروا . . داروا حول أنفسهم بعيدا . . كل واحد فى نفسه . . كل واحد لنفسه . . يا لله نفسى . . ياروح ما بعدك روح . . وأنا مالى - «وأنا ماليزم»: هذه هى النظرية الجديدة فى مصر ! وعند شباب العالم، كل واحد قفز من السفينة . . سابحا إلى الشاطئ . . الشاطئ الحقيقى أو الشاطئ الوهمى . . المهم أنه قرر أن ينجو بنفسه . . فهو يعيش لنفسه، ويموت فى نفسه !

وأصبحت علاقة الناس بالناس هى أن يتقاربوا فى حذر . . وأن يتباعدوا فى راحة . . وإذا تقاربوا فلكى يخطفوا ويجروا . . وكل واحد يخطف اللقمة والقرش والمقعد . . وإذا استطاع فإنه يخطف أنفاس الآخرين، ويسحب الأوكسجين من هوائهم وكريات الدم من عروقهم . . ويسرق جهاز المناعة ليعيش ويموتوا . . المهم أن يعيش وحده على خرائب الآخرين !

حتى تكوُّن الجمعيات والاتحادات والشلل الصغيرة، ليس سببها أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش وحده بالآخرين ومعهم وضدهم، وإنما سبب هذه التكوينات الصغيرة ليس إلا تضخيما للفرد . . تعاظما للأنا فى مواجهة الإدارة والمؤسسة والسلطة والحكومة والدولة . . وليست هذه الجمعيات إلا دعوة عامة لأن تتفكك كل المؤسسات إلى شركات صغيرة . . إلى شراذم . . إلى عصابات . . تواجه الدولة وتعارضها وتعتدى عليها.

ولكن يجبُ ألا نسيء فهم هذه الفردية الصاعدة . . أو هذه الأنانية الاجتماعية . . أو هذه الذاتية النفسية . . هذه «الأناماليزم» فهى تدل على أن الفرد قوى . . وأنه متين . . قادر على أن يقوم بنوع من الحكم الذاتى . . فى مواجهة الدولة . . والحقيقة أنه أسوأ من ذلك كثيرا جدا . .

فمثلا: ما هذه الدروس الخصوصية فى المدارس والجامعات . . لماذا هى حيوية ضرورية، بغيرها لا نجاة ولا نجاح؟ لماذا هى أقوى من فقر الأب، وصحة الأم، وسلطان الدولة؟

لسبب مهم جدا هو أننا قررنا . . أن يكون أطفالنا «عالة» . . علينا . . أن يظلوا أطفالا . . يرضعون ولا ينفطمون . . أن يظلوا عاجزين عن الاعتماد على أطرافهم، ليبقوا مدى الحياة جالسين على حجر المدرس وصدر الأم . . مقعدين . . معوقين . . يمتصون مرتب الأب وعلاواته وحوافزه حتى يقترض ويرهن الدولاب والتلفزيون ومصوغات الأم والأخت ويمد يده إلى أيدى الآخرين !

والدولة لا مانع عندها، فهى لا تستطيع أن تعطى لأى مدرس ألوف الجنيهات التى يبتزها من أولياء الأمور.

فالدروس الخصوصية هى علاوة يقبضها المدرسون من الطلبة . . والدروس الخصوصية هى «البوليو» شلل الأطفال الذى يصيب الشباب والرجال بالطفولة الدائمة . . بالكساح . . بالتواكل والسلبية . . حتى إذا تخرج الشباب فى الجامعة ظلوا مثل عرائس الريف ينتظرون ابن الحلال لكى يحملها على حصان أبيض من بيت أبيها إلى «بيت العدل» أى بيت الزوجية السعيدة . . فالشباب يتخرجون وينتظرون أن تعينهم الدولة فى غير تخصصهم، بعد أن يكونوا قد اشتركوا مع الدولة فى أكذوبة اسمها : الخدمة العامة . . فلا هى خدمة ولا هى عامة . . وإنما هى «الخدعة» العامة . .

الدولة تخدع الشباب، والشباب يخدع نفسه بأنه قد عمل شيئا من أجل الدولة . . أو من أجل نفسه . . أى تهيئته لأن يكون عاملا - لا شيء من ذلك !

فكأننا قررنا سرا : أنه لا عمل فى أى مجال . . ولكن لابد أن نملأ فراغا . . وأن يكون لهذا الفراغ اسم ورقم ودوسيه وكادر وأن يكون اسمه : العمل . . فكل واحد منا «عامل أنه يعمل» . . فالخدمة العامة أصبحت مثل المسرحيات والأفلام . . أكذوبة اتفق عليها المؤلف والممثل والمتفرج . . أى أنها شيء ليس حقيقيا . . شيء لم يقع . .

ولكن الممثل سوف يجعلنا نشعر أنها قد حدثت وأنه سوف يهزنا بعنف حتى البكاء . . وبعد أن نبكى نصفق لبراعته وقدرته . . والخدمة العامة هى هذه المسرحية . . هى هذه الأكذوبة ولأنها ركيكة فإننا لا نبكى ولا نصفق !

ففى الأفلام والمسرحيات يتزوج الممثلون وتكون زفة ورقصة وطبل وزمر . . ثم يكون الموت للعروسين فى حادث ـ وكل ذلك لم يحدث ، ولكن استطاع المؤلف والممثل والمخرج أن يقنعونا بكل ذلك ـ فنصفق فى النهاية للذين ضحكوا علينا وأدخلونا فى حياتهم دون أن ندرى . ولكن «الخدمة العامة» هزيلة التأليف سيئة الإخراج . . ثم شبابنا هو الممثل والمتفرج على خيبته . . ملايين المرات !

* * *

أبشع من ذلك أن الشباب أحس فجأة أنه غريب عن أهله . . عن بلده ، أنه «لا ينتمى» . . لذلك فهو يقول : وأنا مالى ـ مع أن المال ماله ـ ويقول : وهل أنا الذى نكست الجيش ومصر كلها ، هل أنا الذى خربت البيوت وهدمت النفوس . . هل أنا الذى حبست الألوف وقتلت مئات الألوف وكدست الديون . . هل أنا الذى حذفت اللون الأبيض من علم مصر فإذا هو أسود دموى أو هو دم حزين ؟! . .

إننا ورثة العار وأبناء الهوان . . أحفاد الخطيئة . . فمن هذا الذى يطلب منا أن نرتفع فوق الألم . . كيف . .

إن الذين يطلبون من الشباب هذا التسامى . . هذا التنامى . . هذا التعامى . . لم يفلحوا هم أنفسهم فى أن يكفوا عن لطم الخدود وشق الجيوب . .

ولذلك فهم يقولون : وأنا مالى ، أعالج مريضا فى مراحله الأخيرة . . وأنا مالى ، أزرع أرضا حرثتها دبابات النكسة ودبابات النصر أيضا . . كيف أسدد ديون والد سكير وأم غانية؟! . .

إنهم لم يوفروا لنا القهوة السادة نشربها حدادا أبديا . . أين نجد لسانا يتذوق ، بعد أن ضاعت وظيفته كعضو ناطق بالألم . . كيف؟ لماذا؟ متى؟ أين؟

ولذلك أسند ملايين الشباب ظهورهم للحائط . . لسور المدرسة والجامعة والمسجد . . ونظروا إلى مواكب الحياة فى مصر ، لا يشاركون فيها !

قضية الشباب فى العالم كله واحدة . . لقد عزلوهم عن الحياة ، وعزلوهم عن المشاركة ، وأخفوهم فى بطون أمهاتهم وانتهزوا غيابهم فهدموا كل صروح الحضارة والإنسانية . . ومن هول الحرب وفداحة النكسات العسكرية فى كل مكان أجهضت

الأمهات فكان هذا الجيل المبتسر الذى يجب أن ينمو بسرعة . . يقف يبنى الذى لم يهدمه . . يروى الذى لم يزرعه . . يحصد الشوك الذى لم يبذره . . وأن يبتسم : من أجل الغد حتى يكون قادرا على صناعة المستقبل ، وتكفيرا لخطايا والديه ؟! كيف ؟!

ولما تعددت النظريات والمذاهب وظهر الأنبياء الكاذبون . . والمسيخ الدجال فى السياسة والاقتصاد . . ولم يفهم الشباب شيئا لأن رءوسهم أصغر من الأكاذيب الضخمة والاجتهادات الأبهة . . كانت الدروس الخصوصية فى الأحزاب والندوات والمؤتمرات الشعبية . . لابد من الدروس الخصوصية . . فقد اعتاد الناس ألا يفكروا ، وألا يدبروا . . فقد كان يهبط عليهم التفكير من فوق ، وينزل عليهم التدبير من فوق أيضا . . وبذلك يتأكد عجز الشباب عن الفعل ورد الفعل . . ويتأكد أنه ليس له فى نفسه شيء ، ولا فى جسمه ولا فى إرادته ولا فى حياته ولا فى مستقبله ولا فى شهادة الميلاد . . فالكبار الذين يملئون له «خانات» الميلاد . . فيلدونه فى أى وقت ويجعلونه ذكرا وأنثى ، وشرعيا ولقيطا . . ثم يتفاءلون به ويدعونه هو الآخر إلى أن يتفاءل . . !

وبعد ذلك نتقاذف التهم . . نحن نقول إن الشباب متطرف . . أى أنه يقف على طرف بعيد عنا . . ومن حق الشباب هو الآخر أن يقول إننا نحن الكبار متطرفون أيضا ، وللسبب نفسه . . فنحن نقف على طرف بعيد منه . . ولكننا الكبار نملك وسائل إدانته فى الإذاعة والتلفزيون والصحف وعلى المنابر ، وهو لا يملك إلا أن يشكونا إلى الله . . يدعو . . ويستعدى علينا عدالة السماء .

ولما تعددت الكتب المقدسة فى أيدينا . . أناجيل عبد الناصر ومزامير السادات . . وخطب حسن البنا «وكاستات الخومينى» وبروتوكولات ماركس ، تساقط الشباب ساجدين أمام الكتاب الواحد الأوحد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . .

ولما تعددت الزعامات المشروخة والأنبياء النصابون وقف الشباب طابورا حول الشخص الواحد الذى هو على خلق عظيم ، الذى هو خاتم الأنبياء وسيد المرسلين . . ولما ضاق الشباب بنفسه ، وضاق الذين حوله به ، احتشدوا . . فى

المكان الواحد . . أنبل وأشرف مكان فى قبلة واحدة، يدعون ربهم خوفا وطمعا مهاجرين إلى الله، كافرين بهذه الأمشاج من الناس فى البيت والمدرسة والحزب !

* * *

وأفظع من كل ذلك أن لديهم شعورا بالنهاية : نهاية القرن . . نهاية الطريق . . نهاية الحياة . . بأن القيامة سوف تقوم . .

وكأن هؤلاء الشبان لم يكفهم ما يلقون من عناء وعنت، فإنهم راحوا يستعدون للعذاب بالقراءة عنه . . فانتشرت كتب عذاب القبر والعذاب فى عرصات القيامة . . وعذاب البعث والنشور . . وعذاب الصراط المستقيم . . ونسوا أن يقرءوا عن الجنة والسعادة فيها وعن الراحة السامية **﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قيلا سلاما سلاما﴾** . .

ولكن أحدا لم يكتب عن الجنة . كأنه لا جنة . . وإنما عذاب مقيم . . كأن العذاب هو نصيبهم فى الدنيا والآخرة . . أليسوا شبابا؟

إنهم مثل الذين وقفوا فى المحطة فى انتظار آخر أتوبيس . . قلقون . . يتزاحمون . . يتضاربون . . يدوس بعضهم بعضا . . يحشرون أنفسهم فى أضيق باب . . آخر فرصة . . ولذلك فهم لم يفهموا شيئا . . فقط انتظروا . . أحرقوا أعصابهم . . دماءهم . . لم يأكلوا، لم يشربوا . . لم يفكروا . أحيانا يتوهمون أنه آخر أتوبيس . . ويتوهمون أنه جاء . . وأنهم وجدوا مقعدا . . فإذا جاء مات بعضهم من الفرحة . . ومات بعضهم من الزحام . . والسائق هو الآخر يريد أن يفرغ من هذه الشحنة الثقيلة . . فلا يتوقف . . وهو لا يسمع الصرخات . . يسابق السيارات ويصطدم بها ويدوس الناس . . فالكل يجرى . . يسابق . . ينهش . . يلعن . . يصرخ . . إنها النهاية . . نهاية كل شىء . . وليس بعد ذلك أى شىء !

فكل شىء مخيف . . وإذا لم يجد الناس ما يخيفهم فإنهم يخترعون المخاوف . . يضعونها ويبكون أمامها . . لقد اخترعنا الموت الذرى ورحنا نلعنه . . اخترعنا التلوث وجعلنا نفزع منه . . اخترعنا الأمراض فى دمائنا ونحاول التخلص

. ..سانا وجلودنا . . نقلنا الخوف من خارجنا إلى داخلنا . . لقد أسكنا الموت فى عروقنا، ونعمل جاهدين على إخراج الموت لكى نحاربه فى ساحات القتال .

ولكن الشعور بالنهاية يتعمق عند الشباب فهم على يقين من أن الموت قادم من داخلهم ومن خارجهم . . قادم لا محالة . . وكما أن الفلكيين يتوقعون نهاية الحياة بأن تقترب الأرض من الشمس فتحترق، أو تبتعد الأرض عن الشمس فنموت من البرد . . فالموت حارا أو باردا قادم لا محالة . ولذلك يجب أن يعيش الشباب، فى حالة انتظار للنهاية . . وانتظار الموت هو موت يسبق الموت !

* * *

أفدح من ذلك أن يشعر الشباب بتفاهتهم . . فراغهم . . خوائهم بأنهم قد أفرغوا الحياة من المعنى والدور . . تماما كما أن حاضرهم قد أفرغ من المستقبل . . فالحاضر ماض قريب، والماضى حاضر بعيد . .

بل إن لديهم شعورا بتآكل المستقبل . . خائفون . . مضيعون . . مبددون . . شظايا . . شظاياهم . .

أما وسائل النجاة المزيفة فهى البطولات الوهمية السينمائية والمسرحية . . ففى الأفلام يجدون قصصا رائعة وقصورا . . وحياة سهلة . . ومسارا منطقيا لكل الأحداث . . وله بداية ونهاية سعيدة . . يعيشون هذا الكذب الجميل، ويتعلقون بالأبطال الخرافيين والخرافات . . ويجدون فى هذه المعايشة نوعا من التعويض . . هذا التعويض النفسى والتعويض المادى ساعة أو ساعتين . . وبعد ذلك يعودون إلى حياة النهاية . . أو نهاية الحياة أو انتظار الفرج أو التفريج الذى يجىء فيبعدهم عن كل شىء . . فى انتظار موت هذا الزمان . .

أو بالمخدرات التى تحقق لهم ما هو أروع وأبدع وأهدأ من كل ذلك . . فإذا لم يجدوا المخدرات، أراقوا الدماء من أجل الحصول عليها . . فكأنهم عندما كرهوا النكسة العسكرية وكرهو الضحايا واستنكروا الدم، كان لابد من دماء المدنيين لكى ينسوا بها دماء العسكريين !

ما الذى يريدونه؟ ما هى آخر رغباتهم قبل النهاية؟ إنهم يريدون أن يتركوا أثرا، أى أثر، بعدهم . . صرخة . . آهة . . بقعة دم . . إنهم يمدون أيديهم إلى ما بعدهم، ويلقون ظلالهم إلى ما وراءهم . .

هل هناك أمل؟

نعم. كيف؟

لا سبيل إلا أن نتوقف فورا عن «تجريف» الحاضر من أجل بناء الماضى !

الذين هاجروا (*)

لا مانع من بعض الفلسفة، فإن الموقف يقتضى شيئا من ذلك :

هناك فرق بين التغير والتغيير . .

التغير : من داخلك . .

والتغيير : خارجك . .

التغير لا إرادى، أى لا دخل لنا فيه . . تماما كما تتفتح الزهرة وتنمو الثمرة وتذبل الزهرة وتسقط الثمرة . . وكما ننمو أطفالا ونصبح شبابا، ونذوى رجالا ونتساقط مرضى أو موتى بعد ذلك . .

أما التغيير فهو أن تنتقل من مكان على اليمين إلى مكان على اليسار، أو تذهب من البيت إلى المكتب أو تخلع ملابسك وترتديها . . وتلقى بالورقة من النافذة، أو تنحنى عليها فى الطريق وتضعها فى صندوق الزبالة . .

وقد يكون الطفل نظيفا بالأمر، صادقا بالتخويف، أى أنه نظيف الأصابع أمامنا فقط . . ساعة واحدة . . ولكنه لا يفعل ذلك من تلقاء نفسه . .

ومن السهل أن آتى بألف سجين وأجعلهم يرصفون الشوارع، ويغرسون الأشجار، ويجففون البرك، ويقتلون الفئران فى الحقول، ويصنعون أثاث العرائس - كل ذلك بالأمر . . بالخوف . . بالأجر . .

ولكن الفرق كبير عندما يكون الطفل نظيفا من تلقاء نفسه، صادقا عن عادة،

(*) مقدمة كتابى : «الذين هاجروا» .

يغرس شجرة بطبعه ويرويها دون خوف من أبيه أو أمه . . ولا يلقى الماء من النافذة على المارة . .

والفرق هو أن النظافة ترسخت فى أعماق الطفل، حتى أصبح كذلك . . وصار صادقا أمينا مجتهدا محبا لحياة الأشجار والزهور والطيور والكلاب والقطط وغيره من الأطفال . .

فإذا نحن جعلنا إنسانا نظيفا بالأمر فهذا هو التغيير . .

وإذا صار نظيفا بالتربية والاقتناع فهذا هو التغير . .

وقد حدث فى أول ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ أن ذهب الرئيس محمد نجيب فزرع الأشجار فى «كوم أوشيم» . . ورأينا الأشجار فى الصور . . ورأينا الماء يتدفق عليها . . والناس يقفون شامخين كالأشجار، والوجوه لامعة مشرقة كأننا غطينا كل الصحارى والأراضى البور وجبل المقطم بالأشجار، فلم يبق فى مصر كلها شبر واحد أصفر . . ولذلك كانت سعادتنا غامرة لمصر من أولها لآخرها . .

ولم يمض وقت طويل حتى ماتت الأشجار . . فما الذى حدث؟ . .

لقد غيرنا مساحة من الأرض الصفراء، وجعلناها خضراء . .

ولكن الذى لم يحدث هو أننا لم نتغير من داخلنا . . أى لم يكن لدينا أدنى إحساس بالرغبة فى «تخضير» الأرض، وزرع الغابات . . ليست لدينا أية رغبة فى أن ننشر الحياة فى كل مكان . . لم يتعمق فينا أن نزرع الشجرة وأن نرويها وأن نرعاها . . وأن ننتقل من «كوم أوشيم» إلى بقية الأكوام الأخرى فى مصر . .

ولذلك لم يكن لهذه الغابة مستقبل، فقد ماتت يوم ولادتها . .

ماتت لأن لدينا شعورا تاريخيا بتقديس الموتى، بالتخريب . . بالتدمير . . ولا يزال هذا شعورنا . . فنحن ما نزال إذا رأينا أرضا زراعية، أقمنا عليها البيوت . . وإذا رأينا أرضا «طرحها» النيل، «جرفناها» وصنعنا منها الطوب الأسود والطوب الأحمر . . ولم نستخدم الطوب الرملى أو الأحجار . . وما زلنا نوسع الشوارع لا لأننا نحب الشوارع الواسعة، ولكن لأننا نبحث عن عذر لكى نقطع

الأشجار . . ولو كنا نحب الشوارع الواسعة لجاءت المدن الجديدة التى أقمناها فى الصحراء الشاسعة، واسعة الشوارع، واسعة البيوت . . لقد رأيت فى مدينة العاشر من رمضان أناسا ينقلون أثاث البيت من البلكونة لأن الباب الأمامى ضيق، ولأن السلم إلى الطابق الثانى ضيق . . مع أن البيوت قد أقيمت فى الصحراء . .

وهذه البيوت تشبه قصر «أنس الوجود» المغمور فى النيل الذى وصفه أحمد شوقى أمير الشعراء فقال: «ممسكات بعضها من الذعر بعضا».

فأصحاب البيوت فى خوف أن يتباعدوا، ولذلك ضاقت الشوارع، وضاقت الغرف، وتلاصقت البيوت . .

ولم نعد لذلك نضحك لنكتة الرجل الذى ذهب إلى السينما، فلم يجد بها إلا شخصا واحدا قد ارتدى طربوشا، فجلس وراءه ليقول له: من فضلك اخلع طربوشك!

والنكتة أنه جلس وراءه ثم أبدى ضيقه من ذلك . .

ولكنها ليست نكتة إنما هى حقيقة، فليس فى طبعنا أن نتباعد، إنما أن نتلاصق وأن نشكو من ذلك . .

ويوم أمسك كاتبنا توفيق الحكيم مقشة ليكنس مساحة من الأرض، تفرجنا على الصورة، وابتسمنا، ظنا منا أن الحكيم يريد أن يضحكنا . . وانتظرنا فى اليوم التالى فلم يفعل شيئا كأننا توقعنا أن يمضى الأستاذ توفيق الحكيم ومن معه من الأدباء فى كنس بقية شوارع مصر . . أو كأننا لا نصدق هذه الحركة الإصلاحية النموذجية . . فلم يكن توفيق الحكيم إلا داعية للنظافة فى مصر . .

واختفت مقشة الحكيم، كما اختفت أشجار أوشيم . . ولم يفعل أحد شيئا!

أما السبب فهو أن الأشجار لا تزرع ولا تروى بالأمر، والنظافة لا تتم بالأمر، إنما بالشعور العميق فى داخلنا . .

ويوم انفتحت أبواب فندق «النيل هيلتون» تغيرت الحياة الاجتماعية فى ليالى مصر . . ففى هذا الفندق كانت الكافيتريا، وأهم ما فيها: فتيات جامعيات يعملن

جرسونات . . ولو عدنا إلى الصحف المصرية وكل الأقلام، لوجدناها جميعا فى ذلك الوقت قد تناولت الفتيات: جمالهن ونشاطهن . . والتجربة الناجحة . . ولم يعد أحد يجد عمل الفتاة الجامعية جرسونة عيبا . . إنما هو احترام للعمل اليدوى، أو العمل . . وكان البقشيش السخى مكافأة للفتيات ومساهمة فى نجاح هذه التجربة. وكانت هناك فتيات جميلات، تزوجن بسرعة، أى أن الجرسونة الجامعية تلقى من الناس عظيم الاحترام . . وقد أدت هذه الغرفة الزجاجية الواحدة، أى التجربة العلنية، إلى أن دخلت الفتاة فى كل الفنادق والمطاعم . . ولم يعد شيئا غريبا أن نرى الفتاة تعمل ليلا ونهارا فى هذه الأماكن العامة . .

لقد حدث تغيير ناجح مستمر محترم أدى إلى تغير فى النظرة إلى الفتيات العاملات . .

ونحن نعرف أن مئات الشبان إذا سافروا إلى الخارج عملوا فى فنادق أوروبا شيالين وبوابين وسفرجية، ولا لوم عليهم، فهم يقومون بأعمال شريفة ويكسبون كثيرا ويشترون احتياجاتهم، ثم يعودون إلى مصر . .

ولكنهم كانوا يترددون فى أن يفعلوا الشىء نفسه بالقاهرة . . إما لأنهم لا يتقاضون الأجر نفسه، وإما لأننا لا نحترم مثل هذه «الأعمال المنزلية» للرجال! . .

ولكن بعد ذلك رأينا الكثير من الشبان فى الصيف يبيعون السندويتش والآيس كريم على الشواطئ . . ولم تدم هذه التجربة الموسمية إلا وقت تصويرها ونشرها فى الصحف . .

وهى لم تستمر لأننا لم نتهيأ نفسيا لقبولها، ولا كذلك الشبان . . إلى أن حدثت تجربة محترمة، وهى اشتراك الشبان فى ترميم المتاحف والآثار الإسلامية والقبطية. وصفقنا وأسعدنا ذلك . . ووصفتها الصحف العالمية بأنها «ثورة ثقافية» فى مصر، والذى قصدته الصحف العالمية هو ترميم الآثار . . ولكن الذى أعجبنى هو أن يقوم الشبان بذلك . .

لقد أسعدنا إصلاح وتنظيف وتنظيم المتاحف التى كانت قذرة، وكانت عارا على مصر، وأسعدنى أعمق أن يتولى الطلبة والطالبات هذا العمل التاريخى الجليل . .

واليوم نرى الشباب يقومون بطلاء الكبارى . .

إذن فقد حدث تغير واضح أقنعنا فأسعدنا فتغيرنا من داخلنا ، ولذلك فسوف نتوسع فى هذه المساهمة العملية المحترمة فى تجميل مصر . . وفى بنائها بعد ذلك . .

ولم تكن القوات المسلحة المصرية ، تنظر إلى مشاركتها فى رصف الشوارع ومد الأسلاك التليفونية باحترام . . لأن عملها وواجبها هما أن تقاتل فقط ، أما مثل هذه الأعمال المدنية فمن اختصاص الآخرين . . ثم نجحت القوات المسلحة ، وضربت لنا أمثلة رفيعة فى الضبط والربط والإتقان . . سواء فى صناعة الخبز أو فى البناء أو تركيب الخطوط التليفونية أو الأسلاك الكهربية . . وأصبح المعنى هو : إذا لم تكن هناك حرب ، فإن هناك جبهات أخرى تحتاج إلى كل الأيدى المدربة والعقول الخبيرة ، فلا مانع من أن تنقل القوات المسلحة مجال عملها إلى مواقع داخلية . . ونجحت . .

وفى بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية وبعد انسحاب قواتها شرقى السويس ، لم تشأ تسريح جيوشها ، إنما راحت تدعو الشركات إلى استئجار قواتها فى البناء والحفر وإصلاح الأراضى والزراعة والصناعة ! . .

لقد حدث تغير مهم : القوات المسلحة تقبل عن طيب خاطر أن تعمل كالمدنيين ! . ونحن المدنيين نحترم مساهمة القوات المسلحة فى حياتنا ، لأننا نرى فيها آمالنا فى الدقة والضبط والربط . .

فهذا هو التغير العميق فى نظرتهم وفى نظرتنا إليهم . .

وهذا هو بالضبط ما نقصده عندما نتحدث عن الإصلاح أو الثورة . .

فالإصلاح ليس أن يتغير الناس بالإكراه ولكن برغبتهم العميقة . . ليس أن نأمرهم أن يقفوا طابورا ، ولكن أن يفعلوا ذلك دون أمر . . ليس بإرغامهم على الصدق والنظافة والأمانة ، ولكن بأن يصدقوا ويتطهروا دون ترغيب أو ترهيب .

وكما أن المدرسة لا تصلح أحدا ، فالكباريه لا يفسد أحدا ـ إلا إذا كانت لديه رغبة فى ذلك . .

فالنظافة بالطبع أقوى من النظافة بالأمر . . لأن العادة أقوى من القانون!

ولا يمكن أن يتم إصلاح الناس إلا إذا كانوا مستعدين لذلك . .

أى يجب أن تتعمق الرغبة فى التغير، لكى يتغير الناس . . لابد أن يقوى الشعور عند الناس، وأن يحتشد الناس، ويكونوا جاهزين أن ينتقلوا من حالة إلى حالة . .

مثلا: إن الرجل الذى اخترع القطار، كان يعد لنفسه كوبا من الشاى، وكان إناء الشاى محكما والماء يغلى فى داخله والإناء يهتز بعنف، ويقال إنه عندما رأى هذا المشهد بدأ يفكر . . فهداه تفكيره إلى أن هذا الإناء لو كانت له عجلات، أو إذا اتجه البخار إلى دفع العجلات، لتحرك الإناء فى كل اتجاه، ولذلك وضع له عجلات، وتحت العجلات قضبانا حديدية . . فانطلق البخار بالقطار إلى الأمام، أى انطلق وفقا لخطة موضوعة . .

وكذلك الإصلاح: إنه بخار يغلى فى النفوس وتغلى به النفوس . . ثم وجد برنامجا فانطلق إلى محطات الإصلاح واحدة بعد أخرى!

أى أن التربية تسبق التعليم . . فتربية الطفل على الصدق والنظافة واحترام الآخرين وحب الحياة، تجعله مستعدا لقبول بقية النصائح الاجتماعية والمبادئ السياسية والقواعد الأخلاقية والأذواق الجمالية . .

وأيضا هذه مهمة الأدب . . فالأدب يعبر عن واقع المجتمع، وهو فى الوقت نفسه يريد أن يغيره. فالأدب ينقل إلينا عيوبنا، ويفضحنا أمام أنفسنا . . أى أنه يريد أن يدفعنا إلى تغيير أنفسنا يوما بعد يوم، وعاما بعد عام، وكتابا بعد كتاب، ومسرحية بعد قصيدة . . إلى أن نصبح جاهزين تماما لتغيير أنفسنا . . فيجيء التغير تلقائيا . . مع أن هذا التغير قد جاء عن طريق التغييرين الأدبى والفنى . . وهكذا يتناوب التغير والتغيير حياتنا، حتى ننطلق إلى ما هو أفضل أو إلى ما هو أسوأ . . إلى التقدم أو إلى النكسة، إلى الازدهار أو إلى الانهيار . .

ومهما رأينا على الشاشة من حياة الشعوب المتحضرة فإن هذا وحده لا يكفى لتطويرنا . .

فطعام الآخرين لا يشبعنا، وملابسهم لا تدفئنا، وحضارتهم لا تطورنا . . إنما يجب أن يكون فى أعماقنا هذا الشعور القوى العنيف بأن نكون أفضل وأجمل وأنظف وأعلم.

ولسنا فى حاجة إلى أن نبنى فى كل حى من أحياء مصر مكتبة لكى يقبل الناس على القراءة . . ولكن تكفى مكتبة واحدة . . يكفى نموذج واحد ناجح . . ثم نمضى على مهل نضرب للناس الأمثال السهلة الناجحة . . ولكننا فى مصر عندما نبدأ مشروعا فإننا نبدأ مشروعا كبيرا جدا، ثم لا نمضى فيه حتى نهايته، وبعد ذلك نلوم أنفسنا وغيرنا أكثر، على هذا الفشل . .

وقد قرأنا جميعا عن المستعمرات اليهودية فى الصحارى وعلى التلال والجبال، وبهرنا ذلك: كيف يزرعون ويتفوقون ولم يكونوا فلاحين إلا من مائة عام؟ وكيف لا نزرع مع أننا فلاحون من ألوف السنين؟ . . لقد كانت تجاربهم صغيرة ضيقة ناجحة، ولدينا نحن تجارب أروع وأنجح ولكننا لا نصدق أنفسنا؛ لدينا تجربة مديرية التحرير، وشرق وغرب النوبارية، والصالحية، والوادى الجديد . . وكلها تجارب ناجحة.

وكان من الممكن أن تكون أروع لو كانت أصغر وأكثر انتشارا على أرض مصر . . ولكنها رغم اتساعها وتكاليفها وتشككنا فى كل نجاح نحققه، أعظم وأضخم وأكثر طموحا . .

المهم أن نعمل وأن نجيد الذى نعمله، وأن نعمل فى أى مكان وفى أية ظروف، وألا نخترع الأعذار حتى نفشل ونبكى على فشلنا، وهكذا يتعمق لدينا اليأس فى كل شيء وفى أنفسنا.

وبعد نكسة عام ١٩٦٧ لم يكن لدى أحد أمل فى أحد، أو فى شيء، أو فى مصر، أو فى قواتها المسلحة، أو فى قادتها . . ثم انتصرنا فى عام ١٩٧٣ على كل ذلك . . أو انتصرنا على أنفسنا، ولكن هذا النصر لم يحقق لنا التوازن النفسى، ولم يكن تعويضا كافيا لما أصابنا . . مع أنه تعويض نفسى ومادى وقومى وعسكرى عظيم . . ولكن لأننا اعتدنا على أن نبخس أنفسنا حقها فى الاحترام والإكرام،

نتحدث عن النصر كأنه هزيمة، وعن الجلاء كأنه احتلال، وعن القائد الذى انتصرنا به على أنه خائن فقتلناه، كأنه هو الذى أتى بالنكسة عام ١٩٦٧، ونسينا أنه هو الذى نصرنا سنة ١٩٧٣ـ إلى هذه الدرجة اختلطت المكاييل والموازين، والأرباح والخسائر، والنكسة والعبور . .

يقال إن شيخ الإسلام ابن تيمية سألوه إن كان يمكن أن يتوضأ الناس من ماء البرك الآسن؟ أو هل يصح أن يتطهر الناس بالماء ذى الرائحة الكريهة؟ وكان جواب الإمام ابن تيمية أنه روى عن زوجات الرسول عليه السلام: عائشة وأم سلمة وميمونة، أن الرسول عليه السلام كان يغتسل هو وزوجاته من إناء واحد، فكان يقول عليه السلام: أبقى لى. وكانت الواحدة منهن تقول: أبق لى . . أى اترك لى بعض الماء . .

فلم يكن على عهد الرسول قنوات ولا مياه جارية . .

فإذا كان للنبى عليه الصلاة والسلام يفعل ذلك فى الإناء الواحد، فكيف لا يجوز أن يتوضأ الناس ويغتسلوا من مياه البرك والأمطار؟ . .

والمعنى الذى قصده الإمام ابن تيمية أننا يجب ألا نبحث عن عذر حتى لا نتوضأ ونتطهر، فأى ماء يكفى، والمهم أن تكون لدى المسلم هذه الرغبة الصادقة فى الوضوء والطهارة والصلاة والتمسك بالدين . . وأى ماء يكفى ويصلح، وليس من الضرورى أن ننتظر الأنهار حتى تتفجر من الأرض، والبحار حتى تزحف على البلاد، ليكون الوضوء ممكنا والطهارة واجبة.

وكذلك فى الإصلاح، وكذلك فى التمسك بمبادئ التربية والأخلاق، فكل وقت وكل مكان هما بداية لغرس المبادئ عميقة وعميقا فى النفوس . .

يقول الله سبحانه وتعالى: **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**.

أى يجب أن تتغير نفوسنا أولا . . يجب أن نستعد وأن نحتشد وأن نتربص. هنا فقط يساعدنا الله على التغير بعد ذلك . .

وأهم ما يجب أن نتحلى به هو أن تكون لدينا الرغبة القوية، وأن يكون عندنا أمل، والرغبة عند شخص واحد لا تكفى، ولا عند ألف . . ولكن الرغبة يجب أن تكون عامة مغروسة مغروزة فى أعمق أعماقنا . . وأن يكون لدينا أمل. ولكن إذا كان أمل بلا عمل، أو عمل بلا أمل، فنحن نهتز كالإناء الذى يغلى ولا يتحرك، أو يتحرك ولا يتقدم، أو يتقدم بغير خطة، بغير نهج، بغير دين . .

وإذا كانت غابة كوم أوشيم قد اندثرت، فإننى ما زلت أرى ذلك إلا قليلا . . إلا شجرتين: شجرة الندم على ما حدث، وشجرة الأمل فى أن نبدأ من جديد . .

نعم . . لابد أن يكون عندنا أمل، ولكن لا أمل فينا إذا لم نكن نملك إلا الأمل . .

لو جاء نوح (*)

(١)

العبارة التى كتبها الشاعر الإيطالى دانتى على باب جهنم تقول :

«أيها الداخلون اتركوا وراءكم كل أمل فى النجاة» .

بل هناك أمل فى النجاة ياسيدى !

والعبارة التى قالها الفيلسوف الإغريقى هرقليطس :

«لولا الصراع ما كان التقدم» .

فقد عرف الإنسان الحب والرحمة والسلام وإرادة الحياة والصبر على المرض والعذاب والظلم والقهر . .

والعبارة التى كان يكتبها الرومان على أبوابهم :

«هنا تسكن السعادة ! » .

لأنهم وضعوا إلى جانب هذه العبارة رمزا للجنس ، أى أن السعادة جنسية فقط . .

والعبارة التى قالها عالم النفس الألمانى فريتس برلز ، وهو أحد فلاسفة «علم نفس الجشتالت» قال :

«إننى أعمل ما يخصنى وأنت تعمل ما يخصك ، ولست فى هذه الدنيا لكى أعيش على هواك ، ولا أنت لتعيش على هواى . أنت ما أنت عليه ، وأنا ما أنا

(*) مقدمة كتابى : «لو جاء نوح» .

عليه . فإذا التقينا أو تلاقينا أو توافقنا بالصدفة، فهذا شيء جميل، وأما إذا لم يحدث ذلك فما حيلتي؟!».

فليس الإنسان وحده في هذه الدنيا . وعلى الرغم من أن الإنسان قد استقام ظهره من مليون سنة، وله حياة عائلية من مائة ألف سنة، فلا تزال الأسرة هي «الخلايا / الضامة» في نسيج التاريخ . .

وقال الشاعر الألماني برشت :

يقولون لي : تناول طعامك واشرب، وكن سعيدا . . ولكن كيف أفعل ذلك وأنا قد خطفت طعامي من أفواه الجائعين، وشرابي عن شفاه الظامئين، ومع ذلك ما أزال آكل وأشرب؟!

فقد عاش الإنسان على جثث الإنسان وعلى استغلال الإنسان وابتزازه ومص دمه وهوائه أيضا . لكي يتمرد على كل ذلك . .

ولا يكتفي أن يتلاعب بالألفاظ فيقول إن مقلوب كلمة Live ومعناها الحياة هي كلمة Evil ومعناها الشر .

فلا تزال الحياة تساوي أن يعيشها الإنسان . وقد عاشها، وجملها لنفسه، وخدع نفسه، وأرضاه ذلك . . وتمرد على ذلك ليعاود استئناف الحياة ضد الحياة ومعتمدا عليها . . تماما كالطائرة ترتفع بالهواء ضد الهواء وفوق الهواء . . وكالسفينة تقاوم الموج، ولكنها تطفو عليه وضده وبه . .

وكان أجدادنا الفراعنة يضعون توابيت الموتى إلى جوارهم وهم يأكلون لعلهم يتذكرون أن الموت نهاية كل حي، وأن الحقيقة المؤكدة في حياتنا هي موتنا . . وكما يقول الفيلسوف الوجودي سارتر : إذا وقفت إلى جوار طفل فلن تعرف هل سيعيش طويلا سليما ملكا خادما أو مجرما . . ولكن من المؤكد أنه سوف يموت . .

ولكن المؤكد أنه إذا عاش سوف يقاوم كل أشكال الموت الجسمي والنفسي والأخلاقي والروحي . .

صحيح أن الطبيعة البشرية لم تتغير كثيرا، ولكن أدوات الحياة هى التى تغيرت . .

فحواء تغطت بورقة توت . . وليست صناعة الأزياء إلا تطورا مستمرا لورق التوت؛ طولها عرضها مكانها لونها شفافيتها . . أن تتغطى به المرأة وتتعرى فى الوقت نفسه . .

وكان الإنسان يقتل الحيوانات بالحجارة . . وتطورت الحجارة فصارت مدافع وصواريخ وقنابل كيماوية، وتطورت الحجارة . . وبقيت الرغبة فى القتل والدفاع عن النفس والسيطرة والجشع كما هى .

وكانت كليوباترا قد جربت سم الأفاعى فى خادماتها قبل أن تلف الأفعى حول عنقها . .

وجربت المخابرات فى أمريكا وروسيا وألمانيا الشرقية كل الأسلحة النووية والعلمية والصدمات الكهربية وغسيل المخ فى المرضى والأسرى والمجانين والمواطنين لتعرف مدى خطورتها إذا استخدمتها ضد العدو . .

وقد سجد سكان هاواى عندما رأوا جيمس كوك . . فأساطيرهم تقول إنه إله طويل أبيض أزرق العينين سوف يجىء فوق جزيرة عائمة، وجاء الرجل وسجدوا له . . ولكن عندما قتل منهم الكثير، قتلوه؛ فلا يزال الإنسان رافضا للظلم والقهر والعدوان .

والإنسان هو هذا الكائن الغامض الذى ينقل حضارته من مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر، وفى الوقت نفسه قادر على أن يحتفظ بكل سلوكه الإنسانى الذى لا يتغير . . روبنسون كروزو عاش فى جزيرة وحده، ولكن كانت معه كل صفات الحضارة القديمة . .

والجندى اليابانى الذى عاش فى جوام بعد الحرب العالمية الثانية لم يضع السلاح ٢٥ عاما، ظل يأكل الحشرات والأسماك ويسرق الدجاج، لا يعلم أن الحرب قد انتهت، ولما قالوا له، لم يصدق، وانتظر أمرا من الإمبراطور . . وجاءوا له بالأمر فاستسلم . . فقد عاش وحده، ولكن احتفظ فى أعماقه بكل التقاليد العسكرية اليابانية . .

ونيل آرمسترونج أول إنسان نزل على القمر، تحرسه ألوف العيون والعقول الإلكترونية ومحطات المتابعة فى القارات الخمس، كان يلف حول عنقه إيشاربا هدية من أمه؛ فهو ابنها الوحيد، وهو يعتقد، وهى أيضا، أن هذا الإيشارب هو الذى سينجيه من الموت !

(٢)

ولكن ما الذى أصاب الإنسان الآن؟

من المؤكد أننا نريد الحياة لأنفسنا والموت لغيرنا. ولكن الحياة تنتصر مع إرادة البقاء والسيطرة على الإنسان وعلى البيئة . .

وإذا كان الإنسان يريد الآن أن يهاجر إلى الكواكب الأخرى . . فقد فعل ذلك من قبل عندما هاجر من قارة إلى قارة، وبقى هو هو، فهذه الهجرة لم تغير طبيعة الإنسان، فمجرمو بريطانيا الذين سكنوا أستراليا تحولوا إلى مجرمين أيضا .

والأمريكان والروس قد نقلوا حروبهم من الأرض إلى الفضاء . . فقد كانت هناك حرب النجوم . . وإذا كانت الحرب قد بردت والسلام قد أصبح ساخنا، فذلك لبعض الوقت، وسوف تقوى روسيا لتكون خطرا جديدا، فلديها كل عناصر القوة والسيطرة . . وسوف تستأنف الدول الصراع بأشكال وأساليب أخرى وفى أماكن أخرى . . ولكن سوف تنتصر الحياة دائما . .

وكما عاشت الإنسانية عصور الإيمان الذهبية، فهى تعيش عصور عدم الإيمان وعدم اليقين أيضا . . وهى قادرة على ذلك . .

فبعض الحشرات تستطيع أن تعيش أياما من غير رءوسها . . مثل الصرصار Cockroach وكذلك بعض الشعوب تستطيع أن تعيش دون أن تكون لها نظرية، وإذا نحن فتحنا المقبرة بعد يومين أو ثلاثة من دفن أى إنسان فسوف نجد شعر لحيته وشاربه وأظافره قد طالت . . لأن الشعر والأظافر ليست فى حاجة إلى عقل وجهاز عصبى لكى تنمو . . وإنما إلى طبقة رقيقة من الغذاء موجودة فى بشرة الإنسان . . فالشعر والأظافر قد نمت بعد أن مات صاحبها !

(٣)

هناك تقدم ولا شك فى أجهزة الحصول على المعلومات ونقلها فهى أكثر وأسرع . . وهى فى خدمة العلم والأدب والفن، ولكن الجهاز الذى نستخدمه فى تشخيص المرض، هو نفسه الذى نستخدمه فى الجريمة . فكما أن هناك مؤسسات علاجية، هناك مؤسسات إجرامية تستخدم عددا كبيرا من العلماء والأطباء والمحامين والمجرمين أيضا . .

ولكن هناك تقدما . . فالملك سليمان كان يندهش جدا لهذه الظاهرة : وهى أن الأنهار تصب فى البحار، لا الأنهار جفت ولا البحار امتلأت !

لكن أى طفل صغير يعرف أنها ظاهرة تبخر الماء حين يتحول سحابا فيسقط على الجبال ويتدفق فى الأنهار إلى البحار . . وإلى الأبد !

والمؤرخ العظيم توينبى أعظم وأروع من هيرودوت، لأنه يعرف أكثر لأنه رأى طويلا وتأمل أطول . .

والفيلسوف الفرنسى سارتر أعظم من الفيلسوف فولتير . .

وشكسبير أعظم من يوربيدس . .

ونيوتن أعظم من فيثاغورث . .

والعقاد أعظم من أبى حيان التوحيدى، وطه حسين أعظم من ابن العميد . .

وإن كان المستشرق الإنجليزى إدوارد لين عندما جاء إلى مصر فى القرن الماضى قال : إن الموسيقى الشعبية الصافية أروع من كل الموسيقى الغربية !

وأذكر أننى فى بداية حياتى الصحفية ذهبت أزور أحد علماء النفس المصريين وجلست إليه طويلا . . ولكن شيئا باهرا وقفت إلى جواره لكى أظهر فى صورة أنشرها مع مقالى، وكانت الصورة لفرن بوتاجاز . . ونشرنا الصورة . ومعنى ذلك أنى ورئيس التحرير وكل المحررين لم نر مثل هذا الاختراع العظيم . . ولكن عندما ذهبت بعد ذلك إلى قاعدة إطلاق الصواريخ فى أمريكا لم ألتقط صورة . . فهى ليست شيئا جديدا فالملايين قد رأوها ولم تعد تستلفت نظر أحد . . والفرق بين البوتاجاز وقاعدة الصواريخ لا يزيد عن عشرين عاما !

(٤)

فما الذى حققه الإنسان فى السنوات العشرين التى تلت ذلك، فى المواصلات والمعلومات، فالإنسان كما يقول فيلسوف التاريخ إشبنجلر هو الحيوان الذى يصنع أدواته . . بفضل أصابعه القادرة على تطوير كل شىء !

وقد رأيت فى تايوان كيف استخدموا الهندسة الوراثية فى تحويل ريش الأوز الأسود إلى ريش أبيض . . وزيادة حجم وطول وعرض الأسماك . . وتغيير سلوك الجمبرى الذى كان يخرج إلى المياه الدولية فيلتقطه الصيادون اليابانيون - وهذا حقهم - فاستطاع علماء تايوان أن يجعلوا الجمبرى يلف ويدور فى داخل المياه الإقليمية ليدخل الشباك التى أعدوها له !

وعن طريق الهندسة الوراثية سوف يتغير سلوك الإنسان والحيوان والنبات . . وسوف نكتشف الجينات Genes التى تؤدى إلى ألوف الأمراض الجسمية . . وإن ما فعله الفرنسيون أخيرا من رسم خريطة لهذه الجينات وترتيبها داخل الخلية يعتبر من أعظم الإنجازات العلمية فى هذا العام . .

وسوف يعيش الإنسان أطول وأصح وسوف يقاوم المرض ويقاوم انعدام الوزن فى المدن الفضائية الجديدة . . التى ستقام قبل نهاية القرن حول الأرض . . وسوف يعيش الإنسان تحت قشرة القمر وقشرة المريخ . .

وسوف تبقى الطبيعة الإنسانية كما هى دون تغيير كبير . .

ومن منا لم يضحك عندما قرأ رحلة الرحالة النرويجى تورهايردال «رع ٢» عندما التهبت جلود البحارة بسبب الشمس والملح، فأمر الطبيب الروسى بأن يتبول الجميع بعضهم على بعض، فهذا هو العلاج الوحيد، وكان العلاج . . وهى عادة ما تزال مستخدمة بين سكان الصحراء حتى اليوم !

من يدرى ربما استطاع الإنسان أن يتغلب على مشكلة الانتقال من مكان إلى مكان . . فلا تزال سفن الفضاء لكى تتغلب على جاذبية الأرض يجب أن تنطلق بسرعة ثمانية كيلو مترات فى الثانية . . ولا تزال السرعة المطلقة هى سرعة الضوء ١٨٦ ألف ميل فى الثانية . .

ولو استطاع أى إنسان ـ وهو احتمال بعيد جدا ـ أن تكون له سرعة الضوء إذن لاستطاع أن يحقق المعجزة وهى أن تتحول الطاقة إلى مادة . . فنحن لا نعرف الآن إلا أن المادة تتحول إلى طاقة حرارية أو ضوئية . . ونحن نجرب ذلك فى كل لحظة . . عندما نشعل عود كبريت . . نحن نحول المادة إلى طاقة . . ولكن إذا حولنا نار الكبريت إلى عود كبريت، فإننا نستطيع أن نحول جسم الإنسان إلى طاقة ننقلها فى الفضاء ثم نعيدها مادة فى مكان آخر من الكون؟!

وحتى لو نجحنا فى ذلك فالكون ما يزال واسعا شاسعا عميقا مجهولا . . فأقرب الكواكب إلى مجموعتنا يحتاج الوصول إليها إلى ألوف السنين.

وعلى أيام نيوتن كنا نرى أن الكون هندسة صارمة، وأن الله هو أعظم مهندس، أو أنه هو الرياضى الأول . .

وفى عصر أينشتين ظهرت النسبية وكاد الناس يكفرون أو كفروا، مع أن هذه النظرية لها علاقة فقط بالكون الذى له بعد رابع هو الزمان . . وإن الزمان مثل الضوء ينكسر وينحنى . . تماما كما تلقى بتفاحة فوق مخدة، فترى التفاحة فوق تجويف، هذا التجويف هو انحناء الزمان!

ومن الصعب أن نتصور ذلك، ولكنها الحقيقة . .

وظهرت نظرية أخرى هى عدم اليقين للفيزيائى الألمانى هيزنبرج، معناها أن فى الكون قوانين أخرى لا نعرفها، وأن هناك قوانين ضد القوانين أو لا تخضع للقوانين، وأن هناك الكثير الذى لا نعلمه.

فما الذى سوف يحققه الإنسان فى مائة سنة أو ألف . .

فلو فرضنا أن عمر الكون سنة، ٣٦٥ يوما . . وأن الله خلق الكون فى الثانية الأولى من الدقيقة الأولى فى الساعة الأولى من اليوم الأول من يناير، فإن ظهور الإنسان العاقل كان فى الثانية الأخيرة من الدقيقة الأخيرة من ليلة ٣١ ديسمبر . . والإنسان فى هذه الفترة القصيرة جدا قد حقق الكثير الرائع فى كل فروع المعرفة . . فالكون عمره ١٥ ألف مليون سنة . . والإنسان عمره أربعون ألف سنة . . وقد حقق المعجزات فى الأعوام الأربعين الماضية . .

(٥)

وكان الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان يتمنى أن يولد عند نهاية العالم ليرى ما الذى حققته البشرية . . مع أنه لم يكن له إلا مشكلة واحدة هى : كيف يستطيع إنسان أن يحب زوجته عامين متواليين؟!

مع أن حلها بسيط هو ألا يتزوج . . أو يقتل نفسه أو زوجته من أول يوم أو أول عام . .

ثم إن فى الأدب والفن فى كل الشعوب ما يدل على عمق وصدق هذه المشاعر . .

ورغم أننا نعرف صعوبات العلاقات الإنسانية، إلا أننا لا نهرب منها ولا نهرب من أنفسنا . . تماما كما أننا أصبحنا نعرف أن القمر جسم بارد، ولكن من الذى لا يحب النظر إليه والتغنى به اليوم وغدا . .

ومهما كبر الإنسان واتسعت آلامه، وزادت همومه، فإن نظرة إلى زهرة وعينى طفلة قادرة على أن تعيده إلى صفاته وبقائه . . لحظة . . لحظتين . . هما كل ما فى الإنسان من عظمة . .

(٦)

وإن البحث الآن عن سفينة نوح فوق جبل أرارات لدليل على أن الإنسان يحلم بالنجاة . . بسفينة . . برسول عنده نظرية تنقذنا من أنفسنا على هذه الأرض أو على الكواكب الأخرى !

ولكن سوف تبقى مشكلة مهمة : زيادة عدد السكان.

والهندسة الوراثية هى القادرة وحدها على الحل، مادام الإنسان عاجزا عن ضبط نفسه . . وكانت الأساطير الإغريقية ترى أن الحل الوحيد : هو أن يعيش الرجال فى جزيرة والنساء فى جزيرة . .

أو أن يقطع النساء أثداءهن حتى إذا اضطررن إلى الحمل والولادة لم تجد الأطفال لبنا تعيش عليه . .

وكانت عند الإغريق جزيرة اسمها ديلوسى قد حُرِّم فيها الموت والولادة، فلا

يولد فيها طفل ولا يموت فيها أحد . . فالذين يولدون كالذين يموتون يذهبون إلى جزيرة بعيدة، والطريق إليها قاتل أيضا . .

أو تلجأ الهندسة الوراثية إلى نقل صفات بعض الحشرات إلى الإنسان، فأنثى العنكبوت تأكل الذكر فى أثناء اللقاح . . وتستطيع أن تفعل ذلك ٢٥ مرة فى كل يوم؟!

وهكذا تقضى على معظم الذكور . .

ثم تنتقل هذه الصفات إلى الرجال ليأكلوا النساء . . وهكذا تختصر الإنسانية نفسها . . لبعض الوقت لتعاود التكاثر فى كوكب والاختصار فى كوكب . . وتستمر الحياة أفضل وأعلى وأسمى . . ولابد أن تستمر .

ويزداد يقين الإنسان وإيمانه وتواضعه أمام عظمة هذا الكون الذى هو صورة متواضعة جدا جدا لعظمة الله !

(٧)

فلما كانت الليلة الخامسة عشرة من «ألف ليلة وليلة» رأينا صورة مفزعة لمطاردة الشر ومطاردة الموت . . وإصرار الحياة على أن تستمر، وإصرار الانتقام على أن يمضى حتى النهاية . . ثم هذه الثورة الكيميائية الهائلة عندما تتحول الأشياء والناس والحيوانات بعضها إلى بعض . . وهى تلك القدرة التى يحلم بها الإنسان . . فتكون المادة طيعة بين أصابعه . . تماما كما صورتها أساطير الإغريق، فقد كان الآلهة يتحولون إلى حيوانات ونباتات كما يشاءون، وكان آلهة الإغريق يفعلون ذلك بسبب الملل : الحياة الأبدية الهادئة المستمرة التى ليس فيها تغيير، لأن التغيير من صفات الذين يولدون ويموتون . . أى من صفات البشر . . وكانوا يحسدون البشر على هذه النعمة : نعمة أن يولدوا وأن يموتوا . .

ففى هذه الليلة الخامسة عشرة من «ألف ليلة وليلة» نجد العفريت وقد اتخذ شكل الأسد يحاول أن يلتهم بنت الملك . . ولكن هذه الأميرة التى لها قدرات العفريت وأكثر، تنزع شعرة من رأسها فتكون الشعرة سيفا وضربت به الأسد فانقسم نصفين، وانقلب أحد النصفين عقربا، فتحولت الأميرة إلى أفعى تطارد العقرب . . فانقلب العقرب صقرا، فانقلبت الأميرة نسرا . . ثم صار الصقر قطا أسود، فانقلب النسر ذئبا، وانقلب القط الأسود وصار رمانة حمراء فى بحيرة ماء،

فاقترب منها الذئب فطارت فى الهواء ووقعت على الأرض فانفرطت، وانقلب الذئب ديكا يلتقط حب الرمان . . وراح الديك يصرخ ويقفز فى كل مكان حتى وجد الحبة فانقض عليها، فسقطت الحبة فى الماء فتحول الديك حوتا وانقض عليها وغابا تحت الماء، ثم تحولت الحبة عفريتا، كما كان ثم شعلة من النار التى تخرج من فمه ومن عينيه ومن أنفه . . وتحولت الأميرة هى الأخرى إلى نار . . ثم صار العفريت كومة تراب، وتحولت الفتاة هى الأخرى إلى كومة تراب !

ففى هذه القصة كل صور الدمار والخراب وأشكال الموت . . والنهاية الواحدة لهذه الحرب أنه ليس هناك غالب ولا مغلوب . .

والقرآن الكريم أكد لنا أن العلماء أعظم قوة من العفاريت . . كما جاء فى حكاية الملك سليمان وبلقيس ملكة سبأ، عندما طلب الملك سليمان من العفريت أن يأتى له بعرشها. قال تعالى :

﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم به من مقامك﴾.

وقال تعالى :

﴿وقال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إلى طرفك﴾.

فصاحب العلم أقوى من العفريت. والعلم الحديث ـ والذى يزداد قوة ـ أصبح يتجاوز بقدراته كل خيال للإنسان فى كل العصور . .

«ومؤلفو ألف ليلة» لم يدركوا روعة هذه القصة التى ألفوها، وإنما انشغلوا بتلفيق أبيات من الشعر لها دلالة أخلاقية . . فالشعر ركيك المعنى والمبنى . . أما الحكاية فتحفة فلسفية . . أما الأبيات التى حشروها حشرا فتقول :

تحيرت والرحمن لا شك فى أمرى — وحلت بى الأحزان من حيث لا أدرى
سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى — وأصبر حتى يقضى الله من أمرى
سأصبر مغلوبا بغير توجع — كما يصبر الظمآن فى الزمن الحر
وما أحسن الصبر الجميل مع التقى — وما قدر المولى على خلقه يجرى
سرائر سرى ترجمان سريرتى — إذا كان سر السر سرك فى سرى
ومن قال إن الدهر فيه حلاوة — فلابد من يوم أمر من المر

ولكن المأساة أكبر من هذا التلاعب بالألفاظ ومن مجرد الحزن على ما كان والخوف مما سيكون . .

فالعلم هو وحده الذى يجدد أشكال الألم والمرض، وهو وحده الذى يجدد أشكال العلاج والصحة . . والعلم هو الذى يجدد أسلحة الدمار، وهو وحده الذى يجدد أسلحة الوقاية منها . . والذى يبذر الأرض بالألغام، والذى يجعل الألغام تزهر وتثمر سلاما وحبا بين الناس . .

ولو خرج رفاعة الطهطاوى اليوم من قبره وسار فى شوارع باريس مرة أخرى لبهره الذى يرى . . وربما بهره شىء آخر غير المرايا التى بهرته عندما كان طالبا فى باريس، وغير فساتين السيدات . . فقد كان الطهطاوى يمر على المقاهى ويندهش كيف أن صور المشاة فى الشارع قد انعكست على المرايا . . فبدت المقاهى واسعة كأنها ميادين . . وكان الطهطاوى يضع يده إلى جوار المرايا فيجد أن صورة يده ولونها لا يختلفان عن شكلها ولونها الحقيقى . . وكان يقارن بينها وبين مرايا مصر التى تجعل الإنسان مرة مقعرا ومرة محدبا، وتجعل لونه أصفر أو أخضر !

فماذا لو رأى التلفزيون وسفن الفضاء وأرض القمر وأجواء المريخ والهالات الغازية حول كوكب المشترى الذى هو أكبر من الأرض ١٥٠٠ مرة . . ثم رأى الإنسان يهبط على القمر ويصعد منه ليعود سالما إلى الأرض؟!

إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يصنع أدواته . . إن الإنسان قد وجد لكل مشكلة حلا، كما أنه وجد لكل حل مشكلة ثم وجد لها حلا . . وكل خطوة نخطوها لها ثمن من دمنا ومن راحتنا . . ولا يتردد الإنسان لحظة واحدة فى أن يفعل ذلك، وسوف يفعل دائما حتى لو لم يكن هناك أمل فى الذى يفعله . .

الرسول عليه الصلاة والسلام قال لنا ما معناه : حتى لو قامت القيامة يجب أن تزرع شجرة.

المهم أن تزرع الحياة فى وجه الدمار، أن تزرع الحياة فى وجه الموت . . أن تغرس الدنيا فى يوم القيامة . . أن تزرع فى أى أرض . . المهم ألا تتوقف عن العمل وعن الأمل وعن إضافة شىء إلى شىء آخر . .

والإغريق عباقرة العذاب حدثونا عن أسطورة الفتى سيزيف . . فقد كان محكوما عليه بأن يدفع أمامه حجرا إلى أعلى جبل، ويتدحرج الحجر إلى السفح فيعود سيزيف يدفعه إلى الأبد . . وكان يفعل ذلك بمنتهى الهمة والحماس . . كأن لهذا العذاب نهاية . . والحقيقة أنه عذاب بلا نهاية . .

وإذا كان آلهة الإغريق يريدون أن يعذبوا سيزيف بالتعب المستمر والملل الأبدى واليأس المطلق ـ فإنه يعمل كأنه لا يمل وكأن هناك نهاية وبعدها يجيء الخلاص من هذا العذاب . .

ولكن سيزيف كان يغيظ الآلهة، فلا هو قد تعب كما أرادوا، ولا هو قد مل كما شاءوا، ولا هو قد أحس بالعبث والضياع واللامعنى الذى فرضوه عليه . . فهو لأنه كان يعمل ـ كان لكل شيء معنى وقيمة وهدف ونهاية !

والفلاح المصرى كان يبنى الجسور التى يهدمها الفيضان ثم يعود يقيمها ليهدمها . . ويعود إلى ذلك ألوف السنين . .

وأهل بيروت رغم قنابل الحرب الأهلية والمدافع التى حطمت واجهات محلاتهم الزجاجية كانوا يصلحونها ويجعلونها من زجاج أيضا . . إنهم أحفاد «سيزيف» لأنهم لم يعرفوا القرف والملل واليأس الذى هو درجة من درجات الموت !

وكذلك الإنسانية لم يدفعها ما صنعت يداها من دمار إلى أن تقطع يديها وذراعيها وساقيها ولسانها وتنسف عقلها . . وإنما الإنسانية بكامل قواها العقلية تحطم قواها العقلية . . تماما كالذى يدخل إحدى الحانات بكامل قواه العقلية ويشرب ويشرب ليفقد قواه العقلية ويعود ليفقدها كل يوم وبمنتهى الوعى والحرص على ذلك . .

فالإنسان المخمور بالحرب وبالدمار هو نفسه الذى يحرص على أن يكون مخمورا بالسلام وبالحب . . فإذا كان الإنسان حريصا على الانطلاق لكى تتسع الدنيا أمامه وتحت قدميه وفوق رأسه وتحت جلده وفى خلاياه، فإن هذا الإنسان سيظل دائما سجينا فى جلده، حبيسا بقيود طبيعية . . وسوف يجلس دائما كالكانجرو على ذيله . . وذيل الإنسان هو تاريخه . .

هات أعظم العلماء وأعظم الأبطال وحاول أن تغرس فى جلده دبوسا سوف

يصرخ كأنه طفل . . مع أنه هو الذى استوعب الدنيا فى دماغه . . وهو الذى احتوى الكون . . ولكنه رغم هذه العظمة العقلية، فإنه ضعيف صغير . . محدود الأمل والأجل . . محدود الطاقة . . والإنسان إذا ألقى طوبة بكل قوته فسوف تبعد عنه عشرات الأمتار . . ولكن بعلمه بعث بسفن الفضاء إلى ملايين الأميال . . وعن طريق مراصده الفضائية رحل إلى ألوف ملايين السنين الضوئية . .

هذا هو الإنسان، كان وسوف يبقى صغيرا بجسمه، جبارا بخياله وقدراته . .

وليست الأدوات التى صنعها الإنسان إلا تطويرا عبقريا لأطرافه هو: لعينيه ويديه وساقيه وعقله وأذنيه . . فكل تطبيقات علوم التكنولوجيا ليست إلا أطرافا صناعية للإنسان . . وتطويرا غير نهائى لها . .

ولا تزال حكاية المفكر الأمريكى إمرسون درسا وموعظة ورمزا لكل ذلك . . فقد كانت له مزرعة، وفى المزرعة حظيرة للأبقار وحاول أن يرغم عجلا صغيرا على أن يخرج من الحظيرة وعاونه أولاده ولم يستطيعوا، فطلبوا من خادمة لهم أن تحاول لعلها تفلح فى الذى عجز عنه المفكر الكبير وأولاده، واستطاعت . . فقد دخلت الحظيرة ووضعت أصابعها فى فم العجل الصغير . . فأحس كأنها أثداء أمه، وخرج طائعا ذلولا ذليلا . .

ووقف إمرسون مبهورا ونظر إلى مكتبته قائلا: لم تفلح كل هذه الكتب فى أن تعلمنى كيف أخرج عجلا صغيرا من حظيرته . . إننى أعجب للذين يجدون حلا !

فالكتب هى العلم العظيم، وعدم خروج العجل هو التحدى لقدرة الإنسان، فما أصغر الإنسان أمام العجل، وما أروعه وأعظمه أمام الميكروب والذرة وتحويل المعادن بعضها إلى بعضها . . وتوليد وتخليق ما لا نهاية له من الأدوات والمعلومات والطموحات من أجل الحياة . . الحياة الأصح والأقوى والأوسع والأعمق والأشمل على هذا الكوكب أو على الكواكب الأخرى بين المجرات . .

وإذا كنا فى خمسين عاما قد وصلنا إلى بلوتو أبعد كواكب المجموعة الشمسية . . فما الذى سوف نفعله عند نهاية القرن القادم وعشرة آلاف قرن أخر؟ . .

ذلك ما لا يستطيع عقل أن يتخيله أو يستوعبه !

رغم أن الإنسانية لم تعرف السلام إلا سنوات قليلة والحروب معظم الوقت، فإن الإنسان ما زال حيا يتقدم ويتطور ويبنى الأرض ويهدمها ويصعد إلى الكواكب الأخرى بكل عيوبه على الأرض وبكل صفاته العبقرية . .

والمؤرخ الأمريكى ول ديورانت قال لنا فى سنة ١٩٥٨ إنه فى الأعوام الـ ٣٤٢١ التى مضت لم نعرف فيها السلام إلا ٢٦٨ عاما فقط !!

ولكن عرفنا السلام، وتذوقنا الحياة وحرصنا عليها . . وطورناها وسوف نحرص على كل خطوة إلى الأمام.

وسوف نمضى مهما كان الثمن للسيطرة على ما حولنا من القوى الطبيعية . . لا السيطرة التامة ولكن بعض السيطرة التى تجعلنا قادرين على أن نتقدم ونتوقف ثم نقفز مرة أخرى وهكذا . . فما أبعد الزمن الذى اكتشف فيه الإنسان النار - وكان ذلك الاكتشاف انقلابا عظيما . . لأنه خلق النار والنور معا . . خلق الطاقة وأطال الليل . . وتطورت أشكال النار وحجمها وقدراتها الهائلة، وفى الوقت نفسه تطورت أدوات وأجهزة التحكم فى النار والنور.

وآخر أشكال النور هى التى اخترعها الروس العام الماضى حين وضعوا مرايا فى سفن فضاء تدور حول الأرض وعكست ضوء الشمس على مدن أوروبا فأضاءتها وكان ذلك حدثا جليلا مضى دون حفاوة من أحد . .

فالروس الذين لا يجدون ما يأكلونه الآن، قفزوا بهذا الاختراع إلى السماء . . إنها العقول العبقرية رغم المعدات الخاوية . .

ربما كانت المسافة بين أول نار ونور اخترعهما الإنسان، وبين هذه المرايا العاكسة من مدار حول الأرض أربعين ألف سنة . . أو حتى مائة ألف . . ولكن هذه المسافة الزمنية ليست إلا لحظة صغيرة فى تاريخ الإنسان على سطح الأرض الذى عمره أربعة آلاف مليون سنة . . وفى الكون الذى عمره ١٥ ألف مليون سنة . . والإنسان الذى ظهر متأخرا جدا على سطح الأرض !

ولا نهاية لما سوف يحلم به ويحققه الإنسان!

جـاءوا وذهبوا لكن لمـاذا (*)

﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آيتنا إنه هو السميع البصير﴾.. (الإسراء :١).

* * *

﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابًا أليمًا﴾ (الفرقان : ٣٧).

* * *

﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكفارين ديارًا* إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا﴾ (نوح : ٢٦ ـ ٢٧).

* * *

﴿ وأُوحِى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلونَ * واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ (هود: ٣٦ـ٣٧).

﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل* وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم﴾ (هود : ٤٠ ـ ٤١).

(*) مقدمة كتابى : «الذين هبطوا من السماء» .

﴿ ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾ (العنكبوت:١٤ ـ ١٥).

* * *

﴿ .. ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم* وجعلنا ذريته هم الباقين * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على نوح فى العالمين* إنا كذلك نجزى المحسنين* إنه من عبادنا المؤمنين * ثم أغرقنا الآخرين﴾ (الصافات:٧٥ ـ٨٢).

* * *

﴿ .. ولقد آتينا داود وسليمان علمًا وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين* وورث سليمان داود وقال يأيها الناس عُلمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين* وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون* حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون* فتبسم ضاحكًا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحًا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين﴾ (النمل: ١٥ ـ ١٩).

* * *

﴿ وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذبنه عذابًا شديدًا أو لأذبحنه أو ليأتينّى بسلطان مبين * فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين * إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾ (النمل : ١٩ ـ ٢٤).

* * *

﴿ قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين * قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين * قال الذى عنده علم

من الكتاب أنا آتيك بـه قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم﴾ (النمل: ٣٨ـ٤٠).

* * *

« فقال الله لنوح: نهاية كل بشر قد أتت أمامى. لأن الأرض امتلأت ظلمًا منهم. فها أنا مهلكهم مع الأرض.. اصنع لنفسك فلكًا من خشب.. فها أنا آتى بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما فى الأرض يموت. ولكن أقيم عهدى معك. فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بيتك معك. ومن كل حى من كل ذى جسد اثنين من كلٍّ تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك.. لأنى بعد سبعة أيام أمطر على الأرض أربعين يومًا وأربعين ليلة.. وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته. ففعل نوح كل ما أمره به الرب».

« سفر التكوين»

* * *

« وإذا بريح عظيمة جاءت من الشمال: سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار. ومن وسطها شبه أربع حيوانات وهذا منظرها: لها شبه إنسان ولكل واحدة أربعة أوجه ولكل واحدة أربعة أجنحة وأرجلها قائمة وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل وبارقة كمنظر النحاس المصقول. وأيدى إنسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة. وأجنحتها متصلة الواحد بأخيه. لم تدر عند سيرها كل واحد يسير إلى جهة وجهة. أما شبه وجوهها فوجه إنسان ووجه أسد لليمين لأربعتها ووجه ثور من الشمال لأربعتها فهذه أوجهها. أما أجنحتها فمبسوطة من فوق. لكل واحد اثنان متصلان أحدهما بأخيه واثنان يغطيان أجسامها.. أما شبه الحيوانات فمنظرها كجمر نار متقدة.. وللنار لمعان ومن النار كان يخرج برق.. ولما سارت.. سارت على جوانبها الأربعة لم تدر عند سيرها.. فلما سارت سمعت صوت أجنحتها كخرير مياه كثيرة كصوت الغدير صوت كصوت جيش. ولما وقفت أرخت أجنحتها».

« الكتاب المقدس: حزقيال»

« . الماشى على أجنحة الريح . الصانع ملائكته رياحًا وخدامه ناراً ملهبة » .

«الكتاب المقدس : المزامير»

* * *

« جئت لألقى ناراً على الأرض . . . »

«الكتاب المقدس : لوقا»

* * *

« فى الشهر الثالث من السنة الثانية والعشرين رأى الكاتب دائرة من النار فى السماء . . ليس لها صوت . ولها طول وعرض الزورق الكبير . وخاف ومعه آخرون . وذهب إلى فرعون . واجتمع فرعون وكثير من الجنود . ورأوا كرة النار . . وخافوا . . وفى اليوم التالى تكاثرت كرات النار فى السماء . . ولم يفهم أحد أى شيء . . واتجه رجال الدين إلى المعابد . . وطلب فرعون إلى الكتبة أن يسجلوا ذلك . . » .

« ورقة بردى فى القسم المصرى بمتحف الفاتيكان»

* * *

« وعندما كنت أتحدث إلى أبنائى ، حملنى الرجلان إلى السماء . وأنزلانى فى السماء الأولى . وأطلعانى على النجوم ونظمها . ورأيت مائتين من الملائكة . . » .

«سفر أخنوخ»

* * *

« وقال لى : انظر وراءك إلى الأرض . . كيف تبدو لك؟ انظر إلى البحر كيف تراه؟ وطار فى الهواء أربع ساعات أخرى . . ثم قال لى : انظر إلى الأرض مرة أخرى . . ثم حدثنى كيف تبدو؟ ثم انظر إلى البحر وحدثنى كيف يبدو؟ وبدت لى الأرض بستانا ، والبحر كأنه قناة صغيرة من الماء . . ثم ارتفع فى الجو أربع ساعات أخرى وقال لى : انظر إلى الأرض؟ وانظر إلى البحر . . » .

« ملحمة جلجامش ـــ اللوح السابع»

* * *

الذى تعرفه قليل جدا(*)

كنـــا فـوق السـحاب، فـى طريقنـا إلـى هيوسـتن حيـث تنطـلـق سـفـن الفضاء الأمريكية .

ومن الطائرة كانت تحتنا صحراء حمراء جرداء . . تماما مثل أرض المريخ ، . ومن حين إلى حين نجد شيئا صغيرا لامعا يجرى . . إنها إحدى السيارات . . واحدة من ملايين السيارات . . وليس من ذلك شيء على سطح المريخ أو أى كوكب آخر نعرفه . . ثم أشجار خضراء . . حقول وغابات . . وسألت جارى ، وكان عالم الفضاء المصرى د . فاروق الباز ، قل لى :

قال : ماذا؟

ـ ما رأيك لو أننى تكلمت وظللت أنت تسمع ؟

ـ لا مانع عندى . والله لقد تعبت اليوم من الكلام . .

ـ إننى أريد فقط أن أستعرض معلوماتى ، وعليك أن تقوم بتصحيح ما أقول . . تصحيح مسارى ، كما تفعلون فى سفن الفضاء عندما تنطلق إلى القمر أو أى كوكب آخر .

ـ موافق تماما . .

واعتدلت كأى تلميذ صغير أمام ناظر مدرسة ، أقول : لقد صدر لى كتاب اسمه « الذين هبطوا من السماء» ، وهو أول كتاب باللغة العربية يتناول موضوعًا مهما ،

(*) مقدمة كتابى : «الذين عادوا إلى السماء» .

وهو أن سكان الكواكب الأخرى جاءوا إلى هذه الأرض، وتركوا آثارهم هنا.. وجئنا نحن بعد عشرات الألوف من السنين، واكتشفنا هذه الحقيقة.

ـ تمام.

ـ ولم نتمكن من معرفة هذه الحقيقة، إلا بعد أن دخلنا عصر الفضاء.. أى عندما أطلقنا الأقمار الصناعية.. وجعلناها تدور حول الأرض.. وصورنا الأرض من فوق.. وصورنا الكواكب الأخرى والشمس والنجوم من فوق أيضا.. ثم جعلنا الأقمار الصناعية محطات فضائية، وأطلقنا منها سفنا أخرى إلى القمر، وأنزلناها عليه.. ثم جعلنا سفنا أخرى قواعد لإطلاق سفن إلى الأرض، وهكذا.. وسوف يصبح القمر فى يوم من الأيام مثل قاعدة هيوستون هذه.

ـ تمام..

ـ ورجعنا إلى كل الكتب القديمة التى تحدثت عن أشياء غريبة لم نكن نفهمها.. ثم أعدنا قراءة كتب الأساطير القديمة. وإذا بنا نكتشف معانى جديدة لها..

ـ تمام..

ـ مثلا كتاب «التوراة» وبالذات سفر حزقيال.. ذلك النبى اليهودى الذى وصف سفينة فضاء نزلت أمامه بالقرب من بغداد قبل أن نعرف سفن الفضاء بألوف السنين.. وعندما فسر العلماء ما رآه حزقيال هذا، قالوا إنها نبوءة.. أى أن الذى رآه سوف يحدث بعد ذلك.. ولكن عندما دخلنا عصر الفضاء أدركنا أن الذى رآه قد حدث فعلا.. وأن سفينة هبطت أمامه.. ونزل منها رواد الفضاء بخوذهم وملابسهم اللامعة.. وأنه قد وصفهم وصفًا دقيقًا جدا..

ـ تمام.. حتى الآن كلامك مضبوط..

ـ وإذا رجعنا إلى الملحمة البابلية الشهيرة باسم ملحمة «قلقامش»، نجد أنه ركب إحدى سفن الفضاء.. وإذا أعدنا قراءة سفر النبى أخنوخ نجد أنه ركب إحدى سفن الفضاء وانتقل من كوكب إلى كوكب.. إلى سبعة كواكب.. وكذلك الكتب الهندية القديمة قد تحدثت عن سفن فضاء عمودية.. مثل الهليوكوبتر ترتفع بمحركاتها النفاثة إلى أعلى.. وإذا قرأنا عن الطوفان فى الكتب القديمة.. وإذا عدنا

إلى تفسير ما حدث من انفجارات دورية فى مدينتى سودوم وعمورة، عرفنا أن انفجاراً وقع على الأرض . . وأن هذا الانفجار فى المخزون النووى قد أثار المحيطات فأغرقت الأرض . . أو أن جسمًا سماويا قد اقترب من الأرض فسحب الماء وأغرق الكرة الأرضية . . ولو رجعنا إلى كل الأساطير الإغريقية والفرعونية . . لوجدنا أن فى الكون أسراراً لم نهتد إليها . . ثم إن هناك أناسًا يعبدون الأهرام، كمستودع لسر الكون، وخلاصة للحكمة السماوية . . وإن الهرم نفسه ما يزال معجزة كل العصور حتى الآن . . وما قاله هيرودوت، وما رآه فى مصر وفى سماء مصر من وجود كرات من النار تعلو وتهبط، ومن أن الكهنة قد استطاعوا أن يعرفوا «منطقة انعدام الوزن»، وأنهم استطاعوا أن يحركوا الأشياء عن بعد بمجرد النظر إليها، أو بتحريك الأصابع من بعيد . . كل ذلك يؤكد أن الفراعنة عرفوا الكثير وأخفوا عن الإنسانية الكثير . .

ـ كل هذا قاله علماء الفضاء فى السنوات الأخيرة .

ـ وأكثر من ذلك ما اهتدى إليه العلماء السوفييت فى العام الماضى فقط؛ فقد حدث انفجار فى سيبيريا من خمسين عاما، أحرق الغابات وأطاح بالبيوت وأضاء سماء أوروبا أياما . . وفسر العلماء ذلك بأن أحد النيازك قد اقترب من الأرض . ولكن فى سنة ١٩٧٦ فقط اهتدى العلماء السوفييت إلى حقيقة مؤكدة . . أن الذى حدث هو أن إحدى سفن الفضاء التى تدار بالطاقة النووية أصابها خلل، فدخلت الغلاف الغازى للأرض واحترقت دون أن تلمس الأرض . . والدليل على ذلك أنها لم تترك أى أثر على الأرض، اللهم إلا خصوبة شديدة فى التربة فى المنطقة التى أصابتها مباشرة . . !

ـ تمام . معلومات مؤكدة . .

ـ وآثار كثيرة جدا اهتدى إليها علماء الفضاء الأمريكان والروس، كلها تؤكد أن الأرض ليست هى وحدها التى تعيش عليها كائنات عاقلة . . فلابد أن تكون هناك ملايين الكواكب الأخرى التى تتبع نظما فلكية أخرى تعيش عليها كائنات عاقلة . . وليس من الضرورى أن يكون لها شكل الإنسان وتركيبه . . . مثلا: لا نهاية لأشكال النباتات، ولا نهاية لأشكال الحيوانات؛ فلا نهاية لأشكال الكائنات العاقلة أيضا . .

ـ تمام . . حتى الآن كل ما تقوله مضبوط . .

ـ وكذلك فى أمريكا، وأمريكا الجنوبية، وعلى حدود ليبيا، وفى تنزانيا، وبالقرب من فيينا . . وفى بيرو . . وفى جزر الفصح . . وفى جزر كناريا . . وفى جزر المحيط الهادى . . وفى الهرم الأكبر، وتحت الهرم الأكبر . . . و«لعنة الفراعنة» نفسها لغز من ألغاز الحياة الغريبة والأسرار العجيبة التى تزخر بها الآثار القديمة . . وتتفق مع المعنى العام . .

ـ ماذا تقصد بالمعنى العام؟

ـ أقصد أننى وراء معنى واحد هو الذى يشغلنى فى هذا الكتاب وفى كتابى «الذين هبطوا من السماء»، هو أننا لسنا وحدنا فى هذا الكون . . وفى الوقت نفسه قد نزل على أرضنا ضيوف بلا دعوة منا . . بل إننا اليوم نحاول أن نستدعيهم، ولعلهم قد عرفوا بوجودنا من كثرة الانفجارات النووية على الأرض . . ثم إننا حاولنا ذلك عندما أرسلنا إلى الكواكب الأخرى لوحات عليها صور للإنسان، ذكرا وأنثى . . وصور للمجموعة الشمسية . . ثم رسم لنظرية فيثاغورث لنؤكد لهم أننا نفهم فى الرياضيات . . وهناك بعض العلماء يؤكدون أنهم يريدون الاتصال بنا، ولذلك يبعثون بموجات صوتية سجلتها المراصد الفلكية . . موجات معبرة جدا ومنتظمة جدا . . أى أن هناك محطات لتقويتها، وأنهم يبعدون عنا ملايين السنين الضوئية . . إنهم هناك . . وبعض العلماء يذهب بهم اليأس إلى درجة أنهم يتصورون أننا نبالغ فى أهميتنا . . فهم لا يستبعدون أن تكون هذه الأرض حظيرة لتربية العقول أو السلالات البشرية المختلفة . . وأننا حيوانات فى أحد المعامل، تعيش لحساب كائنات أكثر عقلاً وحكمة . .

وهناك من يقول إن بعض الكائنات العاقلة عاشت بيننا ولا تزال تعيش بأشكال مختلفة . وهنالك جماعات علمية ودينية ترى ذلك . . بل إن بعضهم يعود إلى الكتب القديمة فيجد أن نوحا عليه السلام اندهش عندما وجد بين أولاده ولداً أشقر لا يعرفه . . وأن خناقة دبت بينه وبين زوجته، ولكن التوراة لا تناقش ظهور كائن عجيب مختلف عن بقية أفراد الأسرة . . وهذه القصة تكررت فى أساطير فى الهند والتبت والحبشة وفى بابل وآشور وفى الأساطير الإغريقية أيضًا . .

. . وأكملت سرد الوقائع بينى وبين نفسى، فقد هبطت الطائرة مدينة هيوستون، وسبقتنى د. فاروق الباز إلى جانب الرئيس السادات والوفد المرافق له فى زيارته الرسمية إلى أمريكا . .

وظللت مشغولا أفتش فى المكتبات الأمريكية عن كتب جديدة، حتى جاء رواد الفضاء الأمريكان إلى مصر، ومعهم د. فاروق الباز، وزرنا المتحف المصرى، وتسمرنا أمام طائرة بجناحين . . طائرة فرعونية قديمة عمرها ثلاثة آلاف سنة!

طائرة، ما فى ذلك شك . . كيف؟ إن هذا لغز لم نجد له تفسيراً بعد!

ونزلت ضيفًا على شركة «كيبل أندو برلس» وشركة «هوكرو سيدلى» البريطانيتين، وكلتاهما تصنع الأقمار الصناعية التى يستخدمها العالم فى المواصلات اللاسلكية . . فى التليفونات والتليفزيونات أيضًا . . وجلسنا أمام إحدى سفن الفضاء، وسألت واحدًا من المهندسين: هل صحيح أن هناك هيئة علمية، تشاركون فيها، ومهمتها رصد الأصوات التى تجىء من الفضاء الخارجى؟

قال : نعم . .

قلت : إذن هذه حقيقة علمية مؤكدة.

قال : لا شك فى ذلك.

قلت : ما الذى تتوقعه؟

قال : ما الذى أتوقعه؟ لا أعرف شيئا. إننا سمعنا أصواتًا عجيبة، فأدرنا أطباق الرادار إلى مصدر الصوت حتى ازداد وضوحًا . . والعلماء مختلفون فى مدلول هذا الصوت ومعناه. . هل هى مصادر هائلة للإشعاعات الكونية؟ أو هل هى رسائل من حضارات بعيدة عنا؟ ولكن من المؤكد أن هناك شيئًا ما عاقلاً جدا بعيداً عنا. . ما فى ذلك شك . .

وليس هذا الكتاب إلا استكمالاً للطرق على باب المجهول . .

إننى لا أسمع إلا دقات أصابعى . . وأضع أذنى على الباب . فأسمع وأتخيل أننى سمعت وأننى رأيت . . ثم أعود إلى الكتب القديمة جدا ، والحديثة جدا مفتوح الشهية إلى مزيد من المعرفة . . فلا نهاية لمعرفة ، ولا نهاية لعطشى إلى أن أعرف ، وهذه نعمة من نعم الله ، أحمده عليها ، وأطلب منه ، لى ولك ، المزيد من النور ، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً . قليلاً جدا !

السيدة الأولى (*)

اخترع الأمريكان وظيفة «رئيس» الولايات المتحدة الأمريكية، وضاق رؤساؤهم بالوظيفة واللقب، ووجدوا أن البيت الأبيض مثل الزواج، الذين هم فى داخله يريدون أن يطفشوا والذين فى خارجه يريدون أن يزحفوا إليه، فالسعيد من اقتحم الباب داخلا وخارجا، ولكن أحدا من الواقفين أمامه لا يصدق الهاربين من الأيام السوداء فى البيت الأبيض . .

يقول الرئيس هوفر: لقد شرفنى خصومى مرة واحدة عندما اتهمونى بأننى وحدى المسئول عن خراب أمريكا اقتصاديا وسياسيا!

يقول الرئيس ترومان: إننى أجلس هنا أحاول إقناع الشعب بأن يعمل ما هو واجب دون ضغط منى. هذه هى كل مهام رئيس الجمهورية!

يقول الرئيس كنيدى: عندما يسوء كل شىء تشير أصابع الناس إلى الرئيس. وهذه التهمة هى التى يتقاضى عنها مرتبه!

يقول كيسنجر: أن تعرف رئيسا واحدا، إذن أنت تعرف كل الرؤساء!

يقول الرئيس ترومان: أحسست أننى عشت عمرى خمس مرات فى الأيام الأولى الخمسة فى البيت الأبيض!

يقول الرئيس لنكولن: قالوا إننى ذاهب إلى جهنم لا محالة، ولم أكن أعرف أن جهنم هى البيت الأبيض!

يقول الرئيس بوكانان: إذا كنت سعيدا لدخولك البيت الأبيض الذى أخرج أنا منه عائدا إلى بيتى، أنت إذن أسعد إنسان فى العالم!

(*) مقدمة كتابى: «السيدة الأولى».

يقول أيزنهاور : ما أروع هذا اللقب : الرئيس السابق !

يقول الرئيس شارل ديجول : كيف تحكم شعبا يصنع ١٤٦ نوعا من الجبنة ؟!

ثم يقول الرئيس جون كيندى : ما أحقر وأقذر هذه الوظيفة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

وقالوا عن نائب رئيس الجمهورية : إنه يشبه آخر قطعة جاتوه فى الطبق ، كل واحد لا يريد أن يمد يده لها ، ولكن يجىء دائما واحد يفعل ذلك !

وقالوا : إنه فردة كاوتش احتياطى فى أتوبيس الحكومة !

وقالوا : إنها الوظيفة الكبرى الوحيدة التى لا معنى ولا قيمة ولا خطورة لها !

وأحسن ما قيل : كان هناك أخوان : واحد هرب بحرا إلى أوروبا ، والثانى أصبح نائبا لرئيس الجمهورية ، ومنذ ذلك الحين لم نعد نسمع بهما !

* * *

فى مايو عام ١٧٨٩ عندما وصل الرئيس واشنطون وزوجته مارتا على ظهر أحد الزوارق إلى رصيف نيويورك ، العاصمة المؤقتة ـ انطلق ١٣ مدفعا تحية للرئيس الجديد .

وكانت تمشى وراءه سيدة ممتلئة هى زوجته من ثلاثين عاما ـ مارتا ، وقد اعتاد الناس أن يروها معه منذ أيام الثورة الأمريكية ، وكانوا يهتفون بحياة الليدى واشنطون .

وعلى جانبى الطريق إلى بيته الذى استأجره وقفت الجماهير ترى الملك الأمريكى الجديد ـ وسط بين الملك وبين أى موظف كبير من صميم الشعب .

وكان الرئيس واشنطون يعلم خطورة وصعوبة الوظيفة ، فهو يعمل كل شىء لأول مرة ، والناس يرون كل شىء جديدا عليهم .

والذين وضعوا الدستور الأمريكى كانوا حريصين على عدم إعطاء رئيس الجمهورية سلطات كبيرة ، وفى الوقت نفسه عدم تجريده من السلطات .

وبسرعة استدعى الرئيس واشنطون عددا من الشخصيات يستشيرهم فى أمره . وكيف ينادونه . مثلا : صاحب السمو رئيس الجمهورية . .

وقيل : صاحب العظمة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية حارس الحريات . .

ولكن مجلس النواب رفض كل هذه الألقاب وأصر على : السيد الرئيس .

وحاولت الصحف أن تناديه : فخامة الرئيس . .

ولكن الرئيس آدامز وجد فى لقب : السيد الرئيس ، إهانة له وتحقيرا كأنه موظف صغير !

وكذلك تناقش واشنطون فى ألقاب زوجة الرئيس فقالوا : المركيزة . . الليدى . . وأخيرا اتفقوا : مسز واشنطون ـ وهذا يكفى .

أول مشكلة واجهت أول رئيس لأمريكا : ماذا يفعل بالجماهير التى تريد أن تراه . وتصافحه وتلمسه ، هل يفتح الباب على الآخر لكل الناس كل الوقت؟ إن وقته لن يتسع لاستقبال ألوف الضيوف ؛ فمتى يعمل؟

واستدعى الرئيس واشنطون عددا من الشيوخ والنواب يسألهم النصيحة ، قالوا له : لابد من تحديد الزوار ، وتحديد رد الزيارات ؛ فوقته لن يتسع ، وفى الوقت نفسه سوف يكون له أصدقاء ، أو شلة خاصة تؤثر على نظرته للأمور وقراره بعد ذلك ، وتقلل من هيبته . .

لقد اكتفى الرئيس جون آدامز بحفلتين فى الأسبوع ، وكانت الصحف تنشر مواعيد الزيارة المفتوحة لكل الناس : يومى الثلاثاء والجمعة . . أما الأحد فإجازة .

وكان هناك نوعان من اللقاءات : أحدهما يتقلد فيه الرئيس السيف ويضع القبعة . أما الثانى فبغير ذلك . .

وفى أول حفلة أقامتها مسز واشنطون كانت جالسة ، والسيدات حولها والرجال ، كأنها ملكة . أما الرئيس واشنطون فهو الذى يقدم الطعام والمشروبات ويتنقل بين الضيوف . وبعد نهاية العشاء لم يعرف الناس ماذا يعملون ، هل يخرجون قبل أن تخرج هى . . هل ينتظرونها حتى تخرج هى كما تفعل الملكات ، ومن الذى سوف يعلن نهاية الحفلة . .

ولكنهم فوجئوا بمسز واشنطون تقول : السيد الرئيس ينام فى التاسعة ، وأنا قبل ذلك بدقائق !

وخرجت؛ فخرجوا وراءها!

وكان بيت الرئيس مثل «دوار» العمدة مفتوحا دائما، ويرى كل واحد أن يخطف رجله ويصافح الرئيس، ويسأل عن صحته . .

وكان على السيدة الأولى أن ترد الزيارة ـ زيارة أعضاء مجلس الشيوخ والنواب، وأن يكون ذلك في أسرع وقت حتى لا يغضب أحد، ففي يوم واحد ذهبت السيدة الأولى إلى سبعين أسرة!

وعادت إلى بيتها عند منتصف الليل فوجدت الرئيس نائما، أيقظته فسألها: هل غرقت في المحيط؟ قالت: ليس بعد!

وتقلب في فراشه وأحس أنها إلى جواره ليقول لها: من الذي أنقذك؟ قالت: ليس بعد!

ونام الرئيس وعاد يكمل الحوار: ليس بعد؟ الغرق؟ أو النجاة؟

قالت: الغرق!

قال: بل النجاة؟!

ونام الاثنان، وفي الصباح الباكر سألها: من الذي غرق؟ سمعتك تتحدثين عن شيء كهذا . .

وقالت السيدة واشنطون: كانت هذه أول إشارة إلى طبيعة وظيفة رئيس الجمهورية!

ورئيس الولايات المتحدة الأمريكية، باعتباره رئيس الدولة ورئيس الوزراء، كان يطلب إلى زوجته أن تساعده علنا في الوظيفة الأولى، وسرا في الثانية . . حتى ظهرت السيدة الأولى بعد مائتي سنة في مجلس الوزراء وحتى ظهرت معه في كل مناسبة. وفي سنة ١٩٨٢ ظهرت صورة كاريكاتورية لنانسي ريجان وقد وضعت على رأسها التاج!

وكان من واجبات السيدة الأولى أن تتوازن مع النشاط الاجتماعي للرئيس؛ فإن كان منطلقا، تحفظت هي . . وإن كان شعبيا، تمسكت بالمظهر الملكي في عيون الناس.

وفى سنة ١٩٣٠ أوقف الرئيس هوفر حفلات رأس السنة التى اعتاد الرؤساء أن يقيموها فى البيت الأبيض، لقد وجدها مرهقة له ولزوجته . .

وعندما تلقت مسز واشنطون هدية عربة، وافق الرئيس على أساس أن هذه الهدية ليست له.

* * *

والسيدة أبجيل زوجة الرئيس آدامز كانت شخصية مختلفة، ذكية، طويلة اللسان، حاضرة البديهة موجعة، وكل شيء يقع لها تكتبه فى مذكراتها المملوءة بالأخطاء النحوية والإملائية ـ فهى لم تتعلم إلا القليل جدا!

وصفتها إحدى مؤرخات البيت الأبيض تقول: كان لابد أن أذهب إلى جلالتها بعد أن أرتدى بدلة من الحديد، خوفا من لسانها السام!

أما سبب معرفتها لأشياء كثيرة فى الدولة، فلأن زوجها يتحدث إليها وستشيرها فى كل شيء . . ويطلب مساعدتها فى كتابة خطبه الرسمية، لقد كان يعاملها على أنها «وزيرة دولة» ـ وزيرة بلا وزارة. وكان الناس يعرفون ذلك ويتجهون إليها لحل مشاكلهم عند الرئيس، وأصبحت مادة للأغانى والمونولوجات والنكت، وكانوا يصفونها بأنها السيدة رئيسة السيد الرئيس!

ولم تحضر حفلة حلف اليمين لزوجها، فقد كانت تجلس إلى جوار أمه المريضة . .

وكان من عادة أبجيل أن تنتقل بين الناس وبين البيوت وفى الحفلات تجمع للرئيس أخبار العاصمة وماذا يقال عنها وعنه . . فكانت جهازا كاملا للمعلومات وكانت دقيقة فى معلوماتها . . فإذا سمعت قصة لم تصدقها، بعثت من يتحقق منها. أما متعتها الحقيقية فهى كتابة الخطابات والرد عليها . . لقد بعثت بعشرات الألوف من الخطابات فى كل شيء ولكل واحد . .

أما البيت الأبيض أيام الرئيس جيفرسون الذى حكم فترتين (١٨٠٠ ـ ١٨٠٩) فقد كان فوضى . . لا نظام ولا أناقة، ولا يعرف هو ما الذى يمكن أن يعمله. فقد كان أرمل. وهو يسبق الناس إلى الاعتذار عن كل شيء: ماذا أفعل لا توجد سيدة

فى البيت . . وفى الحفلات التى أقامها فى بيته، كان يجلس هو فى أى مكان من القاعة، والناس يجلسون حيث يشاءون، وبذلك حطم القواعد السابقة فى الجلوس بالقرب من الرئيس حسب المركز والأهمية . .

وكان يترك بعض الحفلات إلى السيدة مولى ماديسون، زوجة الرئيس المقبل. وعندما أصبح ماديسون وزيرا للخارجية، أصبح وجودها فى البيت الأبيض ضروريا، وقد اعتاد الناس على ذلك، وكانت تقوم بهذا العمل بكفاءة ـ وعمرها ٣٢ عاما.

وكانت سيدة أنيقة رشيقة، تشترى فساتينها من باريس، أما نساء العاصمة الأمريكية فكن يتطلعن، وقلوبهن موجوعة حقدا عليها . .

والسيدة «دولى» آدامز، كانت قد تزوجت قبل ذلك، مثل زوجة واشنطون وزوجة جيفرسون. أبوها بقال، تزوجها أحد المحامين من أقاربها، وبعد سنوات من الزواج رزقا بطفل مات، فانفصلا، وكان عليها وحدها أن تحفر طريقها إلى فوق، وكان لأمها فندق صغير، وكان ماديسون من المقيمين فى هذا الفندق والمعجبين بابنتها دولى. هو فى الأربعين من عمره وأشهر رجال السياسة فى ذلك الوقت، وكان أقصر منها بشبر، ووصفته هى بأنه العظيم الضئيل! واستمر الزواج أربعين عاما تجرى فيها يمينا وشمالا متفانية فى خدمة زوجها.

ويوم أصبح ماديسون رئيسا لأمريكا أقامت «دولى» أولى حفلاتها، فحشرت ثلاثمائة مدعو فى غرفة واحدة. كاد الناس يموتون من شدة الحرارة، فحطموا إحدى النوافذ ليدخل الهواء، ووقفوا على المقاعد ليروا السيدة الأولى، ماذا ترتدى وماذا تقول ومن الذى تصافحه ومن الذى تقبله ويقبلها.

وكانت حريصة على إرضاء كل الناس. وسمعها الناس تقول بصوت مرتفع: ولم لا؟!

وكان ذلك ردا على من طلب إليها قبلة من شفتيها.

كانت شعبيتها تستحق حسد عشرات من سيدات البيت الأبيض، قبل وبعد ذلك!

ورئاسة ماديسون كانت صعبة . . فلا يزال الإنجليز والفرنسيون يعترضون السفن الأمريكية ولا تزال المشاكل مشتعلة مع الهنود الحمر، وكذلك مشاكل الحدود. وفى سنة ١٨١٢ أعلن ماديسون الحرب على بريطانيا ـ ولكن ظلت السيدة الأولى تحمل «علبة النشوق» تقدمها لكل الناس، والنشوق مثل العيش والملح دليل على الإخلاص، تماما كمن يقول: أكلنا عيشا وملحا . . فهم يقولون: تنشقنا من علبة واحدة وعطسنا وقلنا معا: يرحمكم الله !

وهى أول من زار العائلات التى انتقلت حديثا إلى العاصمة واشنطون، وكان ذلك دليلا على تواضعها، ثم استضافتهم فى البيت الأبيض . .

وجاءت من بعدها السيدة إليزابيث مونرو، وقررت ألا تستغرقها الحفلات والزيارات، وأنها لن تغير من عاداتها فى الأكل والنوم والراحة، لأى سبب. وإليزابيث بنت رجل غنى، وقد رأت الأغنياء من كل لون فى أمريكا وأوروبا، رأتهم جميعا يعيشون حياة هادئة بلا زحام ولا ضوضاء، وقررت أن يكون البيت الأبيض بيتا وليس سوقا للخضار . .

وإذا كانت السيدة دولى شعبية، فإليزابيث سيدة أرستقراطية، وسوف تبقى كذلك، وهى أيضا أنيقة. وعندما ذهبت إلى باريس وصفوها: بالأمريكية الحسناء . .

وظلت جميلة فى الرابعة والخمسين عندما أصبح زوجها رئيسا لأمريكا. وقد رسمها أحد الفنانين، وفى الصورة يظهر عنقها وجانب من الصدر، أما النظرة فجريئة وأما الشعر فقد تدلى ثلاث خصلات على جبينها، وكان الناس فى زمانها يرون ذلك نوعا من التهتك تماما كما رأوا فى الأميرة ديانا عندما جعلت فتحة الرقبة عميقة، وكذلك فتحة الظهر . .

أما فساتينها فقد انتقلت بعد ذلك إلى المتاحف، ولم تستطع أية أمريكية مهما كانت غنية أن تلحق بها فى مجالات الأناقة الباريسية . . وكانت ترتدى ملابس لا تناسب سنها، ولم يكن أحد يدرى بالضبط إن كان شبابها بسبب الفساتين أو بسبب الأصباغ . . أو هى الرياسة!

وعند زفاف إحدى بناتها توقع أهل العاصمة أنها سوف تطلب إلى سيدات المجتمع أن يحضرن ويتفرجن ويقدمن الهدايا، ولكنها جعلت الحفل عائليا جدا، ووقف وزير خارجية أمريكا على باب البيت الأبيض يرد الناس الذين جاءوا بلا دعوة؛ جاءوا بحسن نية، فعادت السيدات اللاتى ارتدين أحلى الفساتين وأغلى المجوهرات . . حتى اللاتى حملن معهن الهدايا تركنها على الباب، ثم عدن يسترجعنها. وكان موقف وزير الخارجية صعبا، فالدبلوماسية التى حاول الاستعانة بها ارتدت إليه لعنات عليه وعلى ساكن البيت الأبيض وعلى اليوم الذى قررت فيه أمريكا أن تختار عربجيا من الشعب، لا ملكا ابن ملك!

والسيدة إليزابيث مونرو كانت تقضى معظم الوقت بعيدة عن البيت الأبيض ـ مع ابنتيها.

وكانت التقاليد تقضى بألا تدخل البيت الأبيض سيدة أو فتاة فى غياب السيدة الأولى!

وانتشرت الشائعات عن خلافات حادة بين الرئيس والسيدة الأولى، بسبب سفرها الكثير . . ولذلك كانت حفلات البيت الأبيض صمتا طويلا وانصرافا مبكرا، فلم يكن الرئيس مونرو يحسن الكلام والحوار أو يتذوق النكتة.

وكانت السيدة الأولى قد اتفقت مع وزير الخارجية على أن يشترى أثاث البيت الأبيض من باريس، ومات وزير الخارجية، ولم يجدوا عنده الأموال. وقرر الكونجرس التحقيق مع الرئيس مونرو، وأسفر التحقيق عن براءته، فهو لم يتابع ما يجرى فى بيته ولكنه فضح نفسه . . إنه مثل فتاة شريفة وقفت عارية أمام الناس!

أما السيدة «لويزة» زوجة الرئيس آدامز، فكانت تضيق بالزيارات والحفلات ـ تقيمها أو تذهب إليها ـ وكانت تقول: لو سكتت النساء بعض الوقت . . لاسترحت واسترحن جميعا، ولكن نصف وجه المرأة لسانها، ونصف حياتها كلامها، وهو نصف متاعبها، وكل متاعب زوجها!

وفى إحدى الحفلات الرائعة فى البيت الأبيض سقط المصباح من السقف على كتفها، فغرق عنقها وصدرها وفستانها فى الزيت، وقالوا: إنها الآن ممسوحة بزيت البركة!

وكانت تقول فى كل حفلة : إننى أحرص على أن أودع الناس إلى ما بعد البيت الأبيض، لكى أراه بوضوح وأبصق عليه!

وكانت مارتا واشنطون تقول : أنا سجينة بيت الرئيس!

ولويزة آدامز قد ولدت فى بريطانيا وإن كان أبوها أمريكيا، فهى غريبة النطق والعادات، وعندما بلغت الشواطئ الأمريكية فى الرابعة والعشرين قالت : أعوذ بالله . . كانت أمريكا مثل سفينة نوح : فوضى وقذارة وضوضاء.

واكتشفت أن زوجها رجل عملى؛ ليس عنده أى إحساس مرهف، ولا تذوق للجمال، ولا رغبة فى الهدوء. وكانت تضيق بضوضاء المجتمع، وبصمت زوجها. ولما قالت لزوجها : إنها سوف تصاب بالجنون؛ أهداها فى اليوم التالى كتابا عنوانه : مبادئ الأمراض العقلية!

ولم تكن تقرأ كثيرا، ولكن الذى تقرؤه تفهمه جيدا، وتتحدث عنه كثيرا ويذهب عميقا فى نفسها وحياتها، فقد قرأت كتابا عن ديانا عشيقة ملك فرنسا هنرى الثانى. تقول لويزة آدامز : رأيت فى هذا الكتاب صورة لحياتى، رأيت كيف أن القصر الملكى يفرض على الناس عادات وتقاليد من حديد، لا خروج عنها إلا بخروج الروح، وعرفت مدى قسوة وفداحة أن يضغط الآخرون على حياتك ويشكلوها على هواهم، فرفضت أن أكون واحدة من هؤلاء الضحايا!

وتقول : كلما حاولت أن أضيف شيئا معقولا اعترضونى قائلين : ولكن الدستور لا يسمح!

* * *

وكانت زوجات الرؤساء فى السنوات الأولى للجمهورية شخصيات قوية وكن يشاركن فى إدارة شئون الدولة من وراء الأبواب . .

فالسيدة مارتا واشنطون عاكسها أحد الضيوف فى حفلة عامة، فخرجت من الحفل وامتطت جوادها وعادت إلى بيتها ليلا، وقبل أن تعود إلى البيت وقفت وراء إحدى الأشجار متوقعة أن يجىء وراءها أحد يعتذر لها - وفى هذه اللحظة قررت أن تنقض عليه بالكرباج!

وكانت أبجيل آدامز تقول : أتمنى من الله ولا يكثر على الله : دورة مياه خاصة

بى وحدى أدخلها وأخرج منها فى أى وقت أشاء . . لا تهمنى غرفة النوم فى الدرجة الأولى، ولكن يهمنى جدا أن أكون وحدى وعلى راحتى فى دورة المياه!

ويوم هددت القوات البريطانية بدخول العاصمة، وتلقت تحذيرات بضرورة الانتقال من البيت الأبيض إلى أى مكان آخر، كانت تقول: ليس قبل أن أكمل برواز صورة الرئيس واشنطون!

أما السيدة إليزابيث مونرو فقد عين زوجها سفيرا فى باريس سنة ١٧٩٤، وعلم أن المركيز لافييت قد أودعوه السجن بعد أن هرب وأمسكوه عند فيينا. وكان لافييت صديقا للثورة الأمريكية. وحبسوا زوجته مارى أدرين لافييت، وقررت إليزابيث مونرو الاتصال بالسيدة لافييت ومساعدتها بأى شكل، فاشترت عربة جديدة ذات ألوان صارخة، وانطلقت فى شوارع باريس تسأل عن السجن . . والناس يلتفون حولها، وتعود تسأل والناس يتجمعون وراءها. وكانت الشوارع التى تمشى فيها من أولها تعود لتمشى فى آخرها . . وهكذا التف الناس حولها وعرفوا أنها زوجة السفير الأمريكى أرادت أن تساعد السيدة لافييت . .

وانفتح باب السجن وتعانقت السيدتان واهتزت مشاعر الجماهير وراحوا يهتفون للسيدة لافييت . . ويتظاهرون حتى اضطرت إدارة السجن للإفراج عنها!

وكذلك كانت السيدة لويزا آدامز فعندما كان زوجها فى روسيا سنة ١٨١٤ استدعوه لمشاورته فى عقد معاهدة صلح بين روسيا وفرنسا، وبعث إلى زوجته بخطاب يطلب فيه أن تبيع كل أدوات البيت وأن تعود إلى باريس، وكان الشتاء جليديا، ولابد أن تمر على مناطق مخربة محترقة، بل لابد أن تمر بين صفوف القوات المتحاربة. وكانت تخاف من الخدم المرافقين لها أن يسرقوا مجوهراتها أو يقتلوها، فإذا تعطلت عربتها بسبب الجليد طلبت إلى الروس أن يساعدوها بوضع أغصان الأشجار تحت العجلات ويدفعوا الخيول إلى الأمام.

وكانت تقضى الليالى الطويلة دون نوم خوفا من المرافقين لها، ومن الروس.

وعندما دخلت الحدود الفرنسية راح الناس يهتفون: يعيش نابليون . . تسقط روسيا!

وكانت تخرج جواز السفر وتقدمه لهم فيهتفون : تعيش أمريكا!

فترد هي : يعيش نابليون!

وكان زوجها في انتظارها . وعندما رآها ، لا مد يده ولا عانقها ولا سألها ماذا فعلت وماذا كان يمكن أن يحدث لها ، وإنما قال : ياه . . أربعون يوما كانت رحلتك . . أربعون؟

ـ لا . . تسعة وثلاثون وست ساعات!

ثم عين زوجها سفيرا لبلاده في لندن ، وكانت أتعس وأسوأ مهمة في حياته ؛ فالإنجليز لا يكادون يرونه حتى يتذكروا أن أمريكا استولت على ١٣ مستعمرة بريطانية!

وفي نهاية إقامتها في بريطانيا كانت تقول : إن مزرعة للدواجن أحسن من القصر الملكي!

وكانت السيدة أبجيل آدامز ، لم تدخل مدرسة ولا عرفت النحو ولا الصرف ولا الإملاء ولا علامات الترقيم . .

والسيدة دولي مايسون أمضت بضع سنوات في المدرسة ، والكتب التي قرأتها قليلة جدا . وفي بعض الحفلات كانوا يجدون معها كتابا ، ويسألونها : ولماذا؟

تقول : كلما وجدت حوارا سخيفا حولي : فتحت الكتاب ونظرت فيه ليتوقف الناس عن الكلام ، وأنا عن الغلط!

* * *

أحسن ما قيل هو الذي جاء على لسان السيدة مارتا واشنطون : طبيعي جدا أن ينصف التاريخ زوجي ؛ لقد اختاره التاريخ ليكون على رأس الأمريكان . . وإذا رأى الأمريكان أن رئيسهم نظيف الملابس فسوف يقولون : طبيعي أن يكون العظيم نظيفا . . ولكنهم لن يذكروا إلا نادرا من هي التي غسلت له ملابسه وقدميه!

كلهم سقطوا
من الذى أسقط من ؟! (*)

ماذا يحدث لو وقف رجل وحده فى مواجهة الآخرين؟

هذا السؤال أجاب عنه أديب سويسرا فريدريش ديرنمات فى مسرحيات كثيرة: ففى مسرحية «زيارة السيدة العجوز» جعل السيدة تقف وحدها ضد المدينة وتبيع فيها وتشترى، وتحكم عليها بأن يحفر الناس قبر رجل حى، وهو يعرف ذلك . .

فكان موقفها يؤكد ضعف كل الناس . .

وفى الوقت نفسه يؤكد أنها بقدرتها ومالها لم تستطع أن تحقق شيئا مما تريد إلا أن تنال احتقارا عظيما .

ولم تفلح فى شراء هذا الاحتقار الصامت لها ولأموالها . .

وفى مسرحية «رومولوس العظيم» لديرنمات أيضا . . كان هذا الإمبراطور يُصَفِّى الإمبراطورية ويجردها من سلاحها وجيشها ومن مجدها وتاريخها وينصرف عن ذلك بتربية الدواجن . .

قال لى ديرنمات فى بيته فى جبال سويسرا: لقد اتهمنى بعض الناس أننى أقصد الجنرال ديجول . .

ومن الصدف الغريبة فى مصر أن يقوم بدور «رومولوس العظيم» آخر أباطرة الرومان، على المسرح الممثل نفسه المرحوم صلاح منصور، الذى قام على الشاشة بدور الملك فاروق آخر ملوك مصر، وبدور الإمام أحمد آخر ملوك اليمن؟

(*) مقدمة كتابى: «كلهم سقطوا».

وفى مسرحية «الشهاب» لديرنمات نجد أديبا يموت . . ويقرر الأطباء ورجال الدين أنه مات، ولكن الرجل لم يكن قد مات حقا . وتقام له حفلات التكريم ، ويسمع بنفسه كذب النقاد والناشرين، وينحنى الأطباء ورجال الدين عند قدميه أن يظل «ميتا» وإلا كان ذلك فضيحة لهم !

* * *

وفى مسرحية «بعد السقوط» للأديب الأمريكى آرثر ميللر . . يتحدث عن زوجته مارلين مونرو التى انتحرت، واتهمه الناس بأنه السبب . . وظهرت كتب كثيرة عن مأساة هذه الفتاة الجميلة، تدافع عنها ضد الكاتب الأمريكى . .

ولكن آرثر ميللر لا يهمه ذلك كثيرا، فهو يرى أنها ماتت لأنه كان من الطبيعى أن تموت؛ فهى فتاة ساذجة، وهى تعتقد خطأ أن جمالها وشهرتها كانا بسبب المخرج والمنتج والمصورين والنقاد . . وكل الناس إلا أن تكون هى السبب ! ولكن ميللر يرى أنها صاحبة الفضل على الجميع، وأنهم يجب أن يدينوا لها بالامتنان . . وليست هى التى تدين لأحد . إنها ليست مدينة لأحد، لقد أعطتهم كل شىء، فهى صفقة فى تجارة الرقيق الأمريكى ـ أى السينما ـ باعوها لحما ودما . . ولم يتركوا لها لحظة واحدة تستريح، لأنهم يريدون المزيد من المال، حتى لم يتركوا لها عقلا تفكر به . . فلما ضاع العقل هانت عليها الحياة فانتحرت . . فهى لم تسقط إنما هم الذين سقطوا، هم السفلة الأنذال الحقراء، وبعد وفاتها كان لابد أن يبحثوا عن بديل، عن مصدر آخر للذهب . . .

ولكن آرثر ميللر كيهودى يرى شيئا آخر . . يرى أن العالم الذى حزن كثيرا على مارلين مونرو قد فضح نفسه . . ورأى أن العالم تحكمه شهواته الجنسية . . لأن أناسا كثيرين قد ماتوا، وقد أدوا للإنسانية خدمات أعظم، ولم يحزن عليهم العالم . . بل إن هناك ملايين اليهود قد ماتوا واحترقوا فى أفران الغاز، ولكن العالم لم يحزن . . إذن فالعالم فى حزنه على مارلين مونرو عالم مراهق منافق . . ولو كان للعالم قلب، لهزته جرائم أبشع فى هذه الدنيا . .

إذن ـ وهذا ما يهدف إليه ميللر ـ فالعالم الذى حزن على مارلين مونرو هو الذى يشجع تجارة الرقق، وهو الذى يسمح بظهور هتلر آخر، ما دامت جرائم هتلر لا تهزه ولا تثيره. وليس هو مجرما لأنه قتل مارلين مونرو، إنما تجارة الرقيق التى يحبها العالم هى المسئولة . . والعالم كله مسئول عن انتحار مارلين مونرو، وظهور هتلر آخر . .

ولا أحد فى الدنيا برىء من هذه الجريمة . .

فما دام الناس يجلسون أمام الشاشة وينتظرون أى مارلين مونرو، فهم المجرمون حقا . . وما دام الناس لا يفزعون لما حدث فى سجون أوشفتس وداخاو، فهم مجرمون بالصمت عن ذلك كله . .

أى أنه وحده البرىء، والعالم كله مجرم . . فمارلين لم تسقط، إنما العالم كله قد سقط وافتضح أمره . .

وأنا حزنت لانتحارها، لأننى رأيتها قبل ذلك بأيام ولأنى رأيت آرثر ميللر فى مصر . . لقد كانت مارلين حمامة جميلة وجدت نفسها فى قفص ذهبى مع نسر شرس، فى يده مشرط أو سيف يسميه قلما، ولكنه مشغول بأهله من اليهود !

وفى كتاب للأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار عن الممثلة الفرنسية «بريجيت باردو» تقول: إن إعجاب الرجال بهذه الممثلة قد فضح الرجال؛ فبريجيت باردو ليست كاملة الأنوثة . . فلا نهدان ولا ردفان . . إنما هى طفل . . أو هى غلام، ومعنى ذلك أن الرجال الآن يفضلون المرأة ذات الأنوثة الناقصة . . أو التى هى وسط بين الرجل والمرأة، وليست هذه رجولة صحيحة، إنما هى رجولة ناقصة، فهذا الاهتمام بها نوع من الشذوذ !

ومعنى ذلك أن التفاف العالم كله حول بريجيت باردو أكبر دليل على انتشار فساد الذوق الجنسى عند رجال العالم !

وعندما تفرج العالم كله على تمثالى توت عنخ آمون وأخناتون كتبت السيدة سيمون دى بوفوار تقول مرة أخرى: إن الملك توت طفل يشبه الأطفال الخنافس

الذين يقفون طوابير يتفرجون عليه . . فهو لم يأت لهم من ثلاثة آلاف سنة . . إنما جاء يقول لهم : لقد سبقتكم إلى هذه النعومة . . فأنا جديد وأنتم قدامى . . أما تمثال إخناتون فهو الأصح فى التعبير عن العصر ؛ فهو إنسان وإله فى الوقت نفسه ، وهو رجل له نهدان وله ردفان . . فهو رجل وامرأة معا . إذن المعنى هو : أن إخناتون هو الإنسان الإله والرجل والمرأة !

إنه ابن هذا العصر ، فأبناء العصر شبان متمردون على كل القيم الدينية والسياسية ولا فرق بين الرجال والنساء . . ولوكان إخناتون حيا لارتدى البنطلون الجينز ، وسرق إحدى بلوزات زوجته أو أخته .

وتقول سيمون دى بوفوار أيضا : إن الملك توت والملك إخناتون يقودان تظاهرة أبدية تهتف بسقوط كل جيل جديد . . لأنهما جديدان إلى الأبد . . وظهورهما الآن أكبر دليل على أن حضارتنا التى تتوهم أنها جديدة ، هى حضارة ساقطة فى حضيض التكرار وادعاء العبقرية فى الإبداع والتمرد !

* * *

أما مسرحية «من أجل سواد عينيها» لأديب فرنسا جان جيرودو ، وهو سيد كتاب المسرح الفرنسى ، فهى مأخوذة من أسطورة يونانية عن سيدة اسمها لوكيريسيا كانت فاضلة فى مدينة فاسدة . . وكان الرجال يقارنون بين انحلال زوجاتهم وعفاف هذه السيدة . فالمدينة كلها فى جانب منحط ، وهذه السيدة فى جانبها الرفيع . .

وكان لابد أن تتخلص النساء من هذه «الوصمة» فهذه السيدة الوحيدة كأنها «وصمة» فضيلة فى مدينة ساقطة ، فاتفقت النساء مع رجالهن على أن يذهبوا بعيدا ، وأن يتسلل إلى بيت السيدة العفيفة واحد من الرجال يراودها عن نفسها ، فإذا فعل ونجح أو لم ينجح ، انتهت أسطورة السيدة العفيفة ، وسقطت كبقية النساء . . وبعد ذلك تكون المدينة كلها ساقطة منحلة . . أو بعد ذلك سوف تختفى كلمة : الفضيلة والرذيلة ، والشرف والعار . . فالجميع سواء ، الرجال قد تزوجوا نساء ساقطات ، فالرجل ساقط والمرأة أيضا . وبذلك

تستريح المدينة ، وبدلا من أن تكون المدينة مثل الثوب الأسود به نقطة بيضاء ، تكون كلها سوداء !

إن هذه المسرحيات وغيرها متعددة الألوان . . إنها مثل قطرة من الماء سقطت فإذا نظرت إليها وهى ساقطة وجدت كل ألوان الطيف . . إن سقوطها لامع . . ولكنه مهما لمع ، فهو سقوط ، أو على الأصح ليس سقوطا ، إنما هو إسقاط من أجل أن يتحقق العدل العنيف ، الذى هو الظلم بالقوة !

ولا تزال أكثر العيون لمعانا ، أكثرها امتلاء بالدموع . . دموع الظالم والمظلوم والساقط الذى هو يشبه «شمشون» الجبار يريد أن يهدم المعبد والمصنع والمجتمع عليه وعلى أعدائه !

على رقاب العباد (*)

ما الذى تراه فى الدنيا حولك؟

إنها القسوة فى كل عين، فى كل كلمة، فى كل لمسة، فى كل وعد، وفى كل وعيد . .

لقد أصبحت الدنيا غابة من الأسمنت المسلح . . وأصبحت أنياب الناس مسدسات، وكلماتهم مفرقعات، وأفكارهم عصابات . والحب حرب، والحرب حب . . والدنيا آخرة .

ما الذى يريده الناس من الناس؟ . .

لا شىء إلا أن يموتوا . .

ولماذا لا يريد الناس أن يعيشوا وأن يتركوا غيرهم يعيش؟ لأن هناك ضيقا . فكل إنسان يضيق بغيره، ويرى الدنيا لا تتسع لهما معا، ثم يضيق بنفسه؛ ولذلك فالناس ينتحرون، أو هم يقتلون الآخرين ليموتوا هم أيضا .

ما هذه الحضارة؟ . .

إن الحضارة هى التطوير المستمر لصناعة أدوات الحياة : الشوكة والسكين بدلا من الأصابع، والسيارة، الطيارة بدلا من القدمين، والصاروخ بدلا من العصا التى أضربك بها، والقنبلة بدلا من الطوبة التى ألقيها عليك . فالعقل الإنسانى بكامل وعيه يفقد وعيه . . فليست الحرب إلا قمة العلوم والفنون التى تقضى على صاحب العلوم والفنون . . فإذا كانت الحياة نعمة، فالموت أيضا . . إذا كانت الصحة معبأة

(*) مقدمة كتابى « على رقاب العباد » .

فى الزجاجات، فالسم أيضا. وإذا كان الحب ابتساما فكلاما فسلاما فلقاء، فالموت أيضا . .

لذلك لم يعد الموت شيئا يخيف أحدا، إنه يجىء فى خطاب مغلق، ويجىء فى زجاجة فارغة، ويجىء من النافذة ومن الباب. وكان الناس يفزعون إذا سمعوا أن أحدا قد مات، ولكنهم اليوم حريصون على أن يقلبوا صحيفتهم اليومية ويسارعوا بقراءة صفحة الوفيات؛ لا شماتة فى الموتى، لأنه لا شماتة فى الموت، ولكن حتى لا يفوتهم واجب التعزية.

وفى الصفحات الأولى حوادث الطائرات والمصانع التى احترقت، والقنابل التى تفجرت، والرصاص الذى طاش فأصاب الأبرياء . .

والذى فاتهم أن يروه فى الصحف، فإنهم يحرصون على ألا يفوتهم فى أفلام العنف والجريمة والأشباح والحروب التاريخية . .

إذن فلقد اعتاد الإنسان على العنف، يراه ويلعنه، ثم يلعن نفسه إذا لم يره . . فلأن الإنسان قد أدمن العنف والموت؛ فإنه يبحث عنهما، وإذا وجدهما لم يزعجاه، فقد اعتدنا على الموت والموتى . .

ولم يعد أحد يفكر كيف يموت، فذلك سوف يجىء فى حينه . . وسوف يتكفل به إنسان آخر لا نعرفه . . ولكن على الإنسان أن يفكر كيف يعيش! . .

ومات كثيرون، بل أكثر الناس، دون أن يعرف كيف ولا من الذى كان حولهم، ولا ما الذى قالوه، ولا ما الذى رأوه وهم على حافة هذه الحياة والحياة الأخرى . .

وفى السنوات العشر الماضية ظهرت فى أوروبا وأمريكا مئات الكتب التى تؤكد لنا أن هناك حياة ما بعد الحياة، فقد اقترب أناس من الموت، وأنقذهم الأطباء . . شاء الله ألا يموتوا، فعادوا يصفون الجمال والروعة والأبهة والهدوء المطلق فى العالم الآخر . .

* * *

وقد ظهرت كتب كثيرة تتحدث عن الموتى وآخر كلماتهم . . وكيف أن عددا منهم قد أغاظه الموت، فسخر منه حتى النهاية . . ومن فترة صدر كتاب بعنوان «كيف ماتوا ـ آخر أيام وكلمات وعذاب ومقابر ٣٠٠ من المشاهير فى التاريخ» من تأليف نورمان دونالدسون وزوجته بيتى. وكنت قد أعددت هذا الكتاب تماما، ولكن كان لابد أن أتركه لأكتب صالون العقاد، وربما جاء ترتيبه هكذا أفضل.

ولكن أناسا كانوا أكثر حظا من الحياة، فقد أعطاهم الموت آخر فرصة ليقولوا كلمة واحدة . . فكانت كلمتهم مريرة.

فقد أحسوا أنهم خدعوا.

وفوجئوا بأنهم انتهوا.

وانكشفوا فقد توهموا أنهم لن يموتوا، وانكشف الموت الذى خدعهم بما فى الحياة من جمال ودلال؛ حتى أنساهم أن للحياة نهاية . .

* * *

إن الفيلسوف الفرنسى مونتى عندما جاءه الموت، أخرج له لسانه، والموت ليس إلا سيفا على رقاب العباد . .

وأمامه وقبله وبعده غابات من علامات الاستفهام والتعجب، وإذا كنت لم تعرف ما هى الحياة، فكيف تعرف ما هو الموت؟! فما هو حقا؟:

* * *

إنه عربة تقف عند كل باب! . .

* * *

إنه يصحح كل الأخطاء. ويجفف كل الدموع.

إنه سكين على رقاب العباد.

إنه نقطة فى نهاية كل سطر!

* * *

إذا كانت الشيخوخة هى الانسحاب الهادئ من الحياة فالموت نهاية الانسحاب! . .

* * *

إنه الوجه القبيح للحياة الذى أخفته يد القدر، وقد نجحت فى ذلك كثيرا . .

* * *

قليلون جدا : أصدقاء الموتى!

* * *

أن أموت فهذا شىء لا يخيف، ولكن أن أموت عارا فهذا هو المخيف! . .

* * *

إذا مت أنا، ماتت الدنيا كلها، لأنها من صنعى! . .

* * *

هؤلاء العظماء كالأشجار، يموتون واقفين، وإذا ماتوا جاء موتهم عند قمتهم! . .

* * *

أن تموت أسدا، خير من أن تعيش كلبا! . .

* * *

لم يعد مدينا لأحد : لقد دفع الموت الحساب! . .

* * *

يهدأ العام القادم من يموت هذا العام! . .

* * *

الموت هنا، الموت هناك، الموت مشغول بالحياة فى كل مكان! . .

* * *

كل مكان : مقبرة . . كل زى : كفن . . كل بداية : نهاية . . كل حى : ميت! . .

* * *

الموت يجىء حتى للتماثيل وللأسماء المنقوشة عليها! . .

* * *

طريقنا إلى الأغلبية الصامتة: الموت! . .

* * *

عندما أحس الفيلسوف الإغريقى إنكساغوراس بالموت قال لزوجته: أعطى الأطفال إجازة! . .

* * *

عندما نظر الإسكندر الأكبر إلى زوجته وهو على فراش الموت قال: لابد أنك مرهقة . . آسف لن يطول ذلك! . .

* * *

عندما أدرك الموت العالم الرياضى الإغريقى أرشميدس، التفت حوله، وقال: كل ما أحتاج إليه هو لحظة واحدة . . فلا تزال عندى مشكلة لم أنجح فى حلها! . .

* * *

أصيب الموسيقار العظيم بتهوفن بالصمم فى نهاية حياته، ولما اقترب منه الموت أمسك ورقة وقلما وكتب: فى السماء سوف أستمع إلى الموسيقى! . .

* * *

الشاب يموت؟ . . ربما . الشيخ يموت؟ . . يجب! . .

* * *

الموت هو العدل الذى لا يفرق بين الغنى والفقير . . بين القاتل والقتيل!

* * *

الموت ليس شيئا مخيفا . ولكن الذى يخيفنا هو أن نذهب إلى لا أين وأن نكون ما لا نعرف! . .

* * *

من يخاف الموت لا يعيش! . .

* * *

مكتوب على قبر حماتى : هى تعيش فى هدوء، وأنا أيضا! . .

* * *

لا الشمس ولا الموت، يمكن أن ننظر إليهما دون أن تدمع عيوننا! . .

* * *

عندما تصبح الدنيا عذابا، والأمل مستحيلا - تقول لك الحياة : وداعا، ويقول لك الموت : مرحبا! . .

* * *

نظر الشاعر الإنجليزى بيرون حوله فوجد الدموع فى العيون، فقال : الآن يجب أن أنام! . .

* * *

قبل أن ينفذوا حكم الإعدام شنقا فى طاغية الثورة الفرنسية دانتون قال : يجب أن تعرضوا رأسى على الجماهير، فسوف يمضى وقت طويل جدا قبل أن يروا له مثيلا! . .

* * *

تقلب الأديب الإنجليزى ديكنز فى فراشه، ولم يسترح؛ فقال لابنته : ضعينى على الأرض حتى لا أتعب فى الانتقال إلى ما تحتها! . .

* * *

الحياة سباق بيننا. الحياة قتال بيننا. الموت راحة من كل ذلك! . .

* * *

الموت يفتح باب النسيان، الموت يغلق باب الأمل! . .

* * *

عندما نولد فجميعنا يبكى ، وعندما نموت فبعضهم يبكى ! . .

* * *

لا يوجد إنسان لا يشعر بعض الناس بسعادة لوفاته ! . .

* * *

إذا لم تعرف كيف تموت فلا تقلق ، فسوف تعلمك الأيام ذلك ! . .

* * *

أكثر الناس يموتون بمساعدة عدد كبير من الأطباء ! . .

* * *

يكلفك كثيرا أن تموت هادئا ، يكلفك قليلا أن تموت معذبا ! . .

* * *

كل المآسى تنتهى بالموت . كل المهازل تنتهى بالزواج ! . .

* * *

من عيوب الموت أن يحرمك من أن ترى حماتك تتعذب ! . .

* * *

لا يوجد رجل واحد لا يسعده أن يموت على جثة حماته ! . .

* * *

عندما يموت الرجل فآخر شيء يتحرك فيه : قلبه . . عندما تموت المرأة فآخر شيء يتحرك فيها : لسانها ! . .

* * *

لا أحب أن أرى أحدا يموت ، لكن صدقنى لقد أسعدنى أن أقرأ أخبار الوفيات ! . .

* * *

قال الفيلسوف فولتير عندما علم أن أحد أعدائه جاء لزيارته وهو مريض: إذا جاء فأدخلوه، فإننى يسعدنى أن أراه، وإذا مت فأدخلوه، فإنه يسعده أن يرانى! . .

* * *

عندما حاولت ابنة الفيلسوف الأمريكى بنيامين فرانكلين أن تضع الوسادة تحت رأسه قال لها: يا ابنتى . . من الصعب أن يموت الإنسان ثم يحسن صنع شىء، إننى لا أحسن إلا النوم! . .

* * *

نظر الإمبراطور الألمانى فريدريش الأكبر إلى وزرائه قائلا: لا شىء . . لقد كنا فوق الجبل، والآن ننحدر إلى السفح! . .

* * *

أما الكاتب الأمريكى أو. هنرى فقال: لقد عشت طوال حياتى هاربا من الماضى الفاضح الذى أخفيته عن زوجاتى وأولادى، والآن لا أريد أن أذهب إلى الحياة الأخرى كأننى هارب من الحياة الأولى . . أضيئوا المصابيح، فلم يعد هناك ما أخافه . . إننى أتمنى لكل الذين طاردونى أن يستمروا فى المطاردة! . .

* * *

والفيلسوف الإنجليزى هوبز قال: الآن سوف أقفز أكبر قفزة فى حياتى.

* * *

أما لويس السادس عشر فقبل أن يقطعوا رأسه قال: ليكن دمى سببا فى سعادة الشعب الفرنسى! . .

* * *

رفضت الإمبراطورة النمساوية ماريا تريز أن تتعاطى المخدرات حتى لا تشعر بالموت، وقالت: بل أريد أن ألقى الله فى كامل وعيى! . .

* * *

يمكن لثلاثة أن يحتفظوا بسر: إذا مات اثنان! . .

* * *

الموت : هو أن تكف عن الخطيئة فجأة! . .

* * *

الأحياء : موتى فى إجازة! . .

* * *

أن يموت إنسان ليس هذه مشكلته ، إنها مشكلة بعض الأحياء بعد ذلك! . .

* * *

ثلاثة أشياء لا معنى لها فى حياتنا : أن نولد وأن نتزوج وأن نموت! . .

* * *

يدهشنى جدا أن يقول الناس إنهم لا يفهمون معنى الموت ، مع أنهم قد تزوجوا قبل ذلك! . .

* * *

أمراض اليوم مختلفة جدا عن أمراض الأمس : ولكنها جميعا مميتة! . .

* * *

من قال إن القبر ضيق؟! إنه يتسع لكل الأطباء ومأمورى الضرائب! . .

* * *

لا علاج لحياتك أو لموتك إلا أن تستمتع فيها بينهما!

* * *

نحن ندين لأبينا آدم بشيء واحد ، فقد أتى بالموت إلى هذه الدنيا! . .

* * *

قال الفيلسوف الإنجليزي جويت : إذا لم أعش خمسة عشر عاما فسوف تكون حياتى عذابا! فعندى أفكار كثيرة لم أسجلها بعد! . .

ومات فى سنة ١٨٩٣ ، أى بعد ذلك بخمسة عشر عاما!

* * *

المؤرخ العظيم جيبون قال على فراش مرضه : لقد ضاعت منى فرص كثيرة ولكن هذه الفرصة لن تضيع ، فسوف أعمل ليلا ونهارا فى الأعوام العشرين القادمة ، فقد نسيت أن أسخر من الحياة والموت ، والحكمة وراءهما .

وفى يوم ١٥ يناير سنة ١٧٩٤ مات ، أى بعد ذلك بيوم واحد ! . .

* * *

أديب روسيا دستويفسكى كتب قبل وفاته بيومين : لا أقول وداعا فسوف أعيش عشرين عاما أخرى . لقد قابلت ملاك الموت فى أحد أحلامى واتفقنا على ذلك ، وأعتقد أنه سوف يحترم كلمته ! . .

* * *

الموسيقار الروسى تشايكوفسكى التفت إلى الذين حوله ، ونظر إلى أصابع يديه ، وحركها برشاقة ، وقال : سوف تعيش هذه الأصابع عشرين عاما أخرى ! . .

ومات بعد ذلك بعشرين يوما ! . .

* * *

وقبل أن يشنقوا إمبراطورة فرنسا مارى أنطوانيت قالت : وداعا يا أولادى . . إننى ذاهبة للقاء أبيكم ! . .

* * *

أما الإمبراطور الذى أحرق روما وراح يغنى ، فعندما قرروا إعدامه ، قال يرثى لحاله : أى فنان عظيم سوف يفقده العالم الآن ! . .

* * *

وأديب فرنسا الساخر رابليه أشار إلى الستائر فى غرفته وهو يقول : أنزلوا الستائر . . لقد انتهت المهزلة ! . .

* * *

وسقراط الفيلسوف العظيم الذى قرر القضاة أن يموت منتحرا بالسم، حاول تلامذته أن يقنعوه بالهرب، ولكنه رفض، وقبل أن يشرب السم قال : لقد نسيت أن أذبح ديكا للآلهة . . لقد نذرت لهم ديكا!

* * *

كل إنسان محكوم عليه بالموت . والخلاف بيننا هو فى الزمان والمكان ومن الذى يشمت فينا .

* * *

فى صالون العقاد (*)

عرفت الأستاذ عباس العقاد أكثر من غيره من كبار المفكرين والأدباء المصريين. ما الذى أعجبنى فيه؟ ما الذى شغلنى به؟ فقد كنت طالبا صغيرا لا أشترى مجلة «الرسالة» إلا إذا كانت للعقاد مقالة فيها! وقد اكتشفت بعد ذلك أن هناك كُتّابًا آخرين على درجات متفاوتة من الجمال والروعة والأبهة المنطقية، ولكن فى مثل سنى الصغيرة من الصعب أن يكون الإنسان معتدلا وشابا فى الوقت نفسه، أو من الصعب أن يكون معتزا بذوقه الأدبى، وفى الوقت نفسه واسع الصدر والأفق. ولذلك كنت أرى أن الكاتب هو العقاد، وأن المقال هو الذى يكتبه، وأن مجلة الرسالة خالية إلا منه . .

أعجبنى فى العقاد هذا الصفاء العقلى، وهذا الرواء الفنى؛ هذا الشموخ الهندسى فى مقالاته. هل كان العقاد ساحرا؟ رأيته كذلك، فهو يخرج بالمعانى من المعانى، ولا أعرف كيف؟ ثم هو قادر على أن يستدرجنا إلى ما لم يخطر على البال من نتائج. هل كان محاميا عظيما؟ هل كان مهندسا فكريا جبارا؟ كان كل ذلك . .

وفى مثل سنى الصغيرة كنت أريد أبا عقليا، ووجدته. وكانت لى أفكار صغيرة غامضة، وكان العقاد هو المصباح الذى هدانى. هل كنت مستعدا نفسيا لدراسة الفلسفة؟، أعتقد ذلك . . فقد كان من نصيبى أن أكون الأول على طلبة التوجيهية فى الفلسفة فى مصر كلها.

وكان العقاد يصدمنى أيضا، فقد كان يدين بفلسفة غير التى أدين بها. وأنا صاحب قلب، وهو صاحب عقل، أنا أتنقل وهو يتقدم. أنا أنبهر، وهو يضىء. أنا

(*) مقدمة كتابى: «فى صالون العقاد كانت لنا أيام».

أتغنى، وهو يخطب. ولا أعرف كيف صدمنى العقاد فى أعز ما أملك: حبى الوجدانى للفلاسفة. أما هو فكان صاحب عقل كبير، وكنت صاحب قلب صغير. وكنت أمسك فى يدى شمعة، أما هو فيمسك النجوم والشموس فى يديه..

وعندما انتقلت من المنصورة إلى القاهرة ـ انتقلت إلى جامعتين فى وقت واحد: جامعة القاهرة وجامعة العقاد. وكانت جامعة العقاد أقرب وأعمق وأعظم.

كنت واحدا من أصغر المترددين على بيت العقاد فى مصر الجديدة؛ البيت رقم ١٣ شارع السلطان سليم. وعرفنا أن العقاد على عكس خلق الله: يتفاءل برقم١٣.. ويتفاءل بالبومة، ولا يتشاءم من الكتابة عن الشاعر ابن الرومى الذى أهلك كل الذين كتبوا عنه..

وكان صالونه الأدبى يوم الجمعة من كل أسبوع وكانت الأعلام مرفوعة فوق ثكنات الجيش والمصالح الحكومية فى طريقنا إلى مصر الجديدة.. وكنا نرى أن هذه الأعلام مرفوعة من أجلنا نحن الذين نتردد على بيت العقاد، فليس بعد ذلك شرف لأحد من الناس. كنا نركب المترو، أو بعضنا تدفعه الحماسة إلى أن يذهب ماشيا. وكانت رحلتنا إلى بيت العقاد تبدأ يوم الخميس، فنظل نتحدث عنه وعن ندوته السابقة ابتداء من يوم الخميس. ثم نمشى على أقدامنا إلى مصر الجديدة ـ تماما كما كان يفعل الحجاج عندما يسافرون من المغرب إلى الأراضى المقدسة ـ ويكون المشوار حديثا عن العقاد قبل أن نراه.

ونسارع إلى شارع العقاد، ولا نرى أى معالم لهذا الشارع، حتى إننا لم نعرف شكل البيت ولا المدخل ولا عدد السلالم التى نصعدها إلا بعد سنوات طويلة، فلم نكن نرى ولا نسمع، وإنما ندخر الرؤية للعقاد، وندخر السمع لكلامه.. وقد كان رأسى مثل راديو صغير مضبوط على موجة واحدة، فالمؤشر لا يتحرك إلى محطات أخرى، فلا محطات أخرى. إنه العقاد: وهذا يكفى.

وبسرعة ندق الباب أو كنا نجده مفتوحا، وندخل، والغرفة صغيرة، والهواء بارد لأنه يدخل من الباب ويخرج من النافذة. وكنا نراها واسعة ـ وعرفنا فيما بعد أنها

ضيقة جدًا ـ وكنا نرى المقاعد وثيرة، وفيما بعد عرفنا أنها خشبية جافة. وأحيانا كنا نرى تمثال العقاد النصفى أمامنا، وأحيانا نراه وراءنا، وعرفت فيما بعد أن التمثال لم يتغير موقعه من الغرفة قط، لقد كان فى أحد الأركان وراءنا!

ولا يكاد الأستاذ يعرف أن زائرا قد جاء حتى يتقدم إليه، طويلا عريضا بالبيجامة والطاقية والكوفية، ونقف لتحية الأستاذ الذى يقف لتحية أى إنسان، صغيرا أو كبيرا، وبالحماسة نفسها: أهلا يا مولانا . .

وكنا لا نرد على هذه التحية، أو لا نعرف ما الذى نقوله، إنه الأستاذ قد جاء، وقد جلس، والآن له أن يقول، وهو يقول فى كل شىء. ويجىء عصير الليمون، وبعده القهوة، والأستاذ يتكلم، وينهض واقفا، ويقول: أهلا يامولانا . . ومن بعد ذلك الليمون والقهوة.

وكنت أجلس إلى جوار الباب، فأنا لست إلا طالبا صغيرا على الشاطئ، كأننى أتوقع أن أخرج أو يخرجنى أحد لأى سبب . . أو أننى على الحافة بين الجلوس فى الصالون والجلوس بعيدا عنه، أو أن الجلوس فى الصالون حسب الأقدمية، فالأقربون إلى الأستاذ هم الأقدمون . . أما نحن الصغار الجدد، فمكاننا بعيد عنه . . ولكن لن يمضى وقت طويل حتى نكون أقرب إليه، فالذين كانوا يجلسون بالقرب منه، بل يضعون أيديهم على كتفه وأحيانا على ساقه وهم يتحدثون إليه قليلون جدا: عبد الرحمن صدقى وصلاح طاهر وطاهر الجبلاوى وزكى نجيب محمود وعلى أدهم.

أما نحن؛ فالمسافة بيننا وبين الأستاذ بعيدة جدًا، فليس لنا حق أن نلمسه، ولا أن نقترب منه فقط أن نستمع إليه.

وكان الأستاذ يعرفهم جميعا . . وله معهم قصص ونوادر مع زوجاتهم وأولادهم، وكان يضحك معهم ويروى لنا الحوادث الشخصية والقصص التاريخية . . وكان التاريخ والأدب والفن والفلسفة والسياسة والنكتة كلها أصابع بيانو يلعب عليها معا فى وقت واحد. وكنا أحيانا نسأله، ولم يكن السبب واضحا، إنما المهم أن يكون لنا دور، وأن نقترب منه بمجرد السؤال، لأن السؤال معناه أننا مثل هؤلاء الكبار، وأن السؤال سوف يجعل الأستاذ ينظر إلينا ويسمع،

ويهتم ويرد. وربما كان السؤال إعلاء لقدرنا عنده، أو شعورا بالقرب منه . . أو أننا اكتسبنا حقا جديدا وموقعا فى صالونه الأدبى أو فى حياته . .

وكان الأستاذ يتركنا ليرد على التليفون. ويجىء صوته عاليا وضحكته عريضة من حنجرته ومن أعماقه أيضا، وكان مثل الفيلسوف أرسطو يمشى مسرعا، ومثل الفيلسوف سقراط يسأل ويتساءل . .

وعندما كان يتغيب الأستاذ لحظات فى داخل الشقة، نجدها فرصة للكلام على حريتنا، وللنظر إلى ما حولنا . . وإلى رؤية الضيوف أوضح، وأحيانا إلى التطلع إلى تمثاله وراءنا . . وإلى استهجان الأسئلة السخيفة التى نقولها له، أو استنكار مقاطعته، فنحن نريده أن يتكلم دون أن يتوقف عن الكلام، وكثيرا ما فعل ذلك . .

أما كيف تنتهى الندوة عادة، فكانت بأن ينهض الأكبر سنا . . وبأن ينظر بعضنا إلى بعض، بما يؤكد أن الساعة قد اقتربت - دون أن ندرى - من الثانية، وأن هذا هو موعد تناول غداء الأستاذ، وبعد ذلك نومه، ثم المشى فى شوارع مصر الجديدة، ثم العودة إلى البيت.

وفى الشارع بعد انتهاء الندوة يكون الحديث عن الأستاذ: ماذا قال، وماذا قال غيره، وماذا ينبغى أن يقال - أى أن يقوله أى أحد . .

وكنا نرى أن جلسات العقاد أسرار لا نبوح بها إلا للمترددين عليه فقط . . أو إذا أردنا أن نتباهى بذلك . .

وكان الأستاذ يشجعنا أكثر وأكثر على أن نضحك وعلى أن نروى أحدث النكت، وكان بعضنا يفعل، ولكن العقاد كان يقول: لا . . يا مولانا عندى نكتة أحسن! ثم يروى النكتة وتكون ضحكته عالية.

ولا أذكر أننا عرفنا ملامح وجه الأستاذ العقاد أو لون البيجامة أو الشبشب أو الطاقية إلا بعد وقت طويل، فلم نكن نرى ذلك بوضوح، إنما كنا نراه عموما ونسمعه خصوصا.

وفى أحد الأيام جاءت السيدة سنية قراعة، لا نعرفها، إنها سيدة بيضاء ممتلئة،

قيل إنها صحفية، ويبدو أنها تعرف الأستاذ، ومن العجيب جدّاً أننا وجدنا الأستاذ قد أجلسها إلى جواره، وليس على مقعد من المقاعد الأخرى.

وكانت هذه أول سيدة نراها فى صالون العقاد - كان ذلك سنة ١٩٤٤ - فقد كان من عادة الأستاذ أن يجلس على هذا المقعد الطويل وحده، لا يشاركه أحد . . وأغرب من ذلك أن السيدة سنية قراعة كانت تتحدث أكثر مما كان يفعل العقاد، وأعجب من هذا كله أنها عندما تتحدث إليه كانت تضع يدها على كتفه وأحيانا على يده.

وبسرعة تلاقت عيوننا استنكارا لذلك، إذ كيف تجرؤ هذه السيدة الغريبة أن تلغى المسافة بينها وبين الأستاذ الكبير، وهمس واحد فى أذنى : هل أقوم وأضربها وأطردها من صالون الأستاذ؟

ولم أرد عليه، فقد كان المنظر غريبا عجيبا، ولم نعرف كيف ينتهى، وبسرعة انتهى هذا المشهد الفريد الذى لم نره بعد ذلك فى عشرين عاما. خرجت السيدة سنية قراعة وودعها الأستاذ إلى الباب الخارجى، ولم يجرؤ واحد منا أن يستوضح الأستاذ كيف حدث ذلك . . كيف تجرأت سيدة أن تفعل ذلك . . أى كيف سمح لها بذلك - وهذا ما لم نقله له أو حتى لأنفسنا!

وجاءت سيدة لبنانية لا أعرف اسمها؛ لأننى لم أسأل أحدا، وحاول الأستاذ أن يجلسها إلى جواره فاعتذرت عن هذا الشرف العظيم، وسألها عن والدها، فقالت : تعيش أنت. وسألها عن زوجها، فقالت : تعيش أنت.

فتضايق العقاد، ولم يشأ أن يسألها عن أحد من الناس، ولابد أنه نظر إلى ملابسها فوجدها ملونة فقال : لابد أن ذلك من وقت طويل.

وكان ردها الذى أسكته نهائيا : والله منذ شهرين!

ثم استأذنت ولم يرافقها الأستاذ حتى الباب الخارجى، ووجدنا فى ذلك عقابا تستحقه، فقد أخجلت الرجل من لهفته على أخبار والدها وزوجها، فقلت للأستاذ : لعلها تزوجت يا أستاذ!

فضحك وقال إن هناك عبارة شهيرة لأوسكار وايلد : إن سيدة ازدادت شفتاها احمرارا حزنا على وفاة زوجها!

وروى الأستاذ على أدهم قصة من التاريخ الإنجليزى بهذا المعنى.

وتحدث د. زكى نجيب محمود عن جريمة عاطفية قرأها أخيرا تنتهى بأن يعلن البطل ابتهاجه بوفاة زوجته، فقد اكتشف فى أوراقها أنها كانت تتمنى وفاته . .

ولم نر بعد ذلك فى صالون العقاد سيدة واحدة، ولست الآن على يقين من ذلك . . فلابد أن سيدات قد جئن فى صالون العقاد، ولكن شعورنا المعادى لهن - بسبب الجلوس إلى جواره وإلغاء المسافة الواجبة بينهن وبينه - قد جعلانا نتمنى ألا يجئن . . أو جعلانا ننسى أنهن جئن على الإطلاق . .

ولم يكن لاجتماعات العقاد يوم الجمعة موضوع محدد.

ولكنه كلام من وحى الساعة . . والأحداث . . أو تساؤلات الزوار، ولكن الأستاذ هو الذى يقول دائما.

وأصبح معروفا فى الجامعة أننى واحد من المترددين على صالون الأستاذ. وكنا نحن طلبة الدراسات الفلسفية ندور حول عدد كبير من العلماء الكبار . . حول عبدالرحمن بدوى ومصطفى عبد الرازق وإبراهيم بيومى مدكور ومنصور باشا فهمى . . ولكن الأستاذ العقاد كان له مقام خاص . .

وفى يوم تشجعنا أن ندعوه لإلقاء محاضرة فى الفلسفة، ولم نجرؤ أن نختار له موضوعا معينا، فقلت: يا أستاذ نرجو حضرتك أن تتكلم فى أى شىء، ونحن سعداء بذلك!

ولكنه فاجأنا بقوله: بل اختاروا أنتم الموضوع!

ولم نفهم المعنى بسرعة، فقد كان المعنى أنه يستطيع أن يتكلم فى أى موضوع، ولكن إذا اختار هو الموضوع، فقد اختار شيئا قد درسه أو أعده . . أما إذا اخترنا له نحن، فلا يخيفه شيء، فهو قادر على أن يتحدث فى أى شىء.

واخترنا موضوعا شاقا علينا، ونريده أن يدلنا على مفاتيحه، وكان الموضوع هو: «نظرية النسبية عند أينشتين ونظرية السببية عند الإمام الغزالى».

وكان هذا الموضوع من العقد الفلسفية التى نعانى منها فى فلسفة العلوم وفى المنطق وفى الفلسفة الإسلامية، وقد جلسنا مجموعة من الطلبة حتى اخترنا له هذا

الموضوع المتشابك. وتحدد موعد محاضرة الأستاذ العقاد، واحتشدنا طلبة من جميع الكليات، وضاق المدرج ٧٨ بكل نوعيات الدارسين والمعجبين ومحبى الاستطلاع، إنه الأستاذ العقاد.

أما نحن طلبة الفلسفة فقد انتهينا إلى رأى واحد: لا قرأنا ولا سمعنا مثل الذى قاله الأستاذ. لقد كان عظيما فى شرحه وبيانه وإحاطته وتعمقه وإقناعه!

وطالت أعناقنا، واستقر الأستاذ فى أعمق أعماقنا. ولم يكن مفاجأة لنا أنه قال ذلك، فقد استمعنا فى ندوته إلى عجائب الأفكار والآثار والنوادر فى كل فروع المعرفة الإنسانية!

* * *

وأحيانا كنا نرى الأستاذ يمشى فى شوارع القاهرة، غريبة! لم نكن نتصور أول الأمر أنه يفعل ذلك، ولكن اعتدنا على أن نراه هكذا عاديا.

وعرفنا أين يذهب كل يوم من كل أسبوع، وكنا نتعرض له وقد أحكم طربوشه فوق رأسه، أما الچاكتة فقد كانت طويلة جدا فى الأربعينيات، والچاكتة والبنطلون لم يعرفا المكوى.

وكان يسرع الخطو، ويمشى محنيا قليلا إلى الأمام.. أو كل جسمه إلى الأمام، وهو برأسه يجر بقية أعضائه. وكان بعض الناس يعرفونه ويقولون: العقاد، وكان لا يأبه لذلك كثيرا، أو يراه شيئا عاديا أن يعرفه الناس. فإذا ذهب إلى المكتبات التى نعرفها سارعنا بعد أن ينصرف الأستاذ، فنسأل ما الذى قرأ؟.. ما الذى اشترى؟.. ما الذى قال؟

وكنا نتجرأ عليه أحيانا قليلة - فهو رجل لم يتخصص فى أى شىء.. لأنه يقرأ أى شىء ويفهم أى شىء، وعقله موسوعة. ولكننا نحن تخصصنا فى الفلسفة: الحديثة والقديمة، الإسلامية والمسيحية واليهودية، والمنطق، وعلم النفس، ومناهج البحث، والفلسفة الوجودية..

وكنا نرى أننا على قدر ما من المعرفة الفلسفية، إن لم يقرب منه، فهو أكثر قليلا، وسوف يزداد هذا الفارق بمرور الوقت. وكانت هذه الأفكار التى لا نجاهر

بها نوعا من التطاول عليه، أو نوعا من تأكيد الذات فى مواجهته. فمن الصعب أن يتماسك أحد فى مواجهة العقاد، ولكننا تماسكنا، فقلت له مرة: يا أستاذ، إننى أقرأ هذه الأيام فى كتب الفيلسوف الألمانى هيدجر والفيلسوف الفرنسى سارتر وصديقته سيمون دى بوفوار. لقد اشتريت كل الكتب التى ترجمت للفيلسوف الألمانى.. وهو.. وهو.. إلخ.

وسألنى: كم كتابا له عندك يامولانا؟

فقلت له: كل الكتب التى ترجمت إلى الإنجليزية.. إنهما كتابان.

فضحك العقاد ونادى خادمه: يا إبراهيم، يا إبراهيم.. هات الكتب الملقاة على السرير.

وجاء إبراهيم بسبعة كتب للفيلسوف الألمانى، ولم أكن أعرف أن كل هذه الكتب قد ترجمت له!

وضحك الأستاذ ليقول: يامولانا.. كل شىء موجود هنا.. إننى أطلب الكتب أحيانا وهى فى المطبعة!

ثم يروى كيف أنه عثر على كتاب عن أبى نواس، وكان ما يزال مخطوطا فى إيران. ثم طلب إلى أحد أصدقائه أن يترجم له هذا الكتاب من الفارسية، وكان الأستاذ فى ذلك الوقت يستعد لدراسة عن أبى نواس.

هذه الدراسة قال لى عنها طه حسين: إنها لا تعجبنى، لأن العقاد يطبق النظريات النفسية على الشاعر، ويضعه فى قوالب حديدية..

فلما نقلت للعقاد رأى طه حسين قال ساخرا: هل لو وضعت الشاعر فى قوالب من الحرير يكون التفسير صحيحا؟! إن كل شىء له قواعد وله قوالب، وكل شىء محسوب فى هذا الكون..

* * *

وكنت أتباهى بالفلسفة الوجودية الجديدة، وكان العقاد يكرهها، ويهاجمها بعنف، وكنت لا أقوى على المجاهرة بذلك. أما منطق العقاد فهو أن الفلسفة

الوجودية إن لم تكن مريضة، فهى من أعراض المرض، لأن المريض هو الإنسان الذى ليس معتدل المزاج، أو الذى ترتعش فى يديه وتتراقص أمام عينيه الأشياء . . فليس سليم النظر من يرسم الدنيا مرتجفة؛ فالكون ليس مرتعشا، وإنما المرتعش هو الإنسان . . والوجودية تبالغ فى مفهوم الحرية والقلق والموت عند الإنسان، وتعطى للإنسان ما لا يستحق من الوزن، وتسلب الكون ما يستحق من الوزن . .

ولم أكن أعجب كثيرا بما يقوله الأستاذ عن الوجودية التى نؤمن بها. ولم نكن نحب أن نناقشها معه، حتى لا يصدمنا فى مشاعرنا . . أو حتى لا يصدمنا فيه، فنحن لا نريد أن نكرهه . . أو لا نريد أن نخسره . . أو لا نريد أن تكون المسافة بعيدة بيننا. فنحن سعداء به، ثم إن لنا معتقدات خاصة ننميها سرا.

وفى إحدى المرات كانت المناقشة مباشرة مع الأستاذ، فقلت: إن الفلسفة الوجودية هى تعبير عن مأساة العصر . . فنحن فى أعقاب انهيارات فكرية . . فالإنسان قد انهار أمام نفسه وعلى نفسه . . والفلسفة الوجودية تشبه قوس قزح الذى يرتسم على سحاب أسود . . أو مثل العفن على جثة ميتة . . إنها نتيجة طبيعية لما أصاب الإنسان على يد الإنسان . . وبعض الفلسفات الوجودية ملحدة . . لأنها ترد نفسها عن الحكم فى قضية خطيرة مثل: من الذى خلق الكون . . وترى أننا بحواسنا لا نقوى ولا نقدر على الإحاطة بهذه القضية . . ولذلك فبعض الفلاسفة الوجوديين يرون أنهم ليسوا أهلا للحكم فى هذه القضية . . وبعض الوجوديين مؤمنون بالله واليوم الآخر . .

وأتذكر الآن أننى قلت كلاما مثل ذلك . .

ولكننى أذكر بوضوح ما قاله الأستاذ: وما هى الحواس التى لديك يامولانا لكى تعرف أن الشمس طالعة . . وأنت تعرف أن فى الشمس فتحات صغيرة تتسع الواحدة منها لألف كرة أرضية؟ . . وما هو مدى اتساع عينيك يامولانا لترى من السماء مساحة يمكن قياسها بألوف الملايين من السنين الضوئية؟ . . أنت لست فى حاجة إلى كف عفريت لكى تقيس الهرم . . ولست فى حاجة إلى عين فى اتساع المحيط لترى السماء . . فنحن ندرك كل ذلك بالعقل، وكذلك الله. ولكن الفلسفة الوجودية هى فلسفة عاجزة . . وتلامذتها من العجزة والكسالى

والمغرورين الذين يرون أن قدرتهم هى منتهى القدرة، وإن عبد الرحمن بدوى «بتاعكم» هذا جاهل . .

فقلت، ولا أعرف كيف تجرأت : لا أعتقد ذلك يا أستاذ.

فقال : تقول إنك لا تعتقد بالله، ثم تعتقد بعبد الرحمن بدوى ؟!

وكانت هذه المناقشة الحادة العنيفة المباشرة أول تجربة لى فى الحوار مع الأستاذ، وأول خلاف حاد، وأول سكين أغمده فى عقلى . . فلا أنا قلت إننى كافر، ولا قلت إننى وضعت عبد الرحمن بدوى على عرش الله . . ولا حتى الأستاذ!

وكانت هذه هى المرة الأولى التى صدمنى فيها!

* * *

أما المرة الثانية فقد كانت بعد ذلك بعشرة أعوام عندما كنت محررا فى «أخبار اليوم»، وعاتبنى الأستاذ لأننى رفضت نشر مقال كتبه الصديق عامر العقاد ابن أخى الأستاذ بمناسبة عيد ميلاده، وقلت للأستاذ : إن وجهة نظرى . .

ووجدت الأستاذ قد اتجه بناظره بعيدا عنى، كأنه لا يريد أن يرى وجهة نظرى . . أو أن وجهة نظرى لا تستحق منه إلا أن يتجه بنظره بعيدا عنها . .

قلت : وجهة نظرى يا أستاذ أن الذى يكتب عن عيد ميلاد العقاد ليس ابن أخيه . . فعيد ميلاد العقاد ليس مناسبة عائلية، إنما هو مناسبة أدبية قومية . .

فلم يسترح إلى ذلك . .

وعدت أقول له : ولكنى لست الذى منع نشر المقال . . إنما منعه سكرتير التحرير . . وليس من الضرورى أن يكون من قراء العقاد أو من محبيه!

ولم أعرف ما الذى قاله الأستاذ، ولا كيف كان غضبه، ولكن زملائى أخبرونى بعد ذلك كيف امتقع وجهه . . وكيف تراجع فى مقعده . . وتحولت كلماته إلى ذراعين تعلوان وتهبطان وتعتصران من الجو ما لا أعرف ولم يعرف أحد . . وكيف أنه قام وقعد، وكل الذى أدركته من غضب الأستاذ قوله : إن صحيفة التايمس البريطانية قد خصصت عددا ممتازا لأديبها ريتشى، مع أنه ليس إلا كاتبا متواضعا!

أى أن مقالا واحدا فى «أخبار اليوم» عنه ليس شيئا، ولا شيئا كبيرا لو أصدرت عددا ممتازا عنه. وأنا من رأى الأستاذ، لولا أن اعتراضى فى ذلك اليوم لم يكن على أن يكتب أحد عنه، ولكن أن يكتب ابن أخيه فقط . . وليس عشرات من الكتاب والنقاد الآخرين!

وعرفت بهذا الحوار شيئا جديدا عن طبيعة الجدال مع الأستاذ، وخطورة الدخول معه فى نقاش . . فهو عنيف، وهو قادر على الإقناع بأى شيء، ثم إنه عصبى المزاج، ولم يكن من الصعب أن يتأكد لنا ذلك من عشرات الأمثلة التى تقع فى كل جلسة معه. ولكن انشغلنا به عنه، حتى إذا كانت هذه الحادثة الأخيرة!

ومرة ثالثة فوجئت بأن مجلة «روزاليوسف» نشرت حديثا للأستاذ سنة ١٩٥٢ يقول فيه: من هذا الأنيس منصور؟!

ولم أصدق أن يقول عنى ذلك، فوقتها كنت محررا بأخبار اليوم . . أكتب باب الأدب، وكنت محررا بروزاليوسف، وقدمنى الصديق إحسان عبد القدوس فى مجلة روزاليوسف وفى مجلة الإثنين على أننى فيلسوف المستقبل . . وأن أسلوبى وتفكيرى مزيج من سارتر والعقاد وطه حسين والحكيم وشقاوة الشباب . . وقال مرة أخرى: انتظروا هذا الشاب . .

ولم يكن قد صدر لى كتاب واحد من كتبى التى بلغت الآن خمسة وستين كتابا . .

وكنت مدرسا للفلسفة فى الجامعة: ألقى محاضرات عن الفلسفة الوجودية وما بعد الطبيعة والفلسفة اليونانية وتاريخ الحضارة وفلسفة الجمال وعلم الأديان المقارن . .

ثم إن الأستاذ يعرفنى منذ أكثر من عشر سنوات، أتردد بانتظام على صالونه الأدبى . . وهو الذى قرأ لى بعض المقالات، وأبدى ارتياحه إلى ذلك . .

وأظن أن حديثه فى روزاليوسف قد أجرته السيدة مديحة عزت . . ولما قرأت الحديث وجدت أن الأستاذ لا يعرف من أنا، أو من أكون، أو إن كان لى وزن أدبى أو حتى مستقبل!

ولا ألومه، فلم أكن قد أصدرت عملا أدبيا أو فلسفيا - أى رأيا فى قضية متكاملة، إنما أنا «واحد صحفى» يكتب فى الأدب والفلسفة، فأنا أديب يشتغل بالصحافة أو فيلسوف يشتغل بالأدب - أى بالكتابة اليومية أو الأسبوعية فى موضوعات متنوعة!

ولكنى تضايقت جدًا، ولم أعرف كيف أواجه إحسان عبد القدوس الذى تنبأ لى بأننى سوف أكون شيئا، ولا أعرف كيف أواجه الذين يعرفون صلتى بالأستاذ - أى صلتى من جانب واحد، هو جانبى وليس جانبه!

وسألت الأستاذ فى التليفون إن كان قد قال شيئا من ذلك، فأنكر قائلا: إنهم أولاد الـ . . بتوع روزاليوسف . .

ولكنى تأكدت أنه تورط فى هذا الحديث، ولم يتصور أن أحدا سوف ينشره . .

فذهبت إلى روزاليوسف، وكتبت ردا على الأستاذ فى مقال قصير بعنوان: عباس محمود العضاض . . وأذكر أننى قلت إن الأستاذ العقاد مثل كل جهاز ميكانيكى كبير له ماسورة عادم ضخمة، وإن هذا الذى قاله عنى قد خرج من ماسورته.

ثم اعتذرت له فى التليفون قائلا: إنهم أولاد الـ . . . بتوع روزاليوسف . .

وكانت صدمة أخرى لم أنسها!

* * *

أما أول صدمة حقيقية أشكر الأستاذ عليها، ومن المؤكد أنه توفى إلى رحمة الله دون أن يدرى بها، فهى ليست إلا شيئا عابرا فى حياته، خطيرا فى حياتى.

ففى أحد الأيام كتبت مقالا فى جريدة «الأساس» سنة ١٩٤٨. كان موضوعه: معنى الفن عند تولستوى . .

وصدر المقال يوم الجمعة، أى يوم الندوة الأدبية، وسألت الأستاذ إن كان قد قرأ المقال. قال: نعم يا مولانا وأعجبنى أسلوبه!

انتهى كلام الأستاذ، وبدأ الكلام والآلام فى أعماقى؛ لقد أعجب الأستاذ

بالأسلوب! . . أسلوبى! . . فـقـط الأسلوب، لا الفكرة . . ولا القـضـايا التى أثرتها . . الأسلوب فقط . .

وأذكر أننى لم أسمع كلمة واحدة مما قاله الأستاذ فى ذلك اليوم، ولا أعرف كيف عدت إلى البيت . . ولا كيف ذهبت إلى مكتبى فى جريدة الأساس بشارع الشواربى لأمسك ورقة وقلما وأطلب من الأستاذ محمد صبيح سكرتير تحرير الجريدة إجازة أسبوعين، هل اعترض الرجل على هذه الإجازة؟ . . هل قال شيئا غير أننا فلاسفة مجانين؟ . .

لا أعرف . وهو عندما قال فلاسفة مجانين، فإنه يقصد عددا آخر من الزملاء خريجى قسم الفلسفة، وهم: حمدى فؤاد نائب رئيس تحرير الأهرام، وعادل مجدى نائب رئيس تحرير وكالة أنباء الشرق الأوسط، ومحمد شرف وكيل وزارة الثقافة . .

وذهبت فى اليوم نفسه إلى جريدة الإخوان المسلمين، وسحبت قصيدة نظمتها فى «مولد النبى» . . وذهبت إلى إحسان عبد القدوس وسحبت قصة «وجودية» كان من المنتظر نشرها بعد أسبوع، وعدت إلى بيتى حزينا، لا أعرف ما الذى أستطيع أن أفعله . .

أما المشكلة فهى: أن الأستاذ العقاد قد أعجبه أسلوبى . .

وعدت إلى المقال أقرؤه، لقد كان الأسلوب صعبا معقدا، أو هكذا تصورت . . وكان مليئا بالتراكيب الفلسفية، فقد كنت حديث التخرج فى الفلسفة، وفى الوقت نفسه مدرسا للفلسفة، فأنا لم أتخلص من المصطلحات الفلسفية بعد، وحزنت على نفسى حزنا شديدا . لقد أعجب الأستاذ بأسلوبى، وأسلوب الأستاذ صعب، وأحيانا معقد، وليس من السهل فهمه . إذن فالأستاذ قد أعجبه أن يجد شيئا منه فى مقالى هذا .

ولا أزال أحتفظ حتى الآن بهذا المقال الذى أعدت كتابته ٣٢ مرة، وفى كل مرة أجرده من الكلمات الصعبة، وفى كل مرة أضع له بداية ونهاية مختلفتين، ولا أزال أحتفظ بهذه المقالات التى اعتبرتها عقوبة لنفسى ولقلمى . . والتى أعتبرها تقليما

لأظافرى وتهذيبا لعقلى ونفسى . . وتذكرت الحيوانات التى يصيدونها بالفخ فى شمال أوروبا، فلا يكاد الحيوان يجد نفسه فى الفخ حتى يظل يقطع ساقيه بأسنانه وينزف دما ويبكى . . أملا فى أن ينجو بساق واحدة أو اثنتين!

ولذلك حرمت الدول الأوروبية والأمريكية صيد الحيوانات بالفخ، حتى لا تتعذب.

وتذكرت ماذا فعل رائد الإصلاح الدينى مارتن لوثر، عندما كان يترجم التوراة إلى اللغة الألمانية، فقد ظهر له الشيطان فألقى عليه زجاجة من الحبر الأحمر، وظل هذا الحبر على جدران الغرفة عشرات السنين، ومضى مارتن لوثر يعيد الترجمة، ويجعل العبارة أحسن وأجمل . .

وبعد أسبوعين عدت إلى الكتابة، وأحتفظ بأول مقال كتبته، وكان أول طريقى فى الكتابة السهلة الواضحة. وحتى عندما كنت أدرس فى الجامعة كنت أشعر أننى لا أتحدث إنما أنا أكتب على مسمع من الطلبة . . فأنا أوضح نفسى لنفسى، ولذلك كان أكثر الذين يترددون على محاضراتى من الكليات المختلفة؛ فقد كانت محاضراتى فى الفلسفة مزيجا من الأدب وعلم النفس والتاريخ والفكاهة. لقد خلعت الرداء الحديدى الذى يشبه ملابس فرسان العصور الوسطى . . لقد نزعت جلد القنفذ وأحجار السلاحف . .

مرة أخرى تذكرت عبارة العقاد هذه، عندما فزت بجائزة الدولة التشجيعية فى أدب الرحلات عن كتابى «حول العالم فى ٢٠٠ يوم» سنة ١٩٦٣، ففى يوم جلست أقلب فى الطبعة الأولى لهذا الكتاب، فلاحظت أن فصوله غير مترابطة، وأن أحجامها غير متناسقة ولا متعادلة المسافات والأهمية، وشعرت بالخجل، وتذكرت الأستاذ، وقررت أن أعيد كتابته من جديد. وفى أسبوعين جلست أكتب الطبعة الثانية من هذا الكتاب فى ٨٠٠ صفحة، وهذه الطبعة الثانية لم أغير حرفا واحدا منها حتى الآن . . وقد صدرت أخيرا الطبعة الثامنة عشرة.

لقد أحسست أنه لو كان العقاد حيا لقال لى: لا يعجبنى هذا الأسلوب.

أى لا يعجبنى اختفاء المنطق والتسلسل فى هذا الكتاب!

وكانت هذه الصدمات المتوالية مثل دقات على مسرح حياتى، وبعدها انفتح الستار أو ارتفع الستار . . ومع أن الأستاذ لم يقل شيئا . . فقط عبارة، حتى لم أسأله عن الذى يقصده منها، إنما أنا الذى أحسست بشيء ما. فهل كان عندى استعداد لذلك؟ . . هل لاحظت على نفسى مثل هذه القوالب اللفظية الفلسفية؟ ربما . . غير أننى لم أفكر فى كيفية الخلاص منها . .

لابد أن إحساسا من ذلك كان فى أعماقى . .

ولكن الأستاذ هو الذى نبهنى إليه دون أن ينتبه . .

وأذكر أن د. عبد الرحمن بدوى كان قد حضر مؤتمرا للمستشرقين فى ميونخ . . ولاحظ أن اليهود فى هذا المؤتمر قد هاجموا القرآن الكريم والسيرة النبوية، فطلبت إليه أن يكتب مقالا لأخبار اليوم. وكتب المقال، وأعطيت المقال للأستاذ مصطفى أمين سعيدا ـ أنا الذى كنت سعيدا . . وقرأه مصطفى أمين، ولم يظهر على وجهه الارتياح، وعرفت أن المقال صعب العبارة.

وسألنى: لماذا لا تكتبه أنت بأسلوبك؟

هنا تنبهت إلى كيف كان أسلوبى قبل أن ينبهنى العقاد إلى ذلك، وكان عنوان مقال د. عبد الرحمن بدوى: المستشرقون يشككون فى صحة السور المكية والمدنية وفى سيرة «ابن هشام». أما العنوان الذى كتبته وظهر باللون الأحمر فى الصفحة الأولى من أخبار اليوم فهو: مؤامرة على النبى محمد!

وعندما صدر كتاب الأستاذ العقاد عن «أبى نواس» طلب منى الأستاذ حلمى مراد صاحب مجلة «كتابى» أن ألخص كتاب العقاد، فأنا أدرى الناس به، وسارعت إلى ذلك، وأعطيته تلخيصا لكتاب العقاد، وأعجب العقاد بذلك، وكاد يطلب منى الأستاذ أن أفعل ذلك فى كتب أخرى . .

ووقتها ساءلت نفسى: ولكن لماذا اخترت كتابا للعقاد لأعرضه بعبارتى السهلة؟ . . هل لأؤكد للعقاد أن لى عبارة أسهل . . أو لكى أثبت لنفسى أننى قادر على ذلك . . أو لكى أقول إن العقاد لا يمكن فهمه إلا من خلالى، وإن للعقاد وجودين: وجوده هو ووجوده بقلمى . . أو كان ذلك التلخيص نوعا من التحدى؟ لا أعرف لماذا كان ذلك . .

وأذكر بعدها أن الأستاذ توفيق الحكيم كان يركب معى سيارتى، فقال لى: إن مؤلفات العقاد تشبه مؤلفات شكسبير . . فى حاجة إلى من يبسطها للناس! أى أنها صعبة . . وأننى جعلتها أسهل. فلماذا لا أمضى فى ذلك؟

وكان كلام الأستاذ الحكيم مثل حجر سقط فوق رأسى . . ما الذى يقصده الحكيم أو العقاد أو أى إنسان؟ هل معنى ذلك أن أكون شارحا للعقاد . . أن أكون داعية للعقاد . . أن أعيش عمرى على كتب العقاد . . آخذا من عمرى وأضيف إلى عمره؟! . .

هل كان الحكيم يقصد ذلك . . أى كان يقصدنى أنا بذلك؟ . . أو هل كان الحكيم يعرض قضية ليتبناها أى إنسان غيرى؟ . . هل كان توفيق الحكيم فى ذلك الوقت يعمل سرا فى تبسيط الكتب القديمة التى نشرها بعد ذلك؟ . . لا أعرف، ولكن الذى أحسست به فورا هو خطورة أن أكون على هامش العقاد . . أو أى أحد!

وتذكرت أن شاعرنا الرقيق كامل الشناوى قد رفض أن يعيش يلقى قصائد أمير الشعراء . . فقط يلقى هذه القصائد، ولا يلقى قصائده!

وربما كان ذلك أحد الأسباب التى جعلتنى لا أشارك كثيرا فى حفلات التأبين والتكريم للأستاذ العقاد، فقد أحسست إحساسا مبالغا فيه أننى سوف أتحول إلى قارئ فى مأتم العقاد . . وأن قلمى أو حياتى الأدبية والفلسفية سوف ترتبط بالأستاذ العقاد . . كلما ذكر اسمه ذكروا اسمى . . كما حدث قبل ذلك للأستاذ سيد قطب أو سعيد العريان . . أو لعدد كثير من تلامذة العقاد . .

وقفز إلى رأسى ذلك المعنى الوجودى اللعين: أن هناك أنواعا من الناس مثل الزائدة الدودية . . إنهم زائدون فقط، أى زائدون على الحاجة. موجودون هناك دون ضرورة . . كالإصبع السادسة فى بعض الأيدى!

وكما أن هناك كتبا لها ملاحق، فهناك أناس لهم ملاحق، أى أناس يضافون إلى أناس . . لست ذلك الذى يضاف إلى أحد من الناس، ولست ذلك الذى يلحقه أحد بأحد، أيا كان هذا الأحد!

ثم إن الأستاذ العقاد عندما تحدث عن الزعيم سعد زغلول قال: عندما خلقه الله قال له: اذهب فأنت غابة بأكملها، وبقية الناس أعشاب بشرية!

وكان العقاد غابة.. ولم يقل لنا: أنتم أعشاب بشرية! ولكننا خفنا على أنفسنا أن نكون كذلك!

ثم تساءلنا: هل كان العقاد غابة حقا، ونحن أعشاب بشرية؟.. من المؤكد أننا كنا نراه كذلك، ولا يزال. ولكن لم نكن أعشابا بشرية...

* * *

ولم أكن أفكر كثيرا فى ذلك الوقت إلا فى تنمية نفسى ورعاية قدراتى.. وكنت مبالغا فى خوفى.. ونسيت عبارة قالها الكاتب اللاتينى فرجيل: إن الإنسان لو أكل بقرة فلن يكون بقرة.. إنما سيظل إنسانا دائما، فلن أكون «عقادا» صغيرا أو كبيرا!!

ولكن شيئا قد أوجعنى فى نفسى.. وظل يوجعنى وقتا طويلا.. لقد تذكرت ما الذى فعله المكتشف البريطانى كوك، وما الذى جرى له.. لقد اكتشف جزر هاواى، ووجده أهلها تجسيدا لأساطيرهم التى تحدثهم عن إله أبيض يجىء فوق جزيرة عائمة، أى فوق سفينة كبرى. ونزل كوك إلى الجزيرة وأذهلهم عندما أشعل سيجارا وأخرج الدخان من فمه وأنفه.. ورأى أهل هاواى فى ذلك معجزة.. فالدخان يخرج منه والرجل لا يحترق.. فسقطوا على الأرض ساجدين..

ثم وضع يديه فى جيبى بنطلونه.. فانهاروا بين يديه.. فقد خيل إليهم أنه يضع يديه فى بطنه ويخرجهما دون أن يسقط بطنه..

ولكنه بعد ذلك كان عنيفا قاسيا غليظا. فجاوز بذلك احتمالهم، فأطلقوا عليه -وهو الإله- سهما أصابه فنزف دمه، وسقط على الأرض.

هنا أيقن هؤلاء البدائيون أنه ليس إلها، فتكاثروا عليه وقتلوه..

لقد قتلوه فى نفوسهم قبل أن يقتلوه على الأرض..

ولكنى لم أقتل العقاد فى نفسى، ولا حاولت ذلك.. ولكنه أوجعنى وجعلنى سنوات أكتم آهتى، وإن كنت أجاهر صادقا بعظيم احترامى له!..

ديانات أخرى (*)

«الناس نيام. فإذا ماتوا انتبهوا» حديث شريف . . فالناس لا يعرفون هذه الحقيقة إلا فى مرحلة متأخرة من العمر، وإلا فى لحظة باهرة ينكشف فيها الإنسان تماما . . فما الذى يراه؟ يرى أنه أمضى عمره كله يدور حول خوف، أو حول أمل، أو حول طمع أو حول حب . . وأن هذا الذى يدور حوله، قد سلبه القدرة على الرؤية، وعلى التمييز . . وأنه مسحوب من كل عواطفه إلى الأمام، وأن هذا الانسحاب قد جعله مأخوذا دائما . . وجعل طريقه صعبا وعالمه ضيقا، وإذا أحس بالاختناق ـ فليس سبب ذلك عيبا فى جسمه . . ولكنه هو الذى جعل الجدران قريبة . . والسقف أقرب، وراح يتنفس فى هواء حبيس !!

انظر إلى حياتك كل يوم . . انظر ولو مرة واحدة . . هات ورقة وقلما واكتب بالضبط ما الذى تفعله أو فعلته اليوم . . لا تخجل إذا أغمضت عينيك وتركت القلم يكتب ثم وجدته يرسم ثورا يدور فى ساقية . . فليس عفريتا هو الذى كتب لك، هذه هى الحقيقة. أنت تدور تدوخ تذوب تتلاشى، أنت لا تدرى ما الذى تفعله، ولكنك أعمى، أعميت نفسك . . وليس غيرك أحسن ولا أسوأ حالا منك.

كلنا نيام. نمشى نياما، نصحو نياما، ونرى فيما يرى النائم أننا نفكر وندبر ونحكم ونتحكم.

وليس هذا تخريفا أو انسياقا وراء القلم، ولا وراء هذه الكلمات، ولكن هذه الحقيقة عندما أدركتها بوضوح، أذهلتنى وأخافتنى، وملأت باليأس قلبى. ولم أعد

(*) مقدمة كتابى : «ديانات أخرى» .

أعرف ما الذى أفعله وما الذى أقوله بعد اليوم، فليس فى العمر وقت طويل لكى أفكر وأراجع ما اتخذته من آراء وما اهتديت إليه من حقائق، وأنا أعلم أنه أفضل للإنسان أن يريح رأسه ويتوكل . . أن يربط أفكاره كمجموعة من الأغنام ويلفها حول رقبته ويختار له شجرة وينام تحتها حتى يجىء الموت الذى هو النوم الأبدى . . وفى ذلك كفاية؛ فالعمر لا يتسع للتفكير فى كل شىء، ولا أحد اتسع عمره لذلك . وإذا ظل الإنسان يفكر فى كل شىء فإنه لن يجد طعاما ولا شرابا، وهو لن يجد الطعام والشراب لأنه لن يجد رأسا ولا قلبا ولا معدة، وخير له أن يرضى بما اهتدى إليه، وأن يستريح . .

ولكن إذا اكتشف الإنسان أنه يدور حول شىء . .

أو أن فى داخله شيئا يدور، وأنه، وكل الناس، دائرون حول رغباتهم وشهواتهم ومخاوفهم وعقائدهم .

أو أنه لا شىء فى هذه الدنيا .

أو أن العالم من حولنا لا يهتم كثيرا إن ضللنا أو اهتدينا . . وأننا هكذا اليوم وغدا وأمس : لا شىء .

وأن الذى يريحنا ويقلقنا لا يعنى أحدا سوانا ـ هان الإنسان على نفسه؛ فانكسرت كبرياؤه وانكمش ظله، وانحط على الأرض لا يحرك يدا ولا عينا ولا يهز عقلا، فلا عمل لمن لا أمل له، ولا معنى لمن لا قيمة له، ولا دنيا لمن لا دين له .

ولذلك فإن الله يقول للإنسان إنه يراه وإنه يراقبه، وإنه سوف يكون به رحيما إذا أخطأ، وسوف يفتح له خزائن الثواب وكنوز الرضا إذا أحسن إلى غيره وإلى نفسه، وراعى الله الذى يرعاه، ونصر الله الذى ينصره . . هذا الحوار بينه وبين ربه، هو الذى يجعل طريقه الطويل قصيرا، وعذابه العميق هينا، وضياعه هداية، وحيرته يقينا!

ولا أقول إننى اهتديت إلى كل شىء . . فأين هو الوقت، وأين هو الصفاء، وأين هى لحظات التركيز والإحساس المباشر بكل القيم العليا فى الحياة .

كيف أبلغ ذلك والحياة ضوضاء وأرق وقلق وخوف وهوان وعذاب ويأس واضطراب وزحام فى الذهاب والإياب، عند الحياة وعند الموت . . كيف أرفع رأسى إلى أعلى وقد اعتدت على أن أحنيه لأرى مواطن القدمين وأمسك ما فى اليدين، وأحمى اليدين من أيدى الآخرين، وأحمى رأسى من أقدام الطاغين الباغين الظالمين الجشعين . . أين يجد الإنسان الراحة وسط هذا الفزع الأكبر الذى هو حياتنا ، ومن يحرص على حياته يتعذب بها، ومن لا يحرص على حياته يعذبه الآخرون . .

كيف ينظر الإنسان إلى نفسه ليعرف حقيقته وحقيقة هذا الكون والله وراء كل شىء . . كيف!

إن المسافة التى بينه وبين نفسه قد امتلأت بملايين الناس والأشياء . إنها لحظات قليلة عندما يجد الإنسان نفسه أمام نفسه، وجها لوجه . إنها لحظات فى نومه الهادئ، أو فى مرضه الطويل، أو على فراشه الأخير . .

أو إذا ذهب إلى الأراضى المقدسة فما الذى يستطيعه فى أرض تغطت بقلوب لها أقدام حافية، وصدور عارية، وحناجر مدوية، ورءوس لامعة، وعيون دامعة، والسنة لا يتعارف بعضها على بعض . .

من الذى وسط الزحام: على المقعد والسرير والرغيف والماء والدواء والظل والدفء - يستطيع أن يتأمل ماذا حدث له فى حياته، وما الذى سوف يحدث له . .

لم أكن أسعد الناس . . وإن كنت تمنيت ذلك الإيمان العظيم الذى وصفه الرسول عليه السلام بأنه «إيمان العجائز» . أين هذه البساطة؟ أين هذا الإحساس المباشر بالله؟ أين هذا الإيمان الساحق الماحق الباتر الباهر لكل ما قرأت وتعلمت وعلمت، وقلت وتقوّلت، واجتهدت وأجهدت وأجهضت، وفكرت وفجرت . . أين هذا الذى لا يذوقه الإنسان إلا مرة واحدة فى العمر . . إلا لحظة من العمر كله!

ولا أبالغ كثيرا إذا قلت - والله أعلم - إن شيئا من ذلك قد أحسست به . . ورأيته بوضوح . . كما يكشف لنا البرق شكل السحب وأحجام الجبال وظلال الأشجار . ويرينا وجوهنا فى عيون الآخرين . إن شيئا من البرق، إن شيئا من

الضـوء، قد قطع الظلام والظلال والضباب . . وإذا بى أرى نفسى . . ولا أقول رأيت بكل وضــوح، ولكن رأيت الذى لـم أره ولـم أعــرفـه، ولا أظن أننى كنت سأعرفه لو لـم أذهب إلى هناك عاريا حافيا طائفا ساعيا مناديا . . وكنت أحسد الذين يدوســوننى ويضــربوننى فى سـاقى وذراعى. كـأننى لا وجــود لى. إننى حسدتهم لأنهم لا يدرون بأحد، إنهم بعيدون عن أجسامهم وأجسام الآخرين . . أمـا أنا فلم أستـطع إلا أن أرى الناس وإلا أن أشم سـعـيـهـم الطـويل، وأرى عـريهم وأسمع لغاهـم. إننى إذن لـم أنشغل تماما عن نفسى . . إننى إذن لـم أستغرق فى كل مـا حـولى . . إننى لم أكف عن عـادتى القـديمة، عن أسلوبى الطويل فى حياتى . . إن وظائف جسمى لم تتعطل عن دورها اليومى . .

ولكن أشهد أنه حدث مرة، أن أحدا قد شكا من أننى قد صدمته . . ثم شغلتنى سعـادتى عن عـدم الاعـتـذار له. أخيـرا انشـغلت عن كل مـا حـولى، واسـتـغـرقـت وغرقت فى الذى هو أسمى وأعلى وأبقى وأبهى وأجمل وأجل!

ويطمع كـثيـرا من يتمـنى أن تعيده هذه الرحلة إلى الأراضـى المقدسـة إلى بطن أمه: جنينا طاهرا بلا خطايا، بلا إرادة للشر أو للخير، الشر لغيره، والخير كله له. ولكنها لحظات فقط يشعر فيها الإنسان أنه صـغير وأنه تافه، وأنه أكثر تعقيدا من هذه البـسـاطة التى حوله، وأنه أقل يقـيناً من هـذا الإيمـان والبـرهان اللذين حـوله، وأن الراحة كل الراحـة فى أن يعتدل فيما يرى، وفيما يعـقل، وليس فى الدنيا أصعب من الاعـتدال، ولذلك فالاعـتدال هو أساس الأخلاق التى تريد كل الأديان أن تحققـهـا على الأرض بين الناس . .

وكل شىء قبل ذلك وبعد ذلك: رمز إلى معنى كبير . . الطواف رمز، والكعبة نفسها قلب الإسلام وقلب الدين رمز . . والدعاء حولها رمز. فالله فى كل مكان وليس حول الكعبة فقط . . والسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط رمز، والوقوف بعرفات ورمى الجمرات. والدعـاء لله هو إعداد وتجهيز للجسم والنفس أن تكون أكثر تركيزا أو أكثر صفاء وأشـد اقترابا من الله . . وكل شىء يرمز، وما من دين إلا وبه رموز إلى معان أكبر وأبقى، وحتى الذين لا يؤمنون بدين عندهم أيضـا رموز:

زعماء وأبطال وتماثيل ومواقع ومعارك وكتب، وكلها رموز صغيرة لمعان أكبر، وهم حريصون على أن تكون أبقى!

ومن العجيب أن اتجاها متجددا فى الفكر الأوروبى يطالب بهدم كل الأديان ويقول: لا ماركس ولا المسيح .. ولا شعارات مقدسة!

وهذا الاتجاه الذى ينكر كل شعار يرفع شعارا ويؤكده ويضعه على رقاب العباد هو: لا ماركس ولا المسيح! حتى الذين لا يؤمنون بدين لهم دين جديد، يريدون هدم كل الأديان، والذى يؤمن بماركس يكفر بمحمد والمسيح وبوذا وكونفوشيوس وزرادشت فهو يؤمن بدين جديد. والذى يكون ماركسيا مسيحيا وهو يتآمر على محمد، فهو يكفر بدين واحد ويؤمن باثنين من الأديان!

فكل إنسان له دين. هذه حقيقة تاريخية وفكرية ودينية أيضا، وإذا حاول ألا يكون له دين، فهذا دين جديد.

ولم يكن الفيلسوف الألمانى نيتشه يتلاعب بالألفاظ عندما قال عبارته المشهورة: إننى أتقى من يكفر بالله - أى أنه أكثر الناس إيمانا بالكفر بالله!

فهو عندما رفض الدين اتخذ دينا آخر، ولكنه دين يرفض ويهدم ولا يختار ولا يبنى نفسا ولا نفوسا ولا يجمع شعوبا على خير الإنسان فى كل مكان!

ولا أقول إننى تعبت فى السعى والطواف، ولا أقول إننى بحثت عن الطعام فلم أجد إلا الشراب، أو فتشت عن الشراب فلم أجد إلا الطعام .. فقد يسر الله لى كل شىء، ويسر العلم الحديث الطيارة والسيارة والشوارع المرصوفة والطعام والماء والأمن والعلاج، ولم يبق أمامنا إلا الرمز، وإلا أن نفكر فى هذا الذى نفعله بسرعة، وإلا أن نتأمل ما نرى بين الناس ألوانهم وأسنانهم، وإلا ما نفعله نحن بين مكان ومكان .. وألا نغمض أعيننا ونلتفت لحظة واحدة إلى أنفسنا .. ما الذى نفعله .. ما الذى نأكله .. ما الذى أتى بنا إلى هناك .. ما الذى بين الناس والناس، بين الناس والشيطان، بين الناس والله .. ما الذى ذهب من العمر وما الذى بقى منه ..

إن كل ما قرأت وتعلمت لم ينفعنى فى الإجابة عن شيء؛ لم أجد من كل ألوف الكتب التى أمضيت فيها عمرى، وأطفأت فيها نور عينى، وأوجعت فوقها رأسى وظهرى لم أجد واحدا يقول لى شيئا يريحنى، أو يجعل أيامى أسهل وآخرتى أهدأ. . لا شيء!

إننى لم أكن قريبا إلى نفسى أو إلى أحد، أو إلى هذا الحكيم المجهول القوى الذى لا نعرفه والذى هو هناك وهو هنا فى كل أحد وفى كل شيء.

وماذا بعد ذلك؟ نحن لا نعرف، ولا أحد يعرف. ولكن من العدل لأنفسنا ومن الخير لكل الناس، أن يراعى الإنسان ربه . .

وأنت لا تعرف ربك إلا إذا كنت فى لحظة واحدة باهرة عرفت هذه الحقيقة: أنك قطعت عمرك كله مسحوبا من عقلك وقلبك وغرائزك، وأنك فى ساقية تدور وتدوخ، وأنك أسلمت نفسك لجلاد هو الليل والنهار، هو المال والجاه، والأولاد واللذة والخوف والطمع واليأس والشك . . وأنه لا وقت عندك لكى تفكر فى شيء تفعله، أو سوف تفعله، وأنك لست وحدك كذلك ولكن كل الملايين من الناس من كل لون وكل زمان وكل مكان وكل دين . . فأنت قرص تليفون فى أصابع لا تهدأ إلا بالموت . . وإلا فى بعض اللحظات عندما تكون قريبا إلى الله، أو إلى الرموز التى توقفك لحظة لتعرف من أنت . . ومن هو!

إننى لم أقل شيئا، ولكنى فقط لم أسكت عن محاولة القول. إننى لم أختر أنسب الكلمات، ولكنى أحاول أن أختار أنسب المعانى. إننى الآن فقط عذرت الذين انفتحت لهم «طاقة القدر» فنسوا أن لهم لسانا يطلبون به شيئا من الله، وانقفلت طاقة القدر فى وجوههم ودونهم ولم يتحقق لهم شيء؛ لأنهم لم يطلبوا شيئا . . وكنا ونحن صغار نتواصى بأنه إذا انفتحت لنا طاقة القدر طلبنا إلى الله بقلوبنا، دون حاجة إلى الشفتين واللسان . .

وإن قلبى قد امتلأ بالكثير، ولكن المشكلة هى كيف أنقل هذا الكثير فى هذا القليل من الكلمات ومن الحروف . . كيف أعبئ النور واليقين والرهبة والجلال

والجمال والصفاء والبهاء فى هذه الحروف السوداء الصغيرة الالتواء . . كيف؟ إنه لأمر صعب . .

وإنها لمشكلة العمر كله أن أتخيل نفسى ذلك الإغريقى الذى تفنن الآلهة فى تعذيبه . . ذلك المسكين الذى لا أنساه ليلا أو نهارا : تنتالوس. لقد حكموا عليه بأن يظل عطشان إلى الأبد، جائعا إلى الأبد . . خائفا إلى الأبد، وضعوه فى بحيرة ماء عذب تحت أشعة الشمس . . فإذا أراد أن يشرب ارتفع الماء حتى شفتيه، فإذا انحنى ليرتشف منه شيئا انحسر الماء تحت قدميه . . وإلى الأبد. وإذا جاع أتت الآلهة بشجرة تفاح وراحت أغصانها تقترب من شفتيه، فإذا حاول أن يقضمها ابتعد التفاح . . وإلى الأبد. وإذا أراد أن ينام حملته الآلهة إلى أحد الكهوف وفجأة يسقط حجر ضخم ويتوقف عند شعر رأسه . . وإلى الأبد! وإذا حاول أن يصرخ ويستغيث انهالت عليه الأحجار والأشجار وأغرقته فى الماء، حتى يسكت!

شيء من ذلك أيها العزيز تنتالوس، ولكن بلا ألم ولا خوف ولا جوع ولا عطش . . ولكن فقط أحسست أننى فى ضوء غامر، وفى راحة ساحرة، وفى صفاء أمين . .

ولولا أنه من الضرورى أن أقول، لطويت نفسى على راحتى ورضاى، واستمتعت بهذه النعمة السابغة وحمدت الله على القليل الذى أعطانى ـ وليست راحة النفس شيئا قليلا!

ولا أعرف ما الذى طلبته من الله بالضبط. إننى توجهت إليه بغير كلام، ولكنى لم أنس أن أردد شكوى الرسول حين قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ـ صدق رسول الله.

ولم أنس أن أكرر كثيرا ما كان يقوله الرسول أيضا : اللهم لا تجعلنى قليلا عليلا ذليلا ـ أن أكون بك كثيرا سليما كريما.

إننى أعذر هؤلاء المساكين رواد الفضاء الذين هبطوا لأول مرة على القمر. إن أناسا أعقل منهم عرفوا روعة التجربة المثيرة سوف تجعلهم عاجزين عن التعبير، ولذلك علموهم أن يقولوا هذه العبارة البليغة : هذه خطوة صغيرة لإنسان ولكنها كبيرة للإنسانية!

فاللهم اجعلها خطوة كبيرة أيضا لغيرى من الناس الذين هم نيام فى حياتهم، فإذا ماتوا انتبهوا - أو قبل الموت بقليل!

* * *

وأنا لا أعرض للديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام، وإنما لديانات أخرى صغيرة جاءت من قبلها ومن بعدها ويؤمن بها كثيرون جدا . .

ثم إنها لا تخلو من المعانى الكبيرة التى تقوم عليها الديانات الثلاث!

الخالدون مائة أعظمهم
محمـــد رســـول اللـــه (*)

فى ٦٠٠ صفحة صدر كتاب بعنوان «المائة: تقويم لأعظم الناس أثرا فى التاريخ» المؤلف هو عالم فلكى رياضى، يعمل فى هيئة الفضاء الأمريكية. أما متعته الأولى فهى دراسة التاريخ . .

وقد لاحظ أن من بين عشرات الألوف من ملايين الناس لم تذكر دوائر المعارف كلها سوى عشرين ألف شخص؛ كان لهم أثر فى بلادهم، وفى البلاد الأخرى، وفى التاريخ الإنسانى.

والمؤلف اسمه مايكل هارت.

وبعد أن فرغ من إصدار هذا الكتاب تلقى اقتراحات من العلماء والأدباء ورجال الدين بإضافة أسماء أخرى، ولكن المؤلف عنده مقاييس ثابتة لاختيار الشخصيات المائة واستبعاد مئات غيرها . .

يقول: إنه حدث عندما كان الفيلسوف الفرنسى فولتير فى بريطانيا أن اشترك فى مناقشة موضوعها: من هو الأعظم: الإمبراطور الرومانى يوليوس قيصر أو القائد الإغريقى الإسكندر الأكبر أو القائد المغولى تيمور لنك أو الزعيم البريطانى كرومويل؟ . .

وكان الرد على هذا السؤال أن قال أحد المتناقشين: بل أعظم الجميع: العالم الرياضى البريطانى إسحاق نيوتن.

(*) مقدمة كتابى: «الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله».

وكان رد فولتير : فعلا نيوتن أعظم . . لأنه يحكم عقولنا بالمنطق والصدق، وهؤلاء يستعبدون عقولنا بالعنف، ولذلك فهو يستحق عظيم الاحترام.

ولكن المؤلف أقام اختياره لشخصياته الخالدة على عدة أسس، من بينها أن الشخصية يجب أن تكون حقيقية، فهناك شخصيات شهيرة وبعيدة الأثر، ولا أحد يعرف إن كانت قد عاشت أو لم تعش . . مثل الحكيم الصينى لاوتسو . . لا أحد يعرف هل هو إنسان أو أسطورة، والشاعر الإغريقى هوميروس . . لا أحد يعرف إن كان حقيقة، والشاعر الإغريقى أيسوب صاحب الأمثال والحكم . . هو أيضا لا نعرف إن كان قد عاش حقا.

ولذلك استبعد مثل هذه الأسماء . .

واستبعد أيضا عددا كبيرا من المجهولين . . مثل أول من اخترع النار، وأول من اخترع العجلات، وأول من اخترع الكتابة. لابد أن يكون شخصا عبقريا، ولكننا لا نعرفه . . ولا نعرف أيضا إن كان واحدا أو كثيرين.

كما أنه أقام أساس الاختيار على أن يكون الشخص عميق الأثر، سواء كان هذا الأثر طيبا أو خبيثا، ولذلك كان لابد أن يختار هتلر . . لأنه كان عبقرية شريرة.

ولابد أن يكون للشخص أثر عالمى، إذ لا يكفى أن يكون له أثر إقليمى . . ولذلك استبعد كل الزعامات السياسية والدينية، والمواهب العلمية التى لها أثر «محلى» فقط.

واستبعد المؤلف كل الأشخاص الأحياء، أيا كانت آثارهم البالغة . . فإن أحدا لا يعرف بعد، كم تعيش أفكارهم وتؤثر على بلادهم أو على الإنسانية . . فالمستقبل غيب . .

وفى الوقت نفسه من الممكن أن يختار أناسا ما يزال لهم مستقبل عظيم، فمن المؤكد أن البشرية سوف تعتمد على الكهرباء خمسة قرون أخرى على الأقل، ولذلك كان لابد أن يضع فى هذه القائمة اثنين من العلماء هما فراداى وماكسويل.

ومن الممكن أن يتلازم اثنان من العلماء، أو من الفلاسفة دون تفريق بينهما . . مثل كارل ماركس وصديقه فريدريش أنجلز، فكلاهما له أثر عظيم على التاريخ الإنسانى.

وكذلك الأخوان رايت اللذان اخترعا الطائرة .

المهم هو أن يكون للشخصية أثر «شخصى» عميق متجدد على شعبها وعلى تاريخ الإنسانية ، ولذلك فقد اختار محمدا ﷺ أول هذه القائمة ، وعنده لذلك أسباب مقنعة .

* * *

ولا أدعى أننى أضفت شيئا إلى هذا الكتاب ، وإنما حذفت بعض العبارات وبعض المصطلحات العلمية الصعبة ، دون إخلال بما أراده المؤلف . .

فهذا كتاب «عن» كتاب ، أو «من» كتاب لم أرفع عينى عنه . . وإن كنت لم ألتزم بحرفية كل ما جاء فيه . .

ثم إننى انتهزت فرصة نشر هذا الكتاب مسلسلا فى مجلة «أكتوبر» لإجراء مسابقة بين القراء على ما جاء فيه ، وجعلت المكافأة : عشرات الكتب . أى أننا جعلنا الجزاء من جنس العمل ، فالكتاب هو موضوع المسابقة ، والمكافأة هى مزيد من الكتب .

وليس هذا الكتاب إلا واحدا من عشرات الكتب التى صدرت أخيرا فى العالم الغربى المسيحى عن عظمة الإسلام والمسلمين . .

صحيح أن المؤلف الأمريكى لم يقلب طويلا فى التاريخ الإسلامى أو الفكر العربى ، وإلا لوجد عطاءً فى كل فروع المعرفة ، ففضل العرب والمسلمين على الحضارة الغربية ، معروف له ولغيره من العلماء الجادين المخلصين ، ومن المؤكد أن الرجل مخلص وصادق فى حكه على الكثيرين من عظماء التاريخ . .

وكان المؤلف يستحق الكثير من حفاوة الدول الإسلامية ، ولكنه لم يلق امتنانا من أحد . . فقط أن تقرأ له كتابه هذا وتشير إليه وتدعو الناس إلى قراءته والإعجاب به .

وذلك امتنان أخرس، لأن صاحب الفضل لم يسمع به، وتلك عقوبة لا يستحقها المؤلفون الكبار، ولكنهم قد اعتادوا على ذلك . . فأعمالهم متعة شخصية، أما رأى الناس فهو شراء لهذه الأعمال دون أن يدرى بهم المؤلفون . .

وسوف تكون مفاجأة للمؤلف أن أبعث إليه بنسخة من هذا الكتاب، وبذلك تكون المفاجأة الثانية . . أما الأولى فهى عندما أرسلت له خطابا أبدى إعجابى بعلمه وخلقه، وأستأذنه فى نشر ما أستطيع من هذا الكتاب .

لا حرب فى أكتوبر ولا سلام (*)

من كل الديانات التى آمن بهـا الناس، لا تزال الحرب أعنفها، ولكنهـا أكثرها استعدادا لأن تتفكك وأن تضعف وتخمد . .

وقـد عـرفنا فى الشـرق الأوسط كل أنواع الحـروب، ووقف إطلاق النار، والحروب الباردة، والتربص والحقد والمرارة . . والرغبة فى استئناف كل الشرور المنظمة من جديد . .

وبعـد ألوان وأشكال وأحـجام من الحروب بين العـرب وإسـرائيل دفـاعـا عن الشعب الفلسطينى فى وجوده كريما على أرضه، وبعد الهزائم المريرة والانتصارات الخاطفة . . ثم الانتصار الرفيع فى حرب أكتوبر، والانسحاب من الأرض العربية فى سيناء، تمهيدا لانسحاب إسرائيل من بقية الأرض المحتلة ـ كـان لابد أن نفكر وندبر من أجل السـلام الشـامل والحيـاة الإنسـانيـة المتـحـضـرة فى حـدودنا الآمنة المضمونة دولية . . ولكن كـما هى عادتنا نحن العرب اختلفنا : إنها حرب جديدة بين أنفسنا وفى معسكراتنا وبين قلوبنا وعـقـولنا . . بين الأشـقـاء . . وبدلا من أن نشير إلى ناحية واحدة ونقول : العدو الغاصب . . أشرنا بكل أصابعنا إلى أنفسنا وإلى صـورنا فى المرآة وإلى ظلالنا على أرضنا وقلنا : العـدو . . الأعـداء . . والأخوة الخونة . . العملاء . .

وهكذا اتسعت ساحة الحرب وضاقت مساحة السلام . . فأصبحنا من خوف الحرب فى حرب . . ومن سوء الظن بالسلام فى حرب . . وكان أملنا، يوم قالها

(*) مقدمة كتابى «لا حرب فى أكتوبر ولا سلام» .

الرئيس السادات : لا حرب بعد اليوم، أى أن تكون حرب أكتوبر آخر الحروب، وأن تكون بداية السلام الدائم . . إنه أمل عظيم . . ونحن أبناء الديانات السماوية العظمى أى أبناء وأحفاد الأمل والخير والسلام على الأرض بين الناس وبين الإنسان ونفسه وبين العقل والقلب، السلام على هذه الأرض، والسلام فى جنات تجرى من تحتها الأنهار . .

ولكن كما هى عاداتنا نحن العرب لا أمل كبير فى السلام، ولا خوف صغير من الحرب . .

وهكذا كما ترى فى حالة سلام تشبه الحرب، وفى حالة حرب كأنها وقف إطلاق النار . .

لقد دربنا الحمام أن يكون صقورا، ودربنا الصقور أن يكون لها رجع الحمام. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

مذكرات شاب غاضب (*)

. . كنت أحاور نفسى طويلا وكثيرا وعميقا :

ـ ثابت الخطوة يمشى ملكا ـ أم كلثوم تقول .

ـ ثابت الخطوة ، ولست ملكا !

* * *

ـ من رضى بقليله عاش .

ـ فإذا لم يرض ؟ !

* * *

ـ الجار قبل الدار .

وأين هى الدار ؟

* * *

ـ النبى أوصى بسابع جار .

ـ كثيرون لا يسمعون كلام النبى !

* * *

ـ السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . .

ـ ولكن الأرض والعرض يفعلان !

* * *

(*) مقدمة كتابى : «مذكرات شاب غاضب» .

- السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . .

- ولكن السماء نسيتنا منذ وقت طويل!

* * *

- اللى يمشى عدل يحتار عدوه فيه، واللى يمشى عوج يحتار حبيبه فيه . .

- ولكن لم نعد نعرف الفرق بين العدو والحبيب؟!

* * *

- من صبر ظفر . .

- ظفر بماذا؟!

* * *

- الصبر مفتاح الفرج . .

- ولكن ما حدود الصبر؟ وما حجم هذا المفتاح؟!

* * *

- كل الطرق تؤدى إلى روما .

- صحيح، ولكن لا طريق يؤدى إلى المستقبل!

* * *

- الشباب نصف الحاضر وكل المستقبل . .

- . . ولكن أى نصف؟!

* * *

- إكرام الميت دفنه . .

- وبعض الأحياء أيضا!

* * *

الزواج للبنت «سترة» . .

ـ فإذا كانت السترة فى حجم ورقة التوت ، فما معنى الزواج؟!

* * *

ـ الجنة تحت أقدام الأمهات . .

ـ مساكين أبناء المستقبل ، فأمهاتهم بلا أقدام!

* * *

ـ أناس يجب أن يقال لهم : من أين لكم هذا؟

ـ وأناس يقال لهم : كثير عليكم هذا!

ـ وأناس يقال لهم : قليل عليكم هذا . .

ـ وأناس لا يقال لهم كثير أو قليل عليكم هذا . . فلا يصح أن يكون لكم وجود!

* * *

ـ أنا غاضب إذن أنا موجود .

ـ أنا موجود . فلماذا الغضب؟

* * *

ـ هل يكفى أن تكون موجودا على أية صورة؟

ـ نعم . يكفى أن أشعر بوجودى لكى أشعر بوجود الآخرين . . فأغضب على الذين يجدون ولا يريدون ، وعلى الذين يريدون ولا يجدون .

ـ هذا هو الغضب السعيد؟

ـ إنه الغضب من أجل أن أكون سعيدا . .

ـ إذن أنت تجد السعادة فى الغضب؟

ـ بل السعادة بعد أن يتحقق الغرض من الغضب . .

ـ غضب مؤقت؟

ـ كل شيء مؤقت.

ـ حتى هذه العبارة؟

ـ حتى هذا الحوار..

ـ وما الفائدة؟

ـ يسأل عن الفائدة من لا يعرف أن يفعل أكثر من التلاعب بالحوار.

ـ أنت متطرف. لماذا؟

ـ وأنت لست متطرفا. لماذا؟

ـ أنت تريد أن يصبح عاليها واطيها!

ـ بل أن يصبح واطيها عاليها!

ـ أنت تركب الموجة؟

ـ الموجة كالبغال والحمير لتركبوها وزينة!

وككل يوم أفسخ باب الغرفة.. فأنا لا أفتحه.. إنه يتمسك بعضه ببعض كأنه لا يريد أن ينفتح.. كأنه هو الآخر لا يريد لى أن أخرج. وإنما أبقى وراءه.. وراء هذه المقبرة.. لكي أشعر كل يوم بمعجزة الميلاد.. ففي كل ليلة أصلى على نفسى، فقد أموت غدا أو قبل طلوع الفجر.. فإذا صحوتُ شكرت الله أن أطال في عمرى يوما آخر..

وأمام الباب، وبالضبط عند انفتاحه تنهال على حواسى الخمس فيضانات من الإحساسات.. إنها لا تدخل حواسي وإنما تغتصبها.. تقتحمها بالقوة.. كأن حواسى مثل هذا الباب.. لابد من فسخها عند الدخول وعند الخروج أيضا.. وكأن فضيحة.. وكأن عارا كونيا يبدأ من هذه اللحظة.. وكل عناصر الدنيا تتعاون على ستر هذه الفضيحة.. فضيحة أن واحدا مثلى شاهد على العصر الذى نريده ولا يريدنا!

ولماذا الفلسفة؟.. فهذه الفلسفة التى فى رأسى لم تعد قادرة على أن تقدم لى كوبا من الشاى ولا رغيفا ولا نعلا لحذائى ولا كلمة حلوة أقولها لفتاة صادقا: إننى أتمنى أن أتزوجك ولكن كيف؟

مثلا : الحديد يتمدد بالحرارة . أعرف ذلك ولكن ما الفائدة؟ أعرف فى الليل أننى أنكمش من البرودة، وأتمنى لو أكون قادرا على التمدد، ولكن أين هى الحرارة؟ . .

أعرف أن الخط المستقيم هو أقرب وأسرع طريق بين نقطتين . . أى أنه أقصر من الخط الملتوى هذا صحيح فى الهندسة . . ولكن فى الحياة فإن الخط الأعوج هو الذى يصل أسرع ويملأ جيبك أكثر . .

وأعرف أن من «جد وجد» أى أن لكل مجتهد نصيبا . صح، ولكن ما حجم هذا النصيب . . فأنا أذاكر وأتعب . . ولكن الذى يأخذ الدروس الخصوصية يحصل على درجات أكبر . . أما الذى يغش فدرجاته أكبر وأكبر، وسوف يسبقنى إلى الشقة الجميلة والعربة الأنيقة . . إذن : من جد وجد قليلا، ومن غش وجد كثيرا!

ثم هذا الشارع الذى أمامى قد امتلأ بالناس والأصوات والروائح . . والوجوه مثل الأرض كالحة شاحبة حزينة . . لقد اعتادوا كل يوم أن تصفعهم الظروف وتركلهم القيم القديمة، ويدوسهم أصحاب السيارات الصاخبون اللامعون المدخنون والحشاشون الراشون المرتشون . .

وسمعت صوت المؤذن ينادى للصلاة . . ولكننى لست متوضئا، ولا أعرف إذا دخلت وصليت ما الذى أطلبه من الله؟ . . أطلب منه ماذا؟ إنه يعرف . . وموعدى يوم القيامة . . ولكن ما الذى أفعله إذا كنت أريد أن أعيش فى الدنيا؟ . . وأنه لا صبر لى على انتظار الفرج بعد الموت . . فأنا بشر . . وأفكارى تصدر عن جسمى، وجسمى له مطالب، وهذه المطالب تصرخ كل يوم وأنشغل عنها . . وأتصنع النوم . . وأصحو وأملأ أذنى بفلسفات كثيرة . .

وبمنتهى الصراحة أنا أعلنت لنفسى : أن فلسفتى قد أفلست . . فالذى أحشر به دماغى هو : فقر الفلسفة!

أريد الفلسفة أن تحملنى، أن تنقلنى، أن تأخذ بيدى، ولكنها بلا أطراف. أريدها أن تطعمنى ولكنها جافة. أريدها أن تملأنى ولكنها فارغة . . أريدها أن تحيينى ولكنها ميتة . .

إذن . . أبدأ فى طريقى إلى الجامعة فأمشى على قدمى . . حتى المشى فى الشوارع لا أستطيعه . . الحفر والنقر . . والماء يدخل فى حذائى . . ورائحة الشواء والقهوة والشاى فى كل مكان . . ونقرأ أن هذا هو التلوث . . إنه التلوث لمن أكل وشبع ؛ لمن يريد هواء نقيا ، ولا يريد الهواء النقى إلا الذى نام دافئا ، وشرب وارتوى ، وأكل وشبع ، وجلس واستراح فى مقعده فى سيارة . . ولما فتح النافذة ضايقته هذه الروائح . .

والناس على محطات الأتوبيس عندهم أمل . . وعندهم فلوس فى جيوبهم تعطيهم الحق فى الأمل . . إذن لابد أن أواصل السير . .

ولا أعرف كل يوم كيف ينتهى الطريق؟ . . هل هو الذى يقصر فجأة؟ . . هل قوة خفية تنقلنى بسرعة من القلعة إلى شارع محمد على إلى العتبة إلى شارع عدلى إلى ميدان التحرير . . إلى هيلتون عن يمينى وشبرد عن يسارى؟ . . كيف بهذه السرعة؟ . . إلى الكوبرى الذى يجتاحه الهواء من الجانبين . . هل انسحب الشارع من تحت قدمى؟ . . آه لو انسحبت الهموم من فوق دماغى . .

آه لو كانت الكلاكسات حولى مثل ناى الساحر الهندى، لا تكاد تسمعه الأفاعى فى قلبى حتى تخرج إلى غير عودة . . أو تخرج روحى ، فقد تعذبت كل يوم برؤية هذه الفضيحة الكونية : أن يولد واحد مثلى حساسا ويتعلم ويتعذب ولا أمل له . . ويتعذب كل يوم دون أن تخف حدة الألم أو وطأة اليأس . .

ما علينا . . ثم هذه البيوت العالية جدا . . لابد أن يسكنها أناس مثلى . . جاءوا من الأرض . . من الريف . . وليسوا من سكان الكواكب الأخرى . . والنوافذ لامعة . . والأضواء حالمة . . حتى أشباحهم بيضاء . . وهم لا يمشون إلى بيوتهم ، إنهم يركبون . . ولا يمشون إلى شققهم ، إنهم يصعدون . . ولا يشمون روائح المطاعم الملوثة ، عندهم مطاعم . .

وهم ينسون كيف كانوا مثلنا . . ويضايقهم أن يذكرهم أحد بذلك . . ويسعدهم أن يرددوا ألف مرة كل يوم كلمة «المستقبل» . . شباب المستقبل . . الذين هم ٥٠٪ من اليوم و ١٠٠٪ غدا . . أى أنهم سوف يجدون تعويضا غدا . .

من الذى قال ذلك؟ وكيف؟ ولماذا نصدقه . .

أنا مثلا . . أنا نصف الحاضر؟ صح . . أنا أمشى فى الشارع والنصف الثانى فى السيارات . . أنا أسكن تابوتا، والنصف الثانى يسكن بيوتا، أنا أتفرج وأتنصت على الآخرين، والنصف الثانى لا يفعل ذلك . .

شعور غريب يتجدد كل يوم عندما أرى قبة الجامعة . . ما هذا الشعور؟ إنه شعور السفينة اقتربت من الميناء بعد بحر عاصف . . إنه الشعور بوطن يتساوى فيه كل الناس أمام العلم . . فكلنا صغار . . ولكن بعضنا صغار جدا . . إحساسنا بأننا متساوون . . أننا متقاربون . . مثلا أستطيع أن أسند ظهرى إلى أية سيارة واقفة . . دون أن يتهمنى أحد بأننى سوف أسرق الطاسات . . ودون أن يقول لى: ابعد أنت يا . .

أستطيع أن أهرش ظهرى فى أية سيارة . . ويشعر صاحبها بالسعادة بأننى أمسحها بملابسى . . أستطيع أن أدخل المكتبة العامة وأجلس وأريح قدمى وساقى وظهرى . . أهم ما يميز المكان: أنه دافئ واسع مضىء . . وأن له أبوابا مفتوحة . . وأن نوافذه فى حجم الأبواب . . وأن كل شىء يدخل بإذن . . الهواء يستأذن . . والضوء بالطلب . . والدفء على كيفك . .

ولا شىء يعذبنى إلا عندما يجب أن نعود إلى بيوتنا . . أنا قلت بيوتنا؟ أن نعود إلى اللحد، وهم إلى المهد . . نحن نموت كل ليلة، وهم يولدون كل يوم . . نحن نغتصب الحياة، وهو يفوزون بها . .

وبعد؟ هل أقتل؟ حرام!

هل أقتل نفسى؟ حرام!

هل نصفنا يقتل نصفنا الآخر؟ كيف؟!

بعد أن آمنت بفقر الفلسفة، لابد أن أمارس فلسفة الفقر . .

أى لابد أن أعرف ما هذا الذى حدث لى ولغيرى.

نحن فقراء لا شك، ولن نسكت على ما نحن عليه، هذا مؤكد. ولكن وحدى لا أستطيع. صح، وبالآخرين ومعهم يجب أن نستطيع. فنحن ولدنا فقراء، ولكن الفقر ليس مثل لون البشرة، ثابت لا يتغير تماما، فكل هؤلاء الأغنياء كانوا مثلنا، ولكن شيئا ما حدث قد جعلهم هناك، وأبقانا هنا. صح، فما هذا الشيء؟

من السهل أن أسرق، ومن السهل أن أدخل السجن، من السهل أن أقتل، وليس من السهل إعدامى. ولكن الحياة هى الهدف، والحياة الكريمة هى الأمل، والأسلوب هو العمل. وحدى؟ طبعا لا .. مع الآخرين؟ نعم. ولكن كيف إقناع الآخرين؟

هذه هى القضية ..

أول مبادئ فلسفة الفقر: الشعور معا بحالنا، وأن نرضى مؤقتا بما نحن فيه. حتى نصبح غير ما نحن فيه.

وثانى المبادئ: أن يكون عندنا إيمان لا يتزعزع بأن آمالنا مشروعة .. وأن تحقيقها هو إرادة الله، فالله عادل كريم .. إذن لابد أن تتحقق العدالة والكرامة .. والله خلق الإنسان ليكون إنسانا، لا حيوانا، وخلق الحيوان ليكون حيوانا، لا ليعيش كالإنسان كريما رفيعا، بينما الإنسان يلعق أقدام الكلاب!

ثالثا: أن نلتف حول كتاب واحد. الكتاب له جاذبية هائلة .. قوة ونور. إذا قربت منه فالراحة مطلقة، وإذا قلبت فيه فالنور غامر. إنه الكتاب الشامل الكامل. يجب أن نراه كذلك، فقد جربنا تعدد الكتب واختلاف الاجتهادات .. وضاع الناس بين الأئمة والمجتهدين.

إن الكتاب الواحد الذى نقدسه هو الذى يجعلنا نرى وجوهنا فى وجوه الآخرين .. وإذا جلسنا لم نحتج إلى أن نتكلم، فنحن نعرف كل ما فى رءوسنا .. وإذا خرجت أيدينا، خرجت معا، دون أن نتفق على شىء، فإن أيدينا تعرف الهدف ..

هل تعرف أن كل العازفين فى الفرقة الموسيقية أمامهم نوتة موسيقية واحدة .. فإذا جاء المايسترو ورفع عصاه فى الهواء، فإنهم يعزفون، على آلات مختلفة، لحنا

واحدا . . وإذا نظرت إلى وجوه العازفين وجدتهم من كل لون وجنس وعمر وطول وعرض . . وكل هذه الصفات الظاهرية لا تهم . . الذى يهم هو النوتة التى تدربوا عليها وحفظوها استعدادا لهذا اليوم .

رابعا : هذا المايسترو . . ليس إلا صورة من شخصية أعظم . . إنه صورة تذكارية . . إنه نائب عن المايسترو الغائب . . الذى جاء بالنوتة الموسيقية ثم أمتعنا بها . . وأسعدنا بها . . ورأينا فيها وفيه خلاصنا مما نحن فيه . . إن النوتة الموسيقية ليست ورقة . . إنها طوق نجاة . . إنها طاقة قدر . . إنها مظلة واقية . . إنها : افتح يا سمسم . . وبعدها جنة المكدودين والتعساء واليائسين . . إنها وثيقة التأمين التى تصرف لنا بعد الموت . . إنها صك الغفران والرحمة . .

لقد جربنا وتعذبنا من تعدد المايسترات ، من التغييرات التى طرأت على «القبلة» التى نتجه إليها عند الصلاة . . كل يوم إمام ، وكل إمام له شيوخ ، وكل شيخ له طريقة ، وكل طريقة لها أناس ، وكل أناس لهم قبلة . . وكل إمام يفرض عددا من الدعوات . . وتحيرت أجسام الناس أين يوجهونها ، واقتربت السموات . . وبعدت . . وانحفرت الأرض كهوفا وقبورا . . وجرفنا شعور عنيف بأننا ولدنا لنموت . هذا صحيح . . ولكن لنموت بعد أن نعيش . . ولكن المايسترات أكدوا لنا أن عزف النوتة الموسيقية ليس إلا تسلية قبل الموت . . ليس إلا لحنا جنائزيا يعزفه نصفنا أمام نصفنا الآخر . . فنحن فى جنازات دائمة . .

لابد من الموسيقار الواحد والمايسترو الواحد والنوتة الواحدة . .

هذا هو المضمون السريع لفلسفة الفقر . .

ولابد أن أضيف ، إذا اتسع وقتى ، مبدأ مهما جدا ، ولماذا لا يتسع الوقت الآن؟ . . هناك دائما وقت ؛ من المؤكد ذلك ، فالوقت نحن الذى نجعله قصيرا وطويلا ، سريعا وبطيئا . كما أننا أحرار فى أن نغضب ونسخط فى أى وقت ، وعلى النحو الذى نريد ، فكذلك فى استطاعتى أن أجعل الوقت خادمى أو سيدى . . أنا قاتله أو هو قاتلى . . الآن وهنا سوف أكتب ما تبقى من فلسفة الفقر . .

ـ ياالله . . يا أستاذة . . من هنا يا أستاذة . . عاوزين نمشى . .

إنهم السعاة فى مكتبة الجامعة . حان وقت العودة . . ولا مناقشة ، لقد توقف الزمن لا هو قادر على أن يطول أو يقصر . . مات الزمن فى يدى . . نظرت إلى السقف فوجدت حبلا مكتوبة عليه الأرقام . . إنه الزمن وآمالى مشنوقة فيه . . وفى لحظة واحدة حكم السعاة ونفذوا الحكم ، وحتى تكتمل أطراف هذه الجريمة أطفئت الأنوار حتى لا نرى تفاصيل الإعدام والدفن بعد ذلك . .

وأحسست أن المكتبة هى الأخرى مقبرة . . وأن هناك حانوتية وسفاحين فى كل مكان . ولكنهم قتلوا رغبة ، ولم يقتلوا أملا ، شنقوا لحظة ، ولم يعدموا الزمن . .

ونهضت . . والكلام فى أصابعى ، ووقفت وراء أحد الدواليب ووضعت الورق أمامى ورحت أكتب وقد أظلمت القاعة تماما :

ـ بدلا من أن تلعن الظلام أشعل شمعة . .

ـ بل إننى ألعن الشمعة إذا كانت واحدة!

وأغلقت الأبواب والنوافذ والأضواء . . كل شىء أصبح سجينا . . الهواء والكتب . . والهواء كأنه ستائر ثقيلة ، والكتب أصبحت أكواما من الورق . . قوالب ورق . . والأفكار سجينة فيها . . ولكن أنا السجين الوحيد الذى يعرف هذه الحقيقة . . والذى يشعر بأن شمعة واحدة لا تكفى لأن أرى حدود السجن وأبوابه ونوافذه . . وأنه لابد أن أفض طلاسم هذه الكتب وأن أستوحى معنى واحدة من الصورة :

أحد الصحابة . . ماركس . . خومينى . . بوذا . . لابد من شموع . . شموس . . ولابد أن تنفتح فى السقف طاقة . . أو فى الجدران . . ولابد أن يكون صوت يدوى . . يخطف العقول والقلوب . . ويكون الخطف منظما موسيقيا موحدا . .

مذكرات شابة غاضبة (*)

فى العام الماضى نشرت «مذكرات . . شاب غاضب» شاب وله مشاكل . . غاضب على شبابه وعلى الناس حوله . . وعلى هذه الفترة من القرن العشرين الذى تحول فيه كل شىء إلى رأى وقنبلة . . إلى نظرية ومدفع . . إلى المصاحف على أسنة السيوف . ولما رأى الذى بينه وبين أهله وبين الناس صرخ بأعلى الصوت : يا ناس!

وكان لابد أن نسمع وأن نقول له : يا نعم!

ونجلس معه نتحاور ونتفاهم .

* * *

والآن جاء دور «الشابة الغاضبة» أن تقول رأيها فى نفسها ، وفى الرجل : أخيها وأبيها ورئيسها . . فى الرجل الذى قد وضع القانون والرجل الذى يعتدى على القانون ، والذى جعل لكل شىء ميزانين ومكيالين : واحدا للرجل وواحدا للمرأة . . وليس صحيحا أن المرأة أخذت أكثر مما تستحق ـ هو الذى يقول . .

فأين الحقيقة؟

* * *

عند الإغريق أن «الحقيقة» جاءت إلى الناس عريانة . .

فاستداروا ؛ لا يحبون أن يروا هذا «العيب» .

(*) مقدمة كتابى : «مذكرات شابة غاضبة» .

فعادت إليهم «الحقيقة» وقد تغطت . . فأقبلوا عليها . . وكان معنى ذلك أنهم لا يحبون الحقيقة . . ولا يحبون الصراحة . وتعلمت المرأة أن الرجل يفضل «ورقة التوت» فتغطت . . ثم قام الرجل بتطوير أوراق التوت . . فجعلها أكبر وأكثر . . وجعلها شفافة وكأنها هناك وليست هناك .

* * *

وعند الإغريق أيضا أنهم فى إحدى حفلاتهم أتوا بشاب جميل وغطوا جسمه كله بالذهب . . فمات! فلم يكونوا يعرفون خطورة سد المسام فى جسم الإنسان . . فالسموم التى لم تخرج من الجسم مع قطرات العرق وقد ارتدت إلى الجسم تقتل صاحبه . فلا ورقة توت واحدة ولا ثوب كله من الذهب، وإنما أوراق توت ذهبية بمساحات مختلفة وفى أماكن مختلفة ـ أى بعض الحقيقة اللامعة .

والخلاف بين الرجل والمرأة مستمر . .

هو يريد أن يعرف وهى تريد أن تقول . .

وهو يكره الصراحة إلا قليلا . . وهى تكره الاعتراف إلا قليلا . .

والحديث الشريف يقول : ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما . .

ويمكن أن يقال : ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان أحدهما .

فالمرأة ترى الرجل إبليس . .

والرجل يراها شيطانا . .

فليكن! فلا بديل عن المرأة ولا بديل عن الرجل .

* * *

والمشكلة إغريقية أيضا، فعند خلق العالم اجتمعت الآلهة فوضعوا الذكر والأنثى فى جسم واحد . . ثم قسموه إلى نصفين، ولخبطوا هذين النصفين ملايين الأنصاف . . ليظل الإنسان طوال عمره يبحث عن نصفه الآخر . . أو يتوهم أنه وجده . . ليكتشف بعد ذلك أنه لم يجد نصفه الآخر . . وإنما يحاول أن يدارى العيوب حتى يفلح فى «توليف» نصفه الذى يحلم به .

* * *

وقالوا: الرجل لعبته المرأة!

وقالوا: والمرأة لعبتها الشيطان!

أى أن الرجل يلعب بالمرأة التى تلعب بالشيطان فى داخلها وفى داخل الرجل.

ولكن العلم والفهم والحيلة أقوى من الشيطان.

والقرآن الكريم يحدثنا عن ذلك. فعندما جاء الهدهد إلى الملك سليمان ينقل إليه كيف وجد عرش بلقيس ملكة سبأ، أراد الملك أن يحضروا له هذا العرش فورا ليراه.

﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾.

أى بعد ساعة أو ساعتين.

﴿وقال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾.

أى بعد ثانية أو أقل من ذلك!

وكان ذلك دليلا على أن صاحب العلم أقوى من العفريت! فالعلم قوة أعظم من أية قدرة شيطانية!

* * *

وفى الليلة الخامسة عشرة من «ألف ليلة وليلة» نرى تفسيرا لذلك.

فالعفريت جاء إلى بنت السلطان وهدد أن يقتلها، وانقلب أمامها أسدا فنزعت شعرة من رأس العفريت وجعلت الشعرة سيفا ضربت رأسه فانقسم نصفين.

نصف رأسه تحول إلى عقرب..

فتحولت هى إلى حية.. ودارت معركة بينهما.

وتحول العقرب إلى قط أسود.

وتحولت الحية إلى ذئب.

ثم تحول القط إلى رمانة كبيرة ووقعت فى بركة ماء ثم سقطت على الأرض أمام الذئب وتناثرت حباتها.

وتحول الذئب إلى ديك يلتقط هذه الحبات.

فقفزت حبة فى الماء وبسرعة تحول الديك حوتا يطارد حبة الرمان.

وخرجت حبة الرمان من الماء على هيئة كتلة من النار والدخان . . وتحول الحوت إلى عاصفة من اللهب تطفئ نار العفريت فإذا هو كوم من التراب - وانتصرت المرأة بذكائها على العفريت!

* * *

ولكن الذى بين المرأة والرجل ليس فيه نصر أو هزيمة . . غالب ومغلوب . . وإنما هو «توافق» مستمر بينهما، أو محاولة لذلك. وهذا التوافق والتوفيق والتلفيق ليس قبل أن يسمع الرجل رأى المرأة. ورأيها مثل رأيه هو فيها: لن يسره - فإن لم تكن هذه هى الحقيقة فبعضها!

هى وعشاقها
عالم فريدريش ديرنمات وفنه (*)

« . . . إننى أكتب دائما للذين إذا استمعوا إلى محاضرات فى الفلسفة أغرقوا فى النوم . . . إننى أكتب فقط إلى الذين يشاركوننى فى أنه من الممكن إنقاذ الإنسان من أنياب الإنسان» .

ديرنمات

إذا كان يهمك أن تعرف شيئا موجزا جدا عن هذا الرجل العظيم الذى سأحدثك عنه فهو: فريدريش ديرنمات، عمره ٤٣ سنة، أبوه قسيس وزوجته ممثلة، وعنده ثلاثة أولاد، وصدر له عشرون كتابا: شعر ونقد ومسرحيات.

وإذا كنت تريد أن تعرف معلومات أكثر وسريعة أيضا فهو: واحد من اثنين من كبار أدباء سويسرا، الأديب الآخر اسمه: ماكس فريش وعمره ٥٣ سنة، والاثنان يكتبان باللغة الألمانية وهما من أعظم الأدباء الألمان بعد الحرب العالمية الثانية.

وعلى الرغم من أنهما يعيشان فى سويسرا طوال الوقت، فإنهما يعتبران فى القارة الأوروبية من الأدباء الألمان.

ويمتاز ديرنمات بأنه متعدد المواهب، فهو يكتب الشعر والنقد ويؤلف المسرحية أيضا، أما ماكس فريش فله قصص وله مسرحيات، ولكنه لم ينظم الشعر وليست له دراسات نقدية.

وقد ترجم الدكتور عبد الرحمن بدوى مسرحية «علماء الطبيعة» لديرنمات وظهرت على المسرح العالمى.

(*) مقدمة كتابى: «هى وعشاقها».

وترجم سعد توفيق مسرحيتين معا هما: «زيارة السيدة العجوز» و«زواج السيد مسيسبى» - وقد كتبت لكل منهما مقدمة.

وترجمت أنا أربع مسرحيات أيضا هى: رومولوس العظيم، وهبط الملاك فى بابل، والشهاب، ثم هى وعشاقها أو زواج السيد مسيسبى . . . وأترجم له أيضا مجموعة مقالات كتبها عن «النقد الأدبى ومشاكل المسرح الحديث».

وإذا كنت قد وصلت فى القراءة حتى هذا السطر، ولا تزال لديك رغبة فى أن تعرف أكثر عن هذا الأديب السويسرى ديرنمات فلن أصدم اهتمامك، ولن أعاقبك على استمرار القراءة، وإنما سأجعل الكلام بيننا وبين ديرنمات على شكل أسئلة أو حوار، ولن أضيف شيئا من عندى، وإنما سأنقل لك كل فلسفته فى الحياة وفى الفن مستعينا - طبعا - بما قرأته من الأعمال الفنية والنقدية لهذا الرجل العظيم، وبما قرأته عن حياته أيضا وبمقابلتى له أكثر من مرة . . .

أولا أقدم لك الرجل:

هو رجل متوسط القامة، كبير الرأس، خفيف الشعر، أميل إلى الصلع، يضع منظارا غليظا على عينيه، واسع الفم، ضحكته هامسة غليظة أغلظ من منظاره، وتصاحب هذه الضحكة اهتزازة فى كرشه، وهذا الكرش جاء نتيجة لساعات القراءة والكتابة الطويلة كل يوم . . . ولسبب آخر هو إصابته فى ساقه اليسرى على أثر سقوطه من جبل «مون بلان» وهو ينزلق منذ ١٧ عاما، أى منذ بدأ حياته الأدبية . . .

ومن عاداته الغريبة أنه لا يكتب بملابسه كاملة وإنما يكتفى بالبنطلون والقميص، ولا يكتب وهو يرتدى البيجاما، ولذلك يضع فى غرفة مكتبه قميصا وبنطلونا، ولم يتسع وقته لكى يفكر فى هذه العادة بعد، كما لم يتسع وقته ليفكر فى السبب الذى من أجله يحتفظ كل إنسان بغطاء القلم ملتصقا بالقلم أثناء الكتابة . . . أو لماذا يحتفظ المتزوجون بالدبلة أثناء الكتابة أيضا مع أنهم لا يطيقون أن تلتصق ذرة خبز بأسنانهم!

ولما كانت زوجته ممثلة، وقد اعتزلت التمثيل الآن، فإنه يعرض عليها أعماله المسرحية بعد أن يفرغ منها تماما، ويطلب إليها أن تكتب ملاحظاتها على ذلك، ويقول إنه استفاد كثيرا من خبرة زوجته كممثلة، واستفاد أيضا منها كنوع ممتاز حساس من الجمهور، وهذا يدل على أنه رجل مجامل !

ولا يشكو ديرنمات من أى مرض، على الرغم من أنه كان يخشى أن يرث بعض أمراض أبيه وأمه، ولا يعتمد كثيرا على الأدوية. وثروته متوسطة لا تزيد على عشرين ألفا من الجنيهات.

وهى متوسطة إذا قورنت بثروة أى أديب فى أمريكا أو فى فرنسا. وهو لا يريد أن ينافس شارلى شابلن فى عدد الأطفال، فإن شارلى شابلن وزوجته يتوليان تربية أطفالهما، أما هو فزوجته لا تستطيع أن تهتم بأكثر من ثلاثة أطفال. وهو شخصيا لا يستطيع أن يهتم بشيء آخر أكثر من عمله. والأولاد إنتاج مشترك، والعمل الفنى إنتاج شخصى، والفنان - أى فنان - شخصى جدا عندما ينتج !

انتهت كل معلوماتى عن الملامح الجسمية والاجتماعية للأديب ديرنمات، وهذا يكفى لمن يريد أن يعرف شيئا سريعا عن هذا الرجل، ولكن عيب هذه المعلومات أنها عادية، وأنها من الممكن أن نجدها عند ملايين الناس، الذين لهم عظمة ديرنمات، ولكن عظمة ديرنمات تجعل لهذه الصفات العادية قيمة غير عادية.

فهو رجل غير عادى، ولكن له صفات عادية.

وإذا كنت تريد أن تدخل فى أعماق فلسفة ديرنمات، فهذا الجزء من المقال قد خصصته لك. فنحن - أنا وأنت - قريبان جدا، يدك على كتفى ويدى أنا قد امتلأت بكل مسرحيات وكل قصص وقصائد ديرنمات، والذى عرفته من شهور وأحسست به وأنا أعيش مع هذا الرجل سأنقله لك فى دقائق، ولا تنس أننى حريص على أن أجعله واضحا، أى حريص على أن أتحدث على لسانه.

سؤال: ما هو هذا العالم الذى تعيش فيه؟ أين أنت منه؟ أين نحن منه؟

ويجيب ديرنمات: هذا العالم غريب، ونحن نشعر بأنه غريب عنا، ونحن نحاول أن نعقد صداقة معه، أن نعقد أية قرابة بيننا وبينه، ولكن يظل العالم غريبا.

ولأنه غريب، فهو مخيف. فالإنسان يخاف ما يجهله، ويخاف جدا ممن هو أقوى منه، ولكننا لا نملك شيئا لا يملكه هذا العالم، فنحن قادرون على التنظيم. فالعقل الإنسانى يرتب كل شىء فى متناوله ... يرتبه على شكل أرقام ... ١ و ٢ و٣ ... ويرتبه على درجات .. هذا عال جدا وهذا منخفض جد، هذا كبير وذلك صغير ... ولكن العالم الذى حولنا هو فوضى ... غير منظم ... ولكن العقل الإنسانى هو الذى ينظمه ويرتبه ويفسره ويضع له القواعد والنظريات ...

ومهمة الفنان أن ينظم العالم الفوضى، وأن يجعل لهذا الشىء الذى لا شكل له، شكلا وإطارا وقالبا ...

وهذه بالضبط هى مهمة الفنان: أن يخلق شيئا ملموسا له شكل ...

سؤال: إلى أى حد ترى هذا العالم مخيفا؟

يجيب ديرنمات: إلى درجة مضحكة .. إلى درجة تجعل النار تنبثق من الماء ... إلى درجة تجعل الجنين ينزل حيا من بطن أم ماتت .. هل تعرف ما الذى يجعلك ويجعلنى على قيد الحياة الآن؟ إنها القنبلة الذرية، فنحن نخاف من القنبلة الذرية، تسلحت أمريكا وتسلحت روسيا وأحسسنا نحن بالأمن والطمأنينة لأن أحدا من المعسكرين لن يشعلها حربا ذرية ...

فلأن هناك قنابل ذرية أصبحت حياتنا ممكنة ... فالذى نخاف منه، أصبح هو سبب حياتنا .. إننا نحتمى من الشمس العادية فى ظل القنابل الذرية!

إن العالم كله يعيش فى قلب قنبلة ذرية .. إنها باردة مثل الكهف، ومخيفة مثل أى وحش، فهى أحدث مقبرة علمية .. وهى فى الوقت نفسه آخر ما ابتكره الإنسان من «المصحات» العلاجية ...

أليس هذا الموقف المحزن يبعث على الضحك .. هاها .. هاها .. اضحك معى على خيبة الإنسانية!

سؤال: هل ترى أنه لا أمل؟ سنظل نعيش فى ظل القنابل؟ نخاف من القنابل ونطمئن إلى القنابل؟

ويجيب ديرنمات : الأمل واليأس ليسا من شأن العالم الذى حولنا ، فالعالم الذى حولنا لا علاقة له بنا . . ولكن نحن الذين لنا علاقة به . . .

نحن مرتبطون به . . ولكنه ليس مرتبطا بنا . . تماما كما أن الكرة الأرضية معلقة من الشمس ، والشمس ليست معلقة بالكرة الأرضية . . .

ومعنى ذلك أن الأمل واليأس من صفاتنا نحن . . أو هما رد فعل لما نعانيه ولما نتمنى أن نفعله أمام موقف معقد رهيب كهذا الذى يعانيه العالم الآن .

ومع ذلك فهناك أمل . . بل يجب أن يكون هناك أمل ، وإذا كان هناك أمل ، ولو ضئيلا ، يجب أن نجعله كبيرا ، أو نتيح الفرصة لكى يكبر هذا الأمل .

وما دام هذا الإنسان محكوما عليه أن يعيش على هذه الكرة الأرضية ، فلا بد أن يخاف مما يجرى فيها ، ولكن إذا قدر للإنسان أن يعيش خارج الكرة الأرضية ، فلا داعى عنده للخوف .

سؤال : ولكن هل من حق أى إنسان مسئول أن يهرب من الأرض ، وأن يهرب من هذه المخاوف؟

الجواب : لا . فليس الهرب من المشكلة حلا لها ، وليس الهرب إلا إجازة من المسئولية ، إجازة مرضية تعطيها لنفسك عندما تتوهم أنه من الممكن أن تكون طبيبا ومريضا فى الوقت نفسه ، أو عندما تتوهم أنه يكفى أن تكون مريضا ، لتكون فى الوقت نفسه طبيبا . . وتعفى نفسك من كل عمل تحتمه عليك مسئوليتك الفنية والاجتماعية .

ما دام البقاء ضروريا ، فالعمل أيضا ضرورى ، والعمل يجب أن يكون للإنسانية وللسلام ، ولاستمرار الحياة . ومعنى ذلك أنه لابد أن نصنع الأمل ، وأن ننتجه على أوسع نطاق وأن نوزعه على الناس توزيعا علميا .

والاشتراكية هى آخر صورة لتوزيع الأمل والعمل على الناس بصورة علمية . .

سؤال : هل ترى أن واجب الفنان فقط أن يعطى الناس الأمل . . ؟هل ترى أن من واجب الطبيب أن يعطى الناس الأمل ، ولا يقدم لهم العلاج؟ إذا تحول كل طبيب إلى واعظ ، فلماذا يسمى نفسه طبيبا؟ ولماذا العقاقير؟ ولماذا لا نستخدم

البخور والأحجبة وتتحول حياتنا إلى حلقات للذكر؟ ولماذا لا نعود إلى إشاعة الأفيون والحشيش والتواكل وانتظار السماء حتى تسقط الذهب والفضة عند أقدام الناس؟

لا أعرف ما الذى يمكن أن يقوله ديرنمات لو وجهت له مثل هذا السؤال بهذه اللهجة، ولكنى أتخيله يتراجع فى مقعده ويفكر فى أن يقلع البنطلون والقميص ويرتدى بدلته كاملة ويشير - بكل أدب سويسرى معروف - إلى الباب الذى يؤدى إلى الشارع ! لأن السؤال طويل ولأن فلسفة ديرنمات لا تتضمن كل هذه المعانى، ولأننى أسأله فى لهجة اتهام كأنه هتلر أو ستالين .

ولكن ديرنمات بأدبه السويسرى سيقول: إننى أتصور العالم دائما هكذا . . وأرجو أن تتابعنى فى هذه الصورة البسيطة المعقدة أيضا . . . إننى أتخيل سيارة منطلقة بسرعة جنونية . . . والناس فى داخلها ينبهون السائق صارخين: «احترس من إشارات المرور! ابتعد عن الأطفال!» ولكن سائق هذه السيارة لا يريد أن يقاطعه أحد لأن هذه المقاطعة معناها أنه لا يفهم فى قيادة السيارات، وأنه لا يرى إشارات المرور، وأنه لا يعبأ بالأطفال . . . أو أنه لا يكترث بصيحات الناس .

ولو استوقفه الناس وسألوه عن البنزين الذى فى السيارة فربما وجدوا أنه يوشك على النهاية . .

إن الفنان يجب أن يوقف السيارة . . يجب أن يبين جنون الذين يريدون أن يهلكوا البشرية وفى الوقت نفسه ينتظرون منها الشكر والامتنان والابتهال، هنا - فقط - يجب أن يظهر الفن والفنان بوضوح . .

إن الذى يقرأ مسرحيات شكسبير لا يجد فيها ملكا واحدا مضحكا . . . فكل ملوك المسرح القديم يبعثون على الحزن والخوف . . كلهم أغبياء أو أشرار . . ولكن ليس من بينهم واحد فقط يبعث على الضحك . .

ولذلك كانت الكوميديات هى الصورة الوحيدة التى تناسب العصر الذى نعيش فيه، لأن الكوميديا تنبع من اليأس من وضع قائم، ولذلك لابد أن تكشف تناقضات الوضع القائم، وأن تعرض صورة جديدة لأوضاع أحسن، أو من الممكن أن تكون أحسن وأفضل . . .

وكما أن الطب ليس وعظا، فالوعظ ليس طبا . .

ولو سألوا السائق عن زيت السيارة لاكتشفوا أنه قديم . . . ولو وضعوا أيديهم فى جيوبه لوجدوا أنه يقود سيارة بلا رخصة . . وربما كانت هذه أول مرة يقود فيها سيارة . . وربما كانت هذه السيارة مسروقة . .

أما السائق نفسه فهو يستنكر ما فعله الركاب . . وكان يتوقع منهم أن يتحدثوا إليه فى رفق وفى أدب وأن يرددوا على أذنيه بعض النكت.

ألا تكفيهم المناظر الطبيعية الجميلة التى يمرون بها؟ ألا يرون الورد على الأشجار، ألا يرون الطيور حائرة بين الورد . . ألا يشمون النسيم، ألا يشعرون بدفء الشمس؟ ألا يكفيهم أن السائق قد أطلعهم على العالم من حولهم؟

هذا ما يتوقعه السائق الذى يقود السيارة المجنونة . .

فهل من واجبنا نحن أن نقول للسائق المجنون هذه النكت؟ هل من واجب الناس جميعا أن يهمسوا بالغزل فى آذان من يريدون هلاك البشرية؟

والفن ليس وعظا وليس طبا، وإنما هو خلق شيء جديد وتعميق الإحساس بالتناقض لكى تنفجر بالضحك . . ومن انفجارات الضحك تتكون صورة جديدة . . تماما كما تتكون من الصواريخ فى السماء صور جديدة وأشكال فنية !

ولذلك فسائقو السيارات المجانين يجب أن يراهم الناس على المسرح وأن يضحكوا منهم وعليهم . . فالنكتة هى أقسى سلاح . . وأنا أعتقد أن مسرحية «زيارة السيدة العجوز» هى أقسى نكتة أطلقتها، نكتة فتاة طردوها من المدينة وهى صغيرة فجاءت تنتقم وهى كبيرة، على الرغم من أنه قد مضى على طردها عشرون عاما، وعلى الرغم من أنها تزوجت سبع مرات بعد ذلك، وعلى الرغم من أنها أصبحت تملك مئات الملايين من الجنيهات . . .

ومسرحية «زيارة السيدة العجوز» تدور أحداثها حول فتاة أحبها بقال وحملت منه، وحاولت هذه الفتاة أن تقنعه بالزواج منها ولكنه رفض، ولفق لها تهمة أنها كانت على علاقة بأناس آخرين . . وأنه يصعب لذلك أن يكون هو بالذات أبا لطفلها. وطردت من المدينة بتهمة سوء الخلق، وولدت الفتاة طفلها الذى مات بعد ذلك، وذهبت إلى تريستا إلى بيوت الدعارة، وعرفت الكثيرين، وتزوجت عدة مرات وأخيرا تزوجت أحد ملوك البترول. وقررت أن تعود إلى المدينة لتنتقم من

الرجل الذى طردها، وعادت إلى المدينة ووجدتها منهارة، ووجدت الرجل الذى طردها بقالا، وواضح جدا أن أهل المدينة يريدون أن يطلبوا معاونتها المادية؛ أليست هى ابنة المدينة البارة؟ ووافقت هى على المساعدة المادية بشرط أن تحكم المدينة كلها بالإعدام على هذا البقال الذى تزوج فتاة أخرى طمعا فى مال أبيها. وقاومت المدينة.. وأمام إغراء المال، وأمام شىء آخر هو أن هذه السيدة قد اشترت المدينة نفسها، اشترت كل ما حولها من مناجم، وحكمت المدينة على الرجل بالإعدام، فإن كل مواطن قرر أن هذا البقال يستحق الإعدام، وأنه ارتكب غلطة يجب أن يدفع ثمنها والثمن الوحيد هو الموت له، والحياة لكل هذه المدينة!

وعندما تقرر المدينة كلها بالإجماع أن الرجل يستحق الموت، تتقدم المليونيرة وتحكم بالبراءة، وهى فى الحقيقة لم تحكم له، وإنما حكمت عليه لأن البراءة أقسى من الإعدام. فالذى مات، قد انقطع شعوره بكل شىء، أما الحى فهو يشعر فى كل لحظة أنه محاط بأناس كلهم تمنوا له الموت.. كلهم سفاحون.. فهو المحكوم عليه بالإعدام، هو وحده.. أما بقية سكان المدينة فكلهم جلادون.. كل حزام حول وسط كل واحد منهم، هو جزء من حبل المشنقة الذى تقاسمه سكان المدينة وأخفوه على شكل حزام تحت ملابسهم..

هذه هى أقسى نكتة أطلقها ديرنمات على ألمانيا، وموقف أمريكا منها بعد الحرب. فأمريكا جاءت تحاكم ألمانيا، وأقامت محكمة من الألمان؛ الألمان يحاكمون الألمان، والثمن هو فلوس أمريكا نظيفة اليدين، أما الشعب الألمانى فهو القاتل والقتيل معا..

سؤال: هل النكتة أو الكوميديا هى وحدها القادرة على تعميق الأزمة تمهيدا لحلها؟ هل ترى أن نضحك فى وجه الأحداث؟ مجرد الضحك فى وجه الأحداث يزيلها؟

وجوابه: والشجاعة أيضا. فعلى الرغم من أن الناس فى خوف دائم من أنفسهم، فإنه يحدث كثيرا جدا وسط هذا «العبث» وسط هذا «الضياع» الذى يشعر به الناس أن يظهر واحد يبحث عن معنى، يبحث عن هدف، يقوم بتنظيم داخلى - أى فى داخل نفسه - لكل ما حوله من ارتجال وهراء.

مثلا . . مسرحية «رومولوس العظيم» إنها مسرحية كوميدية . . أو يمكن أن تسميها مهزلة . . ويمكنك أن تقول إنها تهريج . . إننى أتوقع هذا من القراء والنقاد والمتفرجين، ولكنى أرى أنهـا مسرحية عميقة جدا، وأن شخصياتها مرسومة بأبعاد مدروسة.

وبطل المسرحية هو إمبراطور، وهو شخصية مضحكة وهو لذلك شخصية غير مألوفة على المسرح، والإمبراطور هذا يقوم بدور غريب هو أنه حكم روما عشرين عاما، وأحس منذ السنوات الأولى من حكمه أن هذه الدولة متعفنة وأنه لا أمل فى حياتها، أو لا أمل فى علاجها، وأحس بوضوح أنه شخصيا لا يستطيع أن يعالجها، ولا يستطيع أن يطيل فى عمرها.

إنه مريض، ومرضه لا علاج له، تماما كما يصاب رجل عجوز بسرطان فى الدم ـ أنا آسف لاستخدام هذه الألفاظ البشعة ولكنى مضطر ـ وفى آخر مراحل المرض، والطبيب المخلص يقول: «لا أمل . . ولا داعى للعلاج» وإذا صرخ أبناء المريض حوله بأن أباهم يجب أن يعيش، وبأن أباهم طبيب القلب أو شاعر عظيم، أو يعطف على الفقراء أو أنه مريض من سنوات ويجب أن يستريح من المرض . . إلى آخر هذه العبارات فإن الطبيب يجب أن يصارحهم بالموقف وبشجاعة، وأن يؤكد لهم ـ بضمير مستريح ـ أن المريض يجب أن يموت ـ وأنه ليس من حقه أن يعالجه، وليس من حق أى إنسان، ولا فى مقدرته، أن يكتب للمريض شهادة ميلاد، بدلا من كتابة تصريح بالدفن!

إن الطبيب يجب أن يناشد ضميره، وأن يستجيب لضميره، وأن يواجه الناس بشجاعة مهما كانت النتيجة!

ورومولوس هذا أدرك أن بلاده متعفنة . . وأن السوس قد أكل أعماقها . . وأنها يجب ألا تعيش . . وأنه يجب ألا يدافع عنها . . وأن أحدا ليس من حقه أن يحول بينها وبين ما تستحقه من مصير: الهزيمة والاستسلام للجرمان!

وهذا الرجل رومولوس رجل شجاع، استطاع أن يواجه المواطنين فى روما بالكارثة، واستطاع أن يفعل شيئا أكثر من الشجاعة، وهو أن يقبل مصيره الذى ينتظره . . أى أنه ارتضى ثمن الشجاعة . . . أى قبله راضيا تماما!

ولذلك أنا أرى أنه وسط الخوف يوجد أناس شجعان قادرون على أن يدركوا خطورة الموقف، وأن يتحولوا إلى نجوم تلمع في الظلام . . فإذا كانت النجوم هى التى تضىء ظلام السماء، فالشجاعة أيضا هى التى تضىء ظلام الحياة؟

ولذلك نرى الإمبراطور رومولوس يجرد دولته من أى سلاح وأى مشروع وأى تنظيم وأية وسيلة من وسائل الحياة، وعندما تتقدم قوات الجرمان لتحتل روما لا يخاف ولا يهرب، ولا يشعر بأية مفاجأة، لأنه توقع هذا الزحف الجرمانى، ولأنه هو شخصيا قد استعد لهذه النهاية .

وإذا ترددت صيحات : «الخائن لوطنه . . العار على وطنه !» فإن هذا الإمبراطور يرى أن هذه الصيحات التى تصيبه فى وجهه ومن وراء ظهره طبيعية جدا . . إنها صيحات أبناء المريض عندما يؤكد الطبيب أن هذا المريض لابد أن يموت . . وأن يوفر الأبناء مجهودهم من البكاء عليه، ويبذلوه فى شىء نافع لهم . . أما هذا الأب فلا تنفعه الدموع، ولا تجدى معه الصرخات ولا تطيل عمره الابتهالات . . . وحتى إذا قتلوا الطبيب، فإن الذى اختصروه من عمر الطبيب لن يضاف إلى عمر الأب المريض . .

ومثال آخر . . ففى مسرحية «هبط ملاك فى بابل» نجد الشحاذ العنيد الذى اسمه «عاقى» وهو الشحاذ الوحيد فى مدينة بابل . . وفى العالم أيضا . هذا الشحاذ أصر على أن يبقى متسولا رغم أن اللافتات تنادى فى كل مكان بأن : « التسول ضد الاشتراكية . . والشحاذة عار على الوطن، أيها الشحاذون يجب أن تقوموا بأى عمل آخر» . .

ولكن «عاقى» هذا مصر على أن يظل شحاذا رغم تحذيرات الملك . . و«عاقى» هذا ليس شحاذا فى مدينة بابل القديمة، ولكنه شحاذ عالمى . . فمدينة بابل ليست مدينة شرقية قديمة، ولكن هذه المدينة ترمز إلى كل المدن الكبرى، فعماراتها العالية توهمك بأنها نيويورك . . والأضواء على كورنيش نهر الفرات توهمك بأنها باريس . . فهذا الشحاذ «عاقى»، وإن كان يعيش فى مدينة شرقية، وأسلوبه فى الكلام يشبه مقامات الحريرى . . ومقامات بديع الزمان الهمذانى، إلا أنه شحاذ عالمى . . يريد بموقفه وصلابته أن يؤكد للملك أن هناك شحاذين . . وأنه لابد أن يبقى فى المدينة شحاذون، وحتى السماء عندما أهدت «العاقى» فتاة جميلة . .

كانت هى الأخرى لا تعرف أنه ليس أفقر أهل المدينة، فهناك من هو أفقر منه: الملك أفقر من أى شحاذ فى المدينة !

فالملك والشحاذ يدخلان فى مباراة للشحاذة ويستطيع «عاقى» أن يكسب فى هذه المباراة لأنه شحاذ محترف، أما الملك فهو شحاذ هاو أو يقوم بدور الشحاذ. وعلى الرغم من أنه ملك وقادر، فإنه لا يستطيع أن يكون شحاذا . . أى أنه عاجز عن عمل شىء . . عاجز عن أن يكون فقيرا . . عاجز عن العجز !

فهذا الرجل «عاقى» رجل شجاع . . له رأى وقد تمسك بهذا الرأى حتى اضطر أحد الملائكة إلى أن يترك المدينة عجزا عن فهم عقل الإنسان.

والإنسانية لم تعدم أن يكون من أبنائها ملك شجاع أو شحاذ شجاع . .

سؤال: إلى من تلجأ الإنسانية؟ إلى أى أبنائها: الأدباء أو الفنانين أو العلماء؟ من الذى ينقذ الإنسانية من أبنائها؟

وجواب ديرنمات: هذه المشكلة ناقشتها أيضا فى مسرحية «علماء الطبيعة» . . فهذه المسرحية تبين لنا أن أحد العلماء اكتشف سر الكون . . . أو سرا خطيرا لو وقع هذا السر فى يد دولة من الدول الكبرى مثل روسيا وأمريكا، لكان فى ذلك خطورة على العالم كله . . إنها نظرية للقضاء على العالم.

وأحس هذا العالم الكبير أن ضميره لا يطاوعه فى أن يعطى هذا السر لأية دولة، وضميره لا يطاوعه أن يبقى فى بيته، لأنه من السهل خطفه، فبقاؤه فى بيته أو فى معمله، معناه أنه موافق على احتمال أكيد: أن إحدى الدول ستخطفه. ولذلك قرر أن يهرب، ولم يجد مكانا أحسن من مستشفى الأمراض العقلية وهرب إلى المستشفى، وراح يرتكب الجرائم التى تؤكد أنه مجنون، وفى هذا المستشفى اختفى سر فناء العالم كله . .

وأدركت روسيا وأمريكا هذه الحيلة التى لجأ إليها العالم الكبير . . فبعثت كل منهما جاسوسا إلى داخل المستشفى وهو أيضا فى ثوب مجنون، ويرتكب كل منهما عددا من الجرائم ليؤكد لأطباء المستشفى أنه مجنون . . وليؤكد للعالم الكبير أنه من المجانين . .

واستطاع العالم الكبير أن يقنع الجاسوسين فى النهاية أن إنقاذ البشرية يحتم عليهما أن يجاهرا بالجنون، لأن العالم خارج المستشفى أكثر جنونا.

والمشكلة هنا هى: أن العلماء كانوا يتصورون دائما أن يظلوا بعيدين عن السياسة.. يدرسون ويبحثون من أجل العلم والحقيقة، وأنه ليس مهما أبدا أن تستغل بحوثهم للحرب وللقضاء على البشرية، وسبب ذلك أن النظريات العلمية لا دين لها ولا لون ولا وطن. فالعلماء الذين يشتغلون بهذه النظريات يجب ألا يكون لهم دين ولا وطن، فهم فوق الخلافات الدينية، وفوق المعارك القومية.. وواجبهم كعلماءً أن يعلموا فقط، أما استغلال نظرياتهم، فهذا من شأن الدولة، وإذا أساءت الدولة استغلال نظرياتهم، كان من الواجب على رجال الدين والأخلاق أن يحاسبوا الدولة..

والعلماء دائما يتساءلون: «هل نتوقف عن البحث والتجربة، لأن الدولة تستولى على ثمرات بحوثنا؟ أو نستمر فى البحث والتجربة، دون أن نفكر فى استغلال الدولة لهذه البحوث، مع العلم بأن الدولة هى التى تنفق على التجارب والمعامل والبحوث؟»

وبعبارة أخرى: هل الرجل العالم ينتمى أو لا ينتمى؟ هل الرجل العالم ينتمى إلى السياسة أو لا ينتمى إلى السياسة؟

إن هروب العالم الكبير إلى مستشفى الأمراض العقلية معناه أنه كان منتميا ثم قرر فى آخر لحظة أن يكون لا منتميا. كان يستخدم أموال الدولة وكل مواردها من أجل البحث، ثم قرر فى آخر لحظة أن يحرمها من حقها فى هذه البحوث، وفى الوقت نفسه عرّض نفسه ونظرياته لأخطار الخطف، فكأنه مدير بنك فتح خزائنه للصوص.. ومهما تكن ثقة الدولة فى مدير البنك فليس من حقه أن يعرض أموال الدولة للصوص.

إن هذا العالم الكبير قد نفذ القرار الذى اتخذه بشجاعة، قرر ألا يكون سببا فى خراب العالم.. قرر أن يموت هو، ويعيش العالم.

إننى لا أعرف فى الحقية من الذى نلجأ إليه، ولكننا جميعا يجب أن نلجأ إلى أنفسنا، يجب أن ننقذ أنفسنا من أنيابنا، يجب أن ننقذ أعيننا من أظافرنا.. يجب

أن ننقذ أطفالنا من علمائنا، وأن ننقذ علماءنا من ساستنا، وأن ننقذ ساستنا من وهم كبير هو أن نهمس فى آذانهم بالنكت بينما هم يقودون سيارة مصيرنا بسرعة جنونية!

سؤال: أريد أن أعرف بوضوح من هو المذنب؟

الجواب: لا أحد مذنب.. لأن المذنب هو الرجل الذى ارتكب عن وعى خطأ ما، ولكن الذى يواجهنا الآن ليس ذنبا، وإنما هو سوء الحظ، وسوء الحظ قد صادفنا جميعا، نحن أبناء القرن العشرين..

وقد أكون أنا المذنب لأننى أنادى دائما بأنه لا يوجد إنسان مذنب وإنما يوجد إنسان فقط، أما «الذنب» فهو ملازم له كرائحة عرقه.. وقد تكون أنت المذنب، لأنك تعرضت لمناقشة موضوع فلسفى فنى فى هذا المجال الضيق، وفى هذا المجال غير الفلسفى..

فأنا أنظر إلى وجهك فأرى ذنبى، وأنت تنظر إلى وجهى فترى كل ذنوب الفنانين..

فما الذى تراه أنت؟ ومن الذى تراه؟ ومن الذى أراه أنا؟ ثم كيف يرانا الناس نحن الاثنين. إنها ذنوب ينعكس بعضها على بعض.. تماما كذرات التراب الموجودة فى جو الكرة الأرضية هى وحدها التى تجعل الشمس تضىء أكثر.. لأنها مصابيح صغيرة.. أو مرايا صغيرة تعكس أشعة الشمس بعضها على بعض.. وكل ذنوبنا مرايا تعكس ندمنا، وتضىء لنا الطريق إلى البحث عن أسلوب لخلاص البشرية وإنقاذها لنا وإنقاذها منا!

إذا كان لديك متسع فى صدرك لمعلومات أخرى عن فريدريش ديرنمات فهو رجل سليط اللسان جدا.. وكل النقاد الذين هاجموه رد عليهم فى خطابات خاصة، وطلب إليهم ألا ينشروا هذه الخطابات: أولا لأنها ستكون ذات قيمة أكبر عندما يموت.. وثانيا: لأنه سيتولى هو نشرها فى أقرب وقت.. وثالثا: لأن المتعة فى نشر هذه الردود قد تحققت لأن ديرنمات قد قرأها على عدد كبير من

أصدقائه وأنهم ضحكوا لذلك كثيرا . . ورابعا : لأنه قد كتب هذه الردود فى لحظة حرجة جدا عندما نسى أن ينتعل حذاءه . . إلخ .

ولو ترجمت هذه المقالة إلى اللغة الألمانية وقرأها ديرنمات فأنا لا أستبعد أن يبعث برد ، ولا أعرف إن كان سيكتب هذا الرد فى إحدى لحظاته الحرجة !

* * *

وفى نهاية الحرب العالمية الثانية منحت الحكومة الألمانية فريدريش ديرنمات «جائزة العميان» الذهبية على التمثيلية الإذاعية «العميان» وذلك لما جاء فى هذه المسرحية من إنسانية ورقة وأضواء باهرة ، وعندما ذهب ديرنمات ليتلقى الجائزة قال فى كلمته :

«لنترك جانبا كل مشاكل السياسة ومتاعب السياسة ، وهموم الحرية والعدالة الاجتماعية ونتطلع إلى الرؤية الواضحة لكل ما حولنا . . إن هذه مشكلة حقيقية . . والوضوح والرؤية الصادقة والأبعاد المبينة لا تنبع من تلقاء نفسها ، وإنما عن طريق كل واحد منا . وهذا الوضوح ليس خاصا بالأدباء وحدهم ، وإنما خاص بنا جميعا . فلابد أن نصل إلى كل ما هو جوهرى ، عن طريق الشاشة السياسية ، وعن طريق أبعد وأعمق من ذلك ، عن طريق هذا الضباب الذى نسميه حياتنا اليومية» . . .

وهذا بالضبط ما يسير عليه ديرنمات . فهو يَنْشُد وضوح الرؤية ، وهو مهموم بعالمه . . بدنياه . . ويرى أن العالم من حوله : فوضى ، وأنه هو وحده ـ فنانًا ـ هو الذى ينظم هذا العالم ، ينظمه وهو فيه . . وهو لا يستطيع أن يقف خارج العالم ، ولا يريد إذا استطاع .

والفنان يجب أن «يكون ـ فى ـ العالم» . وهذه هى الشجاعة المطلوبة من الفنان .

والفنان هو جليفر فى بلاد العمالقة ، فكل شىء حولنا هائل مروع ، ولكن هذا الهول المريع لا يحولنا إلى جبناء وأنذال !

ويروى ديرنمات أن شخصية مثل «رومولوس» هى شخصية فى غاية الشجاعة . . ويرى أيضا أن الشحاذ «عاقى» فى مسرحية «هبط الملاك فى بابل» هو

رجل شجاع . . فكلاهما واجه عالما ضخما، واجهه وتحداه . . . واستطاع كل منهما بضعفه أن يغير ما حوله، أو على الأقل رفض أن يجتاحه العالم الكبير . . فكلٌ من هذين الرجلين لديه تنظيم داخلى، للعالم الخارجى.

إن فريدريش ديرنمات مهتم جدا بمسرحية «رومولوس العظيم» وينبه دائما إلى أنها مسرحية صعبة، وصعوبتها هى فى أنها سهلة، أو على الأصح للمتفرج وللممثل وللمخرج، سهلة فى العرض وفى الأداء.

ولكن ديرنمات يؤكد أن هذا بالضبط هو الصعب جدا فى هذه المسرحية التى توهمك بأنها كوميدية تهريجية أيضا، فالدخول والخروج والهيصة الموجودة على المسرح وفى فيللا الإمبراطور التى هى أقرب إلى حظيرة دواجن، كل ذلك يجعلك تضحك لهذه الخفة أو الاستخفاف الواضح.

وديرنمات يؤكد أن هناك استخفافا واضحا، وليس هذا الاستخفاف من جانب المؤلف ولكن من جانب البطل: الإمبراطور. حتى هذا الاستخفاف الإمبراطورى ليس إلا ظاهريا أيضا، ويجب أن يكون ظاهريا، لأن الإمبراطور رجل جاد جدا، لقد اتخذ قرارا وهو مصمم على تنفيذه.

ومن الممكن أن يتخذ الإنسان قرارا جادا لتنفيذ شىء سخيف، كأن يصمم الإنسان أن يمشى بفردة جزمة واحدة فى الشارع لمدة ساعة أو ساعتين، وفى هذه الحالة يكون القرار جادا، ولكن النتيجة مضحكة . . أو حتى إذا لم تكن مضحكة فهى سخيفة، وهى سخيفة لأنها بلا معنى كبير، إلا إذا كان هناك معنى كبير وراء الإصرار، ووراء الفردة المخلوعة!

والإمبراطور هنا رجل واضح الاستخفاف . . أو ظاهر الاستخفاف، ولكنه جاد جدا.

إنه طبيب نظر إلى حالة المريض، والمريض هو الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وراح يقلب روشتات الأطباء الذين سبقوه فى علاج هذا المريض، ثم راح يقلب فى تاريخ حياة المريض نفسه. واتخذ الإمبراطور قرارا، وقراره نهائى، لأنه آخر إمبراطور، لأنه مصر على أن يكون الإمبراطور الأخير، وقرر شيئا مهما جدا: وهو أن هذا المريض يجب أن يموت!

والموت هو الوضع المؤكد فى حياة أى إنسان، أو هو النهاية التى لامفر منها، وهى نهاية تلازم الإنسان فى اللحظة نفسها التى يولد فيها، بل إننا لو نظرنا إلى طفل لحظة ولادته وتطلعنا إلى وجه الشبه فى ملامحه بينه وبين أمه أو بينه وبين والده .. فإن شيئا واحدا يتشابه فيه هذا الطفل مع والديه هو: أنه سيموت!

وقرار الإمبراطور بأن هذه الإمبراطورية ستموت، ليس قرارا، ولكنه تقرير لحقيقة مؤكدة.

ولكن القرار والتصميم هما عندما أعلن الإمبراطور وفى اللحظة الأولى لحكمه الذى استغرق عشرين عاما أن هذه الإمبراطورية يجب أن تموت، ويجب أن يكون موتها على يديه!

فالمريض يجب أن يموت، ومرضه لا علاج له، وليس من حق أى إنسان أن يعالجه أو يدافع عن حياته، لأنه أعطى الحياة فبددها، وهو الآن لا يستحق الحياة!

فالاستخفاف البادى فى سلوك الإمبراطور، هو شعور بالنهاية، هو إدراك مؤكد لما لا يعرفه كل الناس معه على المسرح أو من المتفرجين. إنه يستخف بحرص هؤلاء الناس على أن تعيش روما .. تماما كما يصرخ أهل المريض يتهمون الطبيب بالجهل، أو بابتزاز الأموال ... وأنه لا يريد للمريض أن يعيش، ولكن الطبيب وحده يعرف أن مريضه قد مات ... أو بسبيله لأن يموت، أو قدر له من وقت طويل أن يموت .. فهو لم يمت .. هو لم يمت فى نظر الطبيب بل قد مات من وقت طويل!

وأنا أنقل هنا حرفيا ذلك التنبيه الذى وجهه فريدريش ديرنمات إلى الممثلين والمخرجين، وربما إلى الجمهور الذى سيتفرج على مسرحية (رومولوس العظيم) ويقول ديرنمات:

«هذه كوميديا صعبة. وصعوبتها هى فى أنها تبدو سهلة.

«فما الذى يمكن أن يقوله عنها المتخصص فى الأدب الحديث؟

«سيقول إن أسلوبها جاد، وسيقول عنها إنها نوع من الفكاهة والتهريج، وسيضعها فى مكان متوسط بين أدب التهريج وبين أدب برنارد شو.

«وهذا الحكم على مسرحية «رومولوس العظيم» يعتبر فى غاية القسوة، لأن هذا الرجل ظل يمثل دور الأبله عشرين عاما، والعالم من حوله لم يستطع أن يدرك أن وراء بحث رومولوس هذا منهجا وخطة من حديد.

«وأحب أن أنبه إلى أن شخصياتى يجب أن تنبثق من الطريقة التى تظهر بها على المسرح، وهذا التنبيه موجه أيضا إلى المخرج.

«وبصورة عملية: كيف يبدو «أميليان»؟

«لقد أمضى «أميليان» هذا أياما فى الطريق، وربما أسابيع يتعثر فى طرق سرية، ويعبر مدنا منهارة، وأخيرا يصل إلى فيللا الإمبراطور التى يعرفها جيدا، ومع ذلك فهو يسأل:

«أهذه فيللا الإمبراطور؟

«فإذا لم تشعر بدهشته الهائلة لرؤية فيللا الإمبراطور وقد تهدمت، وأصبحت مجرد حظيرة للدجاج، فإن موقفه سيصبح خطابيا لا أكثر ولا أقل!

«لأنه فى الحقيقة لم يعد يعرفها..

«لقد نسيها حقيقة، وإن كان يشك فى أنه عرفها يوما وأحبها بعد ذلك!

«وأميليان هذا هو عكس رومولوس..

«ولذلك يجب أن ننظر إلى نهايته بعين الإمبراطور، لأن الإمبراطور يستطيع أن ينفذ إلى ما وراء وجه أميليان ذلك الضابط الذى جرده الأعداء من شرفه: إنه ضحية القوة التى امتهنت ألف مرة!

«ورومولوس ينظر إلى أمليان نظرة جادة ويعرف أنه كان أسيرا عند الأعداء وأنهم عذبوه وأنه إنسان فى غاية التعاسة.

«ولكن الشيء الذى يقبله الإمبراطور رومولوس هو أن يطلب أميليان إلى مخطوبته، وهى ابنة الإمبراطور، أن تتسلح.. أن تتسلح حتى بسكين، ولا يعقل أن يتخلى أميليان عن حبيبته هذه، إنقاذا لروما!

«فإذا لم يكتشف الممثل كل هذه المشاعر الإنسانية التى تتدفق من داخل كل شخصية من هذه الشخصيات، فإنه لن يصبح قادرا على أن يقوم بدور واحد منها.

«وهذا ينطبق على كل مسرحياتى . .

«هناك صعوبة أخرى تواجه الممثل الذى يقوم بدور رومولوس، هذه الصعوبة بوضوح هى:

يجب ألا يسمح للجمهور بأن يتجاوب معه بسرعة.

«وأنا أعرف أن هذا كلام يقال فقط، وأن تحقيقه مستحيل، ولكن يجب أن يكون هذا معلوما لدى الممثل - كمجرد إجراء تكتيكى فقط.

«والمعنى الذى يمثله الإمبراطور سيبدو واضحا فى الفصل الثالث . . .

«وفى الفصل الأول يجب أن يكون مفهوما بوضوح لماذا يلعن ضابط الفرسان الإمبراطور رومولوس ويصفه بأنه عار على روما.. . ولذا يجب أن يكون مفهوما وبوضوح حكم أميليان على الإمبراطور فى نهاية الفصل الثالث عندما يهتف: يسقط الإمبراطور!

«وإذا كان رومولوس يحاكم العالم كله فى الفصل الثالث، فإن العالم كله يحاكمه ويحكم عليه فى الفصل الرابع.

«وأريد أن تلتفت باهتمام خاص إلى «أى نوع من الناس» هذا الذى اخترته ليقوم ببطولة هذه المسرحية: لا شك أنه رجل ذكى، إنسان مطمئن ومتواضع، ولكنه إنسان يتصرف فى حياته بمنتهى عدم التقدير للآخرين، وهو إنسان لا يتردد فى أن يطلب إلى غيره من الناس أن يعملوا من أجل الهدف نفسه الذى يتجه إليه. وهو لا شك إنسان خطر، إنسان مصمم على أن يموت. وهذا الرعب الذى تنطوى عليه شخصية إمبراطور يهوى تربية الدجاج، هذا القاضى الذى يحكم على العالم متخفيا فى ثوب رجل الله! ومأساة هذا الرجل كامنة فى مهزلة نهايته: فبدلا من أن يضحى بحياته، فإنه يطلب لنفسه الإحالة إلى المعاش. ولكنه هنا - وهذا فقط ما يجعله إنسانا عظيما، لديه من الحكمة وحسن الإدراك ما يجعله يقبل هذا المصير».

ويقول ديرنمات عن هذه المسرحية أيضا «إن هذا الرجل رومولوس شجاع، لأنه عرف الحقيقة ولأنه أصر على تنفيذ ما يراه. وهذا مما يجعل الإنسان لا يفقد الأمل.. فوسط هذا الضباب والعبث يجد إنسانا شجاعا، لأنه رأى، ولأنه تأكد، ولأنه أصر على أن يجعل لكل ما رأى معنى حقيقيا».

وليست شخصية الإمبراطور وحدها هى التى يجب أن يلتفت إليها، فقد اهتم ديرنمات بكل الشخصيات، وجعلها مضحكة، وجعل الضحك يبعث على البكاء.

وديرنمات يصف نفسه: بأنه مهندس ضحك! أى أنه يجعلك تضحك بهندسة، أو لأسباب هندسية، أو يجعلك تضحك رغم التناسب والتناسق الهندسى والمنطقى فى هذه المسرحية، وفى كل مسرحياته.

ولكن الضحك فى هذه المسرحية أكثر منه فى أية مسرحية أخرى. فاضحك مع ديرنمات على إمبراطورية رومولوس، ولكن لا تنس أن رومولوس رجل سلام ولا يحب الحرب ولا يرى أنها ضرورة من أجل إمبراطورية متعفنة، كل شىء فيها يموت، فلماذا لا يعيش أبناؤها وتموت هى؟!

* * *

أما مسرحية «هبط الملاك فى بابل»:

فتاة راعية غنم قالت لأقوى ملك فى العالم: لا!

انتهت القصة القديمة التى جاءت فى الكتاب المقدس تحت عنوان «نشيد الأنشاد»..

والملك العظيم اسمه: سليمان!

والفتاة البسيطة اسمها: شالوميث!

إنها ساذجة، ولكنها قوية!

وهى ساذجة لأنها لم تعرف من الذى قالت له: لا..

وهى قوية لأنها استطاعت بلا تفكير أن تحول رجلا قويا إلى إنسان ضعيف،

لأنها أعطت جسمها للعرش، واحتفظت بقلبها لإنسان آخر أضعف منها. فهى أعطت الملك بالضبط ما لا يريد، فالملك لا يقتنع بما دون الجسم والقلب والعقل!

وشالوميث هذه هى أول فتاة فى التاريخ نعرف أنها حولت ملكا إلى شحاذ، أول فتاة جعلت من كلمة: لا.. جيشا وعرشا وتاريخا لكل فتاة بعد ذلك، وأملا لكل فتاة فى كل العصور!

فشالوميث الراعية ليست ضعيفة جدا..

وسليمان الملك ليس قويا جدا.

ففى داخل هذه الراعية طاقة هائلة. إنها ذرة تافهة بالقياس إلى سليمان ولكن هذه الذرة فى داخلها طاقة كرامة مدمرة!

إن كلمة: لا.. من شالوميث معناها إلغاء لكل الحروف الهجائية التى كتبت بها قوانين مملكة سليمان. إن كلمة لا: هى إلغاء لعملة الذهب والفضة والورق التى يتعامل بها سليمان وشعب سليمان.

ولكن ما أكثر ما نقول: لا..

وما أقل ما نقولها أيضا!

وكانت شالوميث من الأقلية النادرة فى التاريخ.

إن «نشيد الأنشاد» الذى نسب إلى الملك سليمان بعد وفاته بأحد عشر قرنا قد حار رجال الدين فى تفسيره لغرابته.

فقالوا إن «نشيد الأنشاد» بعاطفته الرقيقة العنيفة ليس إلا «غزلا» من الله فى شعبه.. وليس إلا غزلا وغراما من المسيح فى الكنيسة.

ولهذا «التفسير الرمزى» فقط أصبح «نشيد الأنشاد» سفرا من أسفار الكتاب المقدس!

ولكن الحقيقة أن «نشيد الأنشاد» ليس إلا أغنيات عاطفية جنسية صارخة.. وليس إلا أغانى الأفراح الشعبية، وليس إلا تمجيدا للحب، حب فتاة لخاطبها

الراعى، وليس إلا احتقارا للمال والسلطان، فهذه الفتاة «شالوميث» قد استولى عليها الملك سليمان، وأدخلها، وأجلسها على عرشه، وجعل الأرض من تحتها حريرا، ومن حولها حريرا . . ولكن الفتاة لم تنس الأرض القاحلة ولم تنس العطش والعرق، ولم تنس الأغنام، لم تنس حبيبها الفقير المسكين، الأسود الذى لوحته الشمس، لم تنس حبها، لم تنس حبيبها، بل إن سليمان أرغمها على أن تفكر فى حبيبها. فالحب ملجأ المظلومين، وقلعة المساكين!

هذه هى قصة شالوميث القديمة . . .

* * *

ومسرحية (هبط الملاك فى بابل) لديرنمات، هى معالجة جديدة عميقة غنية لهذا المعنى . .

ففى هذه المسرحية نجد رجلا شحاذا، رفض أن يلتحق بأية وظيفة أخرى. فالدولة التى يعيش فيها قررت القضاء على التسول، ولكنه أصر على أن يبقى متسولا.

وكأن هذا الشحاذ ليس فى عصر الملك البابلى بختنصر . . بل هو فى الزمن المعاصر أيضا!

وأصر الملك على أن يقضى على التسول . . . وأصر الشحاذ على أن يقف فى وجه الملك، ووقوفه فى وجه الملك معناه: أن هذاالملك ليس ملكا مطلقا، وإنما هو ملك إلا قليلا، أن هناك أناسا وبقعا فى الأرض لا يسقط عليها ظله!

أرسل الملك لهذا الشحاذ أناسا كثيرين، وعادوا كما ذهبوا عاجزين أمام شحاذ رفض أن يكون شيئا آخر . .

ارتدى الملك ملابس الشحاذ وذهب ليقنعه، ولم يفلح الملك فى إقناع الشحاذ. دخل الملك فى مسابقة مع الشحاذ على أيهما أقدر على الشحاذة، وأسفرت النتيجة عن فوز الشحاذ الحقيقى وليس الشحاذ الملك، فكأن هذه المباراة قد أثبتت أن الشحاذ الحقيقى هو ملك فى دنيا الشحاذة، أما الملك فهو شحاذ فى مملكة الشحاذين!

وانتصر الشحاذ فى النهاية . .

فهو شحاذ استطاع أن يقول لملك : لا . . .

وفى هذه المسرحية مرة أخرى فتاة بعثت بها السماء مع أحد الملائكة لتكون هدية لأفقر إنسان فى العالم .

وقد نزل الملاك فى اللحظة نفسها التى تجرى فيها المباراة بين الشحاذ الحقيقى والشحاذ الملك ، وأمام الملاك ظهر الشحاذ الملك هو أفقر الشحاذين وأعجزهم عن كسب القوت ، ومعنى ذلك أن هذه الفتاة من نصيب أفقر الشحاذين . .

أى من نصيب الملك !

وعندما اكتشفت الفتاة أن الملك هو الشحاذ نفسه لم تصدق عينيها ، فقد كانت أحبت هذا الشحاذ الملك ، ثم طلبت إليه أن يترك العرش وأن يعود إلى الشحاذة فى الشوارع معها . ورفض الملك أن يكون شحاذا ، ورفضت الفتاة أن تكون ملكة . حاول الملك إقناعها ، فعجز ، فحاول رجال الدين ، كلهم عجزوا ، فالفتاة أحبت شحاذا ولا تريد ملكا .

ورفض الملك أن يضحى بالعرش من أجلها .

وكانت كل مدينة بابل قد عرضت على الفتاة أن تتزوجها .

أغنياؤها وتجارها وجنودها وشعراؤها .

ولكن الفتاة رفضت ، وعرضهم الملك عليها ، وطلب إليهم أن ينزلوا عن ثرواتهم من أجلها ، لأنها أحبت شحاذا ولا تريد إلا شحاذا .

ورفض الناس جميعا ورفضت الفتاة ! !

وأمام إصرار الفتاة لم يجد الملك والشعب حلا إلا طرد الفتاة من بابل . . إلا رفض هدية السماء .

وخرجت الفتاة من بابل ، فقد رفضت بابل فرفضتها بابل . . لأنها رفضت عرش بابل من أجل شحاذ أحبته !

فقد كان ظهور هذه الفتاة فى بابل تحقيرا لشأن بابل كلها . . حكومة وشعبا وقوانين وأخلاقا .

ولكن حرص الناس على ما عندهم من مال ودين وحرص الناس على راحتهم على دنياهم ، جعلاهم يطردون بنت السماء !

* * *

ودستويفسكى فى رواية «الإخوة كرامازوف» الجزء الأول ـ قد تناول هذا المعنى بصورة جميلة .

فنجد الفتى إليوشا يروى كيف أنه يفكر فى قصيدة طويلة : لا يعرف منها إلا مضمونها الآن . أما مضمون القصيدة فهو أن «محاكم التفتيش» قد أعدمت مئات الناس فى مدينة أشبيلية بإسبانيا . وعلى رأس هذه المحاكم أحد الكرادلة ، وهو شخصية رهيبة مخيفة ، لأنه قادر على أن يقتل ـ باسم الدين ـ أى إنسان . . إلا أن أهل المدينة فوجئوا بظهور المسيح نفسه . . وتأكدوا أنه هو المسيح ، ملامحه ، الضوء الذى يشع منه ، والمعجزات التى حققها ، فقد أتوا إليه بنعش به طفل ، وانحنت كل الرءوس ، وظهر الكاردينال ورأى المسيح والناس ، وضاعت هيبة الكاردينال واختفى مظهر رجل الدين .

وأنقذ الكاردينال نفسه بأن استدرج المسيح إلى السجن ، وسجن المسيح ، وراح الكاردينال يتحدث عن الدين ورجال الدين ، وعذاب رجال الدين فى الدفاع عن المسيحية . وتحدث إلى المسيح ، الذى لم ينطق بكلمة واحدة ، عن الصعوبات التى يخلقها بوجوده فى هذه المدينة ، فقد أصبحت اليوم مختلفة عما كانت عليه يوم ظهورها .

وباختصار : إن تعاليم المسيح نفسه تعتبر مخالفة للمسيحية . . أو بعبارة أخرى : إن المسيح نفسه ليس مسيحيا !

ومعنى ذلك أنه من الأفضل للمسيح نفسه أن يترك مدينة أشبيلية ، بدلا من أن يحاكم بتهمة الكفر بالديانة المسيحية !

ولم ينطق المسيح بكلمة واحدة، وإنما قبل الكاردينال من فمه، وخرج المسيح من السجن !

ومعنى ذلك أن الأرض قد رفضت السماء . . أن الأرض قد أغمضت عينيها وقلبها على نور السماء، لأن نور السماء يحرجها، لأن نور السماء يفضحها. ومعنى ذلك أن الأرض فضلت أن تنطوى على عارها . . وألا تكشفه حتى لو كان ذلك أمام السماء !

إنها أيضا قصة الإنسان الذى قال للسماء لا . . إنها أيضا مرة أخرى قوة أن يقول الإنسان: لا . .

وفى استطاعته أن يقولها . .

وقالها . . وقالها كثيرا . . وحتى هذا الكثير ليس أكثر من اللازم !

فكأن الإنسان فى حالة دفاعه من الممكن أن يرتكب أية جريمة، وارتكب الكاردينال، فى مشروع قصيدة إليوشا كرامازوف، جريمة كبرى، هى أن يعيش بأى ثمن، وأن يبقى بأية تضحية. فمن أجل بقائه هو، لا بقاء لغيره، أيا كان هذا الغير !

إذن: لا . . للسماء مرة أخرى !

* * *

وفى قصة لجون إشتاينيك اسمها «اللؤلؤة» نجد أن أحد الصيادين، أحد فقراء الصيادين، قد عثر على لؤلؤة ضخمة، نادرة. وعرفت القرية كلها أن هذا الصياد قد عثر على لؤلؤة كبيرة، أى على كنز، إذن سوف يكون هذا الصياد غنيا، لن يكون صيادا بعد اليوم، وربما كانت له مراكب صيد، وربما تحول أهل القرية جميعا إلى عمال عنده. إن عثوره على هذه اللؤلؤة قد جعلهم فقراء. وجعله هو غنيا . . إن هذه اللؤلؤة قد مزقت القرية، خلقت فيها طبقتين . . هذا الصياد طبقة كاملة . . والناس كلهم طبقة أخرى، وهو وحدة يستحق أن يحقد عليه الناس، وأن يكرهوه. إنه غنى وقد فاجأ القرية كلها هو بثروته. لقد خدعهم، وتولى الحظ وحده أن يكون هذا الرجل خائنا للطبقة الكادحة.

وكان لابد أن يغتالوه، وحاولوا.

وتحول الصياد من صاحب لؤلؤة إلى حارس عليها، تحول إلى بواب يجلس أمام باب عمارة. إنه لا يسكنها ولكنه يحرسها فقط.

ولكى ينقذ ما تبقى من أولاده وبيته، ذهب إلى السوق ليبيع هذه اللؤلؤة، وعرفت كل القرية، وتخيلوا منظره عائدا ومعه الفلوس.

وذهب إلى السوق وعرض اللؤلؤة على كل التجار. لقد انبهروا بها ولكنهم رفضوا شراءها، لأنها لؤلؤة ضخمة، غالية الثمن، ويصعب أن يجدوا لها زبونا. وتنقل الصياد من بائع إلى بائع، ولكنهم جميعا أعجبوا بها، واعتذروا عن عدم شرائها.

وعاد الصياد إلى بيته وكأن اللؤلؤة ليست إلا قطعة حجر تافهة، إنها لا تساوى وزنها ترابا . .

وبعض الناس عرف أن الصياد لم يبع اللؤلؤة. . وبعضهم لم يعرف هذه الحقيقة، وهذا البعض الآخر جاء يسرقها، أو يسرق ثمنها. وفى اللحظة التى جاء الناس يسرقونها، كان الصياد فى طريقه إلى البحر . . ليتخلص من اللؤلؤة.

وألقاها فى البحر . . ألقى هذه «التهمة» بأنه غنى . . بأنه لص سرق أموال الناس . . بأنه خدعهم . . بأنه غافلهم وتحول إلى غنى دون سابق إنذار . .

إنه هو الآخر رد هدية السماء إلى البحر . .

إن السماء قد أرسلت له هدية لا تقدر بمال . . .

وأرسلت مع هذه الهدية الخوف عليها . . . والخوف منها . . .

وقد ألقاها الصياد فى البحر، دفاعا عن نفسه وزوجته وأولاده . . .

إنها اللؤلؤة نفسها . . إنه الشعب نفسه . . الوضع الغريب نفسه . . . عندما يجد الإنسان نفسه فى خطر . .

ولذلك يجد سلامته الوحيدة فى أن يقول : لا . . .

ويقولها. وهنا فقط تكتب له النجاة من الهوان . . من الفضيحة من . . الموت. . فما أكثر ما نقول لا . .

وما أقل ما نقولها أيضا !

إنها إذن كلمته القوية التى تكشف أمامنا ضعفا عاما لأخلاقيات الآخرين . .

* * *

وهذه المعانى والنغمة الحزينة الساخرة أيضا يعرضها ديرنمات من جديد فى رواية له اسمها «يونانى يتزوج يونانية» فهذه الرواية تحكى لنا قصة ـ أو أسطورة ـ رجل يونانى يعلن فى الصحف عن حاجته إلى زوجة ، وتظهر الزوجة جميلة جدا ، أكثر مما كان يتصور .

فالناس يتهافتون على إرضائه من أجل عيون الزوجة ، ويرتقى البطل من موظف عادى إلى موظف كبير . . إلى شخصية مهمة جدا . . تستحق كل نياشين الهيئات الاجتماعية والكنائس . .

ولكنه فجأة يكتشف أن زوجته كانت وما تزال عشيقة لكل الذين رفعوه إلى أعلى السلم . .

وهنا ينهار عالم البطل وفى الوقت نفسه تنهار أخلاقيات الموظفين أو الأخلاقيات الرسمية .

تماما كما ترى هذا الانهيار والهوان واضحين فى بلاط الملك فى مسرحية «هبط الملاك . . » .

وقد أشار ديرنمات أيضا بسخرية قاسية فى مسرحية «رومولوس العظيم» إلى ما أصاب رجال الحاشية من انهيار على أثر هزائم جيوش الإمبراطور فى شمال إيطاليا ، فهرب الوزراء والضباط وهربت الزوجة وبقى هو وحده شاهدا على انحلال الدولة ، أو بقى طبيبا يدفن جثة المريض الذى لا علاج له ـ أى الدولة .

وفى مسرحية «زيارة السيدة العجوز» استطاع ديرنمات أن يعرى لنا الناس جميعا . فقط جعلهم يلمعون ويبرقون فى ضوء الذهب . . إنهم فى حاجة إلى مال ، وحاجتهم إلى المال جعلتهم يبيعون كرامتهم ، جعلتهم يعيدون قانونا كانوا قد عاشوا تاريخهم كله من أجل إلغائه وهو قانون حكم الإعدام . بالفلوس أعيد القانون ، وبالفلوس طبقوا القانون على مواطن لا يعرفون ما ذنبه بوضوح . . .

وعندما راح أهل المدينة يحفرون قبرا للمحكوم عليه بالإعدام، نسوا أنهم يحفرون قبرا لأخلاقيات المدينة ـ للأخلاقيات الرسمية . . .

ولم تشأ بطلة مسرحية «زيارة السيدة العجوز» أن تطبق قانون الإعدام على الرجل، وإنما عفت عنه في آخر لحظة. واستراح الناس، ولكن الناس لم يتنبهوا إلى أنها أنقذت رجلا واحدا، ولكنها شنقت أهل المدينة كلها في حبال السفالة والنذالة . .

وفي مسرحية «هبط الملاك في بابل» كان لابد أن يبقى الناس على سفالتهم . . ولذلك يجب أن تعود الفتاة إلى العدم . . إلى المجهول . . المهم ألا تكون !

* * *

وفي مسرحية «الشهاب» لديرنمات أيضا وجدنا بطلها فنانا أديبا كبيرا حائزا على جائزة نوبل .

وبعد أن أعلنت الصحف والإذاعة أنه مات، قام من الموت . . ليموت الناس حوله من الخوف والعار والجهل . .

فالطبيب الذي أعلن وفاته، أغرقه العار . .

ورجال الدين الذين صلوا من أجله، أغرقتهم المفاجأة والمعجزة . .

وابنه الذي ورث كل ثروته ومؤلفاته يدرس قوانين الوراثة، ويفاجأ بأن والده قد أحرق كل شيء . . فيموت الابن من الصدمة . .

فعندما فوجئ الناس جميعا بأن الأديب الذي مات بعث حيا، انزعجوا. ففي موته حياة لهم، وكرامة لهم، فحياته هي المبرر الوحيد لأن يعيشوا كالموتى، لأن يعيشوا في أكفان الهوان والعار !

وإن واحدا فقط استطاع أن يعدم عالما، أن يهلك دنيا . .

وفي مسرحية «الشهاب» هذه نجد أن ديرنمات فنان مهندس. فهي مسرحية متناسبة الأطراف، وهي في الوقت نفسه تلقي أمامنا ـ وبكل تواضع ـ عقدا فنية تصلح لأن تكون مسرحيات كاملة .

وديرنمات يتناول فى هذه المسرحية معجزة إحياء المسيح للعازر بعد وفاته أربعة أيام كما جاء فى إنجيل «يوحنا» ويتناول ديرنمات هذه المشكلة ويناقشها . ما الذى حدث لو أن إنسانا لم يستطع أن يموت؟

إن هذا الإنسان ـ هو أديب حائز على جائزة نوبل فى الأدب . مات ، أو حاول أن يموت ، ولكنه لم يمت ، فجاءت حياته باهرة حارقة فاضحة أيضا . وهو كما جاء فى الفصل الأخير من هذه المسرحية :

« . . إن ضوءك نافذ . . وسقوطك مروع . . لقد مزقت كل شيء فى طريقك . . » ولهذا كان هذا الأديب «كشهاب» سقط على الأرض من العالم الآخر . . فأضاء وفضح وأحرق . . ثم إنه فى الوقت نفسه لم يمت .

ولم ينس هذا «الشهاب» الرائع المروع أن يدعو إلى الحياة وحب الحياة . . ولم ينس أن يسخر من نفسه ومن غيره . . وعندما ينزل الستار يصرخ بغير دموع : « أريد أن أموت» . . ولكنه يظل شهابا لا يحترق ، وإنما يحترق كل من حوله ويبقى هو نورا ونارا لا ينقذه إلا نزول الستار ونهاية المسرحية !

وهذا المعنى يتكرر كثيرا فى مسرحيات وروايات ديرنمات ، فهو مفتون بهذه اللحظة التى يتحول فيها كل شيء إلى شيء ضعيف . . . أو إلى لا شيء . . والسبب هو وجود شيء قوى ، وجود حقيقة صلبة . هذه الحقيقة تنبت من الأرض أو تهبط من السماء ، أو هى ضمير الناس . .

وهذا الموقف الجمالى والأخلاقى الذى ظهر فى مسرحية «هبط الملاك فى بابل» قد تناوله الأديب الفرنسى «جان جيرودو» فى مسرحية ترجمتها أنا بعنوان «عندما يكون للرجل ألف عين» ، وعنوانها الأصلى هو« من أجل لوكريسيا» . ولوكريسيا هذه سيدة فاضلة فى مدينة منحلة ، فوجود هذه السيدة فى المدينة قد حول كل الزوجات إلى خائنات ، وكل الأزواج إلى مغفلين . إن وجودها فى المدينة يجعل العار والفضيحة هما الهواء المسموم الذى تعيش فيه المدينة ، ولذلك لابد من التخلص منها ؛ لأنها عبء على ضمير الرجال ، وعبء على شرور النساء .

وفى مسرحية جيرودو هذه نجد أن لوكريسيا هى زوجة أحد القضاة ، وهى وحدها التى تعرف أسرار كل النساء وكل الرجال ، فكل الناس أمامها عراة

مفضوحون . وأرادت المدينة أن تستريح من نظرات المرأة التى تعرف كل شىء . . . فاستدرجوها إلى الرذيلة، إلى الفضيحة . . ليتساوى الجميع ، فلا يجرؤ أحد أن ينظر إلى أحد؛ الكل فى الهوان والشر والرذيلة سواء . .

ولكن الفتاة الجميلة فى مسرحية «هبط الملاك فى بابل» تحب شيئا لا وجود له، وتحب إنسانا وسيما، قد ضاقت بها المدينة وضاق بها الملك والشعب ورجال السياسة والدين . . ورأوها مصدر تعاسة الدنيا . . فطردوها من البلاد . . وألقوا بها فى الصحراء .

إن الأرض رفضت هدية السماء !

فالملاك عندما نزل فى بابل، هبطت بابل نفسها . . انحطت . . أحست بسفالتها . . أحست بهوانها ونفاقها . .

لأن الملاك عندما هبط إلى بابل، أشاع النور والصدق، فانكشف كذب الناس وضعفهم وغرور الملك ورجال الدين . .

فليس الملاك هو الذى هبط، وإنما بابل هى التى هبطت إلى ما تحت أقدام الإنسانية .

هبطت .

برجا . .

وملكا . .

وشعبا !!

* * *

أما بطلة «هى وعشاقها» فهى كل هؤلاء الأبطال .

إنها القاتلة والضحية .

وقد أطلق عليها المؤلف اسم «غانية بابل» .

وهى بابل التى تهدمت .

وهدمت الجميع !

شباب شباب (*)

ليس فى الدنيا أتعس من أغنى رجل فى العالم - قالها أغنى أغنياء العالم: هوارد هيوز.

وهو لا يريد أن يثير شفقة أحد عليه - فليس هذا ممكنا، فالقلوب التى اهتزت بالحقد عليه لن تلين بالعطف عليه - ولكنه يريد أن يجعل العالم كله شاهدا على عجزه عن إنقاذه من مرض خطير اسمه: الثراء الفاحش..

فهذا الرجل لا يجد شيئا.. لأن كل شىء موجود، فالذى يجد هو الذى يبحث، هو الذى يطلب، هو الذى يأمل ويشتاق ويحن، وكل هذه الكلمات لا معنى لها؛ لأنه يملك كل ما يريد، ولأنه ليس فى حاجة إلى أن يقول أو يشير؛ فرغباته معطلة وأطرافه مقطوعة، أو كأنها مقطوعة لأنها بلا ضرورة.

وهو لا يجد الصدق ولا يجد الكذب، ولا يجد الحب ولا يجد الكراهية. فكل شىء رهن إشارته.. أو أنه ليس فى حاجة إلى إشارة..

ولم يكن كاذبا هوارد هيوز عندما قال فى إحدى المرات: إن كلماتى التى لها معنى هى التى أوجهها لكلبى فى الصباح.. إنه فى بعض الأحيان يحتاج إلى أن أشرح له!

وكما فى الدنيا درجات من الثراء والفقر، فهناك درجات من هذا الشعور بالوحدة أو الوحشة، أو العزلة أو الانقطاع عن العالم حولنا..

(*) مقدمة كتابى: «شباب شباب».

وقد أطلقنا على عصرنا هذا عشرات الأسماء، ولكن من بين أصدق هذه الأسماءأن نقول: إنه عصر الإنسان الوحيد . . أي الإنسان الذى يجد نفسه وحده بعيدا عن كل أحد . . أو أنه مع الناس، ولكن الناس فى ناحية وهو فى الناحية الأخرى.

ولكن لماذا؟ لأن الناس كثيرون، ولأن هموم الناس كثيرة . . ولأن كل واحد يستطيع أن يحمل إناءه على رأسه وأن ينشغل بمتى ينكسر الإناء أو يطير من فوق رأسه . . أو يطير رأسه أيضا . .

انظر إلى الناس عند محطة الأتوبيس . . كثيرون . . وهدفهم واضح، ولكن وضوح الهدف، لم يعطهم شيئا من الارتياح. ورغبتهم الموحدة لم تجعل ملامحهم واحدة، ولا التعبير عنها واحدا . . انظر إلى هذه التعاسة على وجوه الناس الواقفين معا، الجالسين معا، المنتظرين معا. كأنهم عندما يصعدون الأوتوبيس ينتقلون من رصيف منخفض إلى رصيف مرتفع، وكأنهم عندما حققوا رغبة الركوب، لم يصدقوا ما حدث، فلا شىء من الارتياح على وجه أحد، وكأنهم وهم فى داخل الأوتوبيس ينتظرون أوتوبيسا آخر!

كأن كل واحد يشعر بالوحدة ويريد أن يكون مع أحد من الناس أو . . آحاد من الناس، ولا يدرى أنه ليس وحده، وأنه مع غيره، ولكن هذا «الوجود مع» الغير لم يسحب منه شيئا من القلق . .

انظر إلى الناس وقد جلسوا أمام التلفزيون . . إلى الأسرة الواحدة . . لا كلام، لا علاقة. كأنهم يجلسون متجاورين وبينهم جدران من الزجاج تفصل إحساسهم ومشاعرهم . . ولذلك لا يسمع أحدهم الآخر، أو لا يريد، ولا يشعر به. أو يزهد فى ذلك . .

وعندما كتب أديب فرنسا يؤنسكو يقول: إن الناس يفضلون أن يظهروا على المسرح حيث الناس كثيرون، ويرفضون الجلوس فى الصالة حيث لا أحد ـ هذه العبارة كان يعنى بها أن الناس على المسرح معا، لأنهم فى حوار مترابط ويشعر بعضهم ببعض . . أما المتفرجون وهم كثيرون فلا يشعر أحدهم بالآخر، إنهم معا

فى المكان . . ولكن كل واحد فى حاله . . كل واحد مثل «بيضة امتلأت واكتفت بذاتها» . .

وعندما يبلغ الإنسان أقصى درجات العلم الحديث، ما الذى فعله؟ إنه أطلق الصواريخ والسفن إلى الفضاء، ولكن من الذين أطلقهم؟ إنه أطلق عددا من الرجال، هؤلاء الرجال ينطلقون وحدهم . . ويندفعون بسرعة هائلة نحو الظلام والصمت والموت . . إنها أقسى أنواع الوحدة والوحشة التى عرفها الإنسان . . ويكفى أن تتصور أن رائد الفضاء هذا ليس إلا جنينا وضعوه فى بطن أم من المعادن . . هذا الجنين لا حول له ولا قوة . . وإنما هو يستمد طعامه وشرابه وسمعه وبصره من الأرض . .

إن سفينة الفضاء هى هذا السجن الأنيق . . هى هذا «الرحم الإليكترونى» . . وعلى رائد الفضاء أن يقطع الليل والنهار وحده تماما . . وحده يطلع ووحده يهبط إلى المحيط . . ووحده يهبط إلى القمر . .

إن على الأرض مائة ألف من العلماء يعملون من أجل أن يكون الإنسانا واحدا وحيدا وحدة مطلقة . . إنهم يعملون من أجل تجريده من الإنسانية والحياة الاجتماعية . . فهم يضعونه فى الماء البارد والساخن والضغوط العالية والمنخفضة . . وفى مجالات جاذبية وفى مجالات بلا جاذبية . . ويسلطون على عقله وقلبه ومعدته وأحشائه آلاف العيون . . فإذا أصبح حيوانا آليا تماما، أطلقوه لخدمة الإنسان، ككل حيوانات المعامل مثل الكلاب والقطط والفئران . .

وأكثر رواد الفضاء مات قتيلا . . أو انسحب أو أصيب بالجنون، لأن هناك درجات لاحتمال الوحدة الموحشة، ولكن رواد الفضاء تجاوزوا قدرات الإنسان، الذى هو «حيوان اجتماعى بطبعه» - كما قال الفيلسوف أرسطو من ألوف السنين!

ويوصف هذا العصر الذى نعيش فيه بأنه عصر الطفل اليتيم أو الابن اللقيط، أى الذى لا يجد والديه عندما يحتاج إليهما، أو إذا وجدهما فإنهما مشغولان عنه. فليس اليتيم هو الذى مات أبوه، ولا اللقيط هو الذى عرف أمه، ولم يعرف أباه . . أو الذى احتضنه أحد الملاجئ، فقامت المدرسات والمدرسون بدور الأب، وأعطوه

اسما طبيعيا، وحذفوا من شهادة ميلاده أنه بلا أب ولا أم، وإنما اللقيط هو الذى يشعر أنه غريب فى بيته، وأنه غريب بين أخوته، وأنه غريب بين غرباء . .

ففى العصر الذى يعمل فيه الرجل والمرأة، وفى لحظات الحظ يولد الأطفال، ليس هناك وقت كثير لتربية الأطفال. وقد يظهر فى البيت أكثر من خادم وخادمة، ولكن الأب ليس هناك، والأم مشغولة بالبحث عن الأب أو عن بديل عن الأب . . أو شعور بالقرف من كل شىء اشتركت فى إنتاجه مع الأب.

والمجتمع الأمريكى أحسن نموذج لذلك، فالأطفال يفتقدون الأبوة والأمومة، ولذلك يهربون من البيت، وينشغلون مع الأولاد والبنات فى سن واحدة لتكوين أسر جديدة يقوم فيها الابن بدور الأب، فيعطى لابنه الصغير ما افتقده أو يقوم فيها الزوج الشاب بدور الأب لزوجته الشابة، وتقوم هى بدور الأم له . .

إنهم يحاولون أن يعوضوا هذا النقص الهائل فى الموارد الطبيعية لقلبى الأب والأم معا . . وليست أساليب الهروب المختلفة فى أوروبا إلا محاولة للعثور على الحنان خارج البيت . .

وليست هذه المخدرات إلا وسائل كيماوية لابتكار جنات مزيفة. فالولد الذى لم يجد الجنة فى بيته، فإنه يبحث عنها خارج البيت، وإذا لم يجدها فى زوجته، فإنه لا يكف بحثا عنها . . حتى يجدها أو يموت هو يحلم بها . .

والذى يقرأ شعراء شباب الهيبيز أو الأدباء الصاخبين فى أمريكا، والأدباء الساخطين فى أوروبا فإنه يجد طريقا واحدا وهدفا واحدا: أين الجنة وأين بابها؟

ولن تعود المرأة إلى البيت، ولذلك سوف تحاول أن تكون أما، وفى الوقت نفسه سوف تعجز عن القيام بدور الحضانة أو بدور الحنان، والحنان هو الحرارة الطبيعية التى ينضج فيها الطفل، ولا يغنى الطفل عن أمه ألف مربية وألف زجاجة لبن وألف لعبة ومليون قبلة من مئات الشفاه . .

ولذلك سوف تكون هناك أمهات دائما، وسوف تكون الأمهات محرومات من الأمومة ومحرومات من الطفل . .

فنحن فى عصر هذا الطفل الذى يولد من أبوين لا يجدهما، وإذا وجدهما فليس عندهما وقت كثير له . . وعلى الطفل أن يقفز من الطفولة إلى الرجولة بسرعة، أى يجب أن ينمو، ويظل طفلا فى أعماقه.

إن أحد علماء النفس عندما درس تاريخ هتلر - وهو ابن غير شرعى - قال إنه لو عرف اللعب وهو صغير، ما كانت لعبته ملايين الأجساد البشرية!

إن عددا كبيرا من المجرمين العاديين قد حرموا الأب والأم، ولذلك كان عدوانهم على كل أب وكل أم، أو كل طفل له أب وأم . .

صحيح أن عددا كبيرا من اليتامى واللقطاء والأبناء غير الشرعيين قد تفوقوا على غيرهم من الملايين، ولكن الشعور الطبيعى عند الطفل المحروم أن يخطف ما فى يد الآخرين، إلا إذا أدركته المبادئ الأخلاقية والدينية فمنعته من أن يكون مجرما . .

وعدد قليل من الممتازين أحسوا بهذا الحرمان فارتفعوا فوقه، وكأنهم أرادوا أن يكون ملايين المعجبين بهم هم ملايين الآباء والأمهات والأخوة.

ولا يمكن حصر اللقطاء والأبناء غير الشرعيين الذين لمعوا فى تاريخ الإنسانية؛ ففى عالم الأدب والفن: ألكسندر ديماس الصغير وبوكاتشيو وأبولونير ولوى أراجون وجان جينيه والموسيقار فاجنر وزوجته ابنة الموسيقار ليست ودافنتشى وسارة برنار وصوفيا لورين وفرانسواز هاردى. وفى السياسة: هتلر وفيلى برانت وأرنست بيفن وإيفا براون . . وكثيرون غيرهم فى الطب والفلك والهندسة . .

إنهم جميعا أحسوا بهذا الشىء الأليم: أنهم وحدهم، وأنه لا أحد إلى جوارهم، ولا حق لهم فى أب أو أم، وأنهم «دون» الناس جميعا؛ فليست لهم بيوت وحرمات. وأبواب ونوافذ. ولا يستطيع الواحد منهم أن يقول: عمى وخالى وخالتى . . ولكنهم بعيدون عن الناس وحرموا من أن تكون لهم قرابة أو أصالة أو شجرة أنساب . . أو بيت العائلة . .

ولكن غريزة حب البقاء تحولت إلى ينبوع عبقرى ارتفع بهم من مجرد البقاء إلى التفوق على الآخرين . . أى إلى البقاء أطول وأعرض وأعلى من الآخرين . .

وفى العصر الحديث لم يعد المجتمع الأوروبى يستنكر الابن الذى جاء من غير زواج . . فلا فرق بين ابن الحلال وابن الحرام؛ فكلاهما ابن، ولذلك له الحقوق نفسها. ثم لا فرق بين الذى له أبوان، وبين الذى له أم وليس يعرف أباه . . فنحن جميعا نعيش فى عصر لا يجد فيه أحد أبا أو أما . . أو إذا وجدهما فهما غائبان بالروح حاضران بالجسد . . فكل الناس سواء: يتامى أو لقطاء، وهذه هى الحياة الحديثة، ولا رجوع عنها!

وفى هذا العصر الذى تقدم فيه العلم النظرى والتطبيقى - انتشرت على أطراف الصحارى الرملية فى أمريكا والجليدية فى روسيا وعلى قمم الجبال الأوروبية وفى كهوفها، تلك الصوامع البيضاء المكيفة الهواء، تلك المعامل التى يعيش فيها العلماء يبحثون. إن هذه المعامل أشبه بصوامع وأديرة الرهبان والمتصوفين.

إن هؤلاء المتازين من أبناء العصر الحديث يعيشون فى رهبانية علمية . . أو يعيشون فى هذه السجون المكيفة الهواء والضوء والضغط، وتحرسهم الدول كأشد الناس شراسة فى الإجرام . . أو كأنهم أعداء الدولة!

فنحن فى عصر الصوامع الإلكترونية . . وفى العالم مئات الألوف . . بل ملايين الممتازين يعيشون فى هذه السجون الانفرادية من أجل البحث عن الحقيقة . . إنهم يعيشون فى أقفاص من حديد تشبه أقفاص الأسود والنمور فى حديقة الحيوان . . ولهم أرقام ولهم علامات مميزة، وممنوع الاقتراب منهم، والذى يقترب منهم تراقبه الدولة، وتحسب حركاته . .

ولكن هذه العزلة إرادية . .

أى أن الإنسان أرادها لكى يصبح قادرا على العمل أفضل، ولن يتمكن من ذلك إلا إذا انعزل عن الناس . . وهو أشد ما يكون شوقا إليهم، ولكن المعادلة صعبة: الكثير من الناس يساوى القليل من العلم، والقليل من الناس يساوى الكثير من العلم. وقد اختار هؤلاء «السجناء الممتازون» العلم الكثير، ولذلك عاشوا بعيدا

عن متناول الناس . . ليس الواحد منهم مطرودا، ولكنه كالمطرود، ليس منفيا ولكنه كالمنفى .

ثم إن هذه العزلة هى الشرط الوحيد لضمان استمرار البحث واستمرار الحياة . . ففى عالم الحيوان تجد الأنثى تنعزل تماما عن بقية القطيع لكى تلد . . فإذا ولدت ظلت إلى جوار وليدها حتى يكبر . . ثم عاودت حياة القطيع . . فالعزلة مقدمة الولادة وشرط لبقاء المولود .

والذى يفعله العلماء، يفعله الفنانون أيضا . إنهم ينزلون إلى بحر الحياة الصاخب يغتسلون وتمتلئ عقولهم وقلوبهم . . فإذا جاءت لحظات الإبداع انزووا وانعزلوا . . وأقفلوا الأبواب والنوافذ . . وباعدوا بينهم وبين الناس . . إنهم يختارون عذاب الوحدة، لأنه شرط الولادة . . مع أنهم فى الوقت نفسه يحبون الآخرين ويحنون إلى الناس . . فهم اجتماعيون وهم أزواج وآباء وأبناء وأسرة واحدة . . ولكن لا بد من الصومعة . . لابد من الحياة عند أطراف الصمت وكهوف الهدوء . .

إن المثل الأعلى هو حيوان اللؤلؤ . . ذلك الكائن الضعيف جدا الذى احتمى تحت شفتين من المحار أى من الكالسيوم اللامع . . إن هذا الحيوان عندما يتفتح ليتغذى . . تدخل بعض الأشياء الصغيرة جدا العالقة فى الماء إلى جسمه الناعم الرقيق فى داخل هذه القوقعة . . وهو لا يقوى عليها . . فترتفع درجة حرارته ويمرض . . وينطوى على ألمه . . ويظل يبكى – نعم يبكى . . فهو يفرز مادة اللؤلؤ البيضاء اللامعة حول هذا الجسم الصغير الغريب الذى دخل إليه من البحر، ثم يبعد عن الشاطئ . . وعن سطح الماء . . ويظل معلقا هادئا كأنه مشنوق . . وتمضى الأيام والشهور والسنوات وهو يفرز ألمه الأبيض الشفاف . . وبعد ذلك تمتد إليه يد إنسان تفتح شفتيه وتستخرج من أحشائه حبة اللؤلؤ . .

هذه الحبة الجميلة، التى قال عنها أجدادنا إنها دموع الملائكة، تحسده عليها كل حيوانات البحر . . تحسده على حبة اللؤلؤ، وتنسى مرضه ووحدته ووحشته فى الماء . . وعجزه عن أن يعيش مثل سمكة أو ينطلق مثل حوت . .

وكلنا هذا الحيوان المسكين، الذى لا ينظر الناس إلا إلى الحبة اللامعة التى تخرج من أحشائه وأحشائنا . . أما كيف تكونت ومن أى شىء تكونت، وأنها نهاية حيوان أفرزها ليموت بعدها، فليس هذا مما يشغل الناس!

. . كل هذا العذاب من أجل أن يموت محسودا من الجميع، دون شفقة من أحد .

ولو خيروه ـ وخيرونى ـ بين أن أكون مثيرا للشفقة أو مثيرا للحقد، لمددت يدى وأرجلى استدفىء على أحقاد الآخرين!

قلوب صغيرة (*)

كيف تنظر إلى ملابسك وأنت صغير ؟ . .

كيف تسمع حكايات طفولتك من أمك أو من جدتك ثم تضحك؟

ولكن ما الذى يضحكك؟ الذى يضحكك هو أنك أمام قصص إنسان آخر . . كان طفلا وكان لا يعرف كيف ينطق الحروف وكان لا يحسن تقدير كل شىء . .

ولكنه فى ذلك الوقت كان إنسانا صغيرا شديد الحساسية سريع الإدراك . .

وعلى الرغم من أن هذا الإنسان هو أنت، فإنك تنظر إليه كأنه إنسان آخر! هل صحيح كانت ملابسك قصيرة إلى هذه الدرجة ؟ . . وحذاؤك كان فى طول أصبع يديك ؟ . . كل ذلك صحيح، ولكنه غريب عنك الآن .

وهكذا نظرت إلى كتابى هذا عندما عاودت قراءته لنشره للمرة الثانية . . إن كل ما فيه دار فى رأسى طويلا . . وجلست أسجله يوما بعد يوم . . وأنا مثل عبارات هذا الكتاب، شديد الحرارة والحماسة . . أرى الدنيا كلها أقرب مما هى الآن . . فأنا أستطيع أن أقول كل ما أريد . . وأستطيع أن أحكم على كل الناس وفى كل القضايا . . لا خوف . . لا احتراس . . هذا رأيى، وفى ذلك الكفاية، وأنا المسئول عن كل ما أقول. وقد غضب منى الكثيرون، ولكن هذا الغضب طبيعى . . أى من الطبيعى أن يغضب الناس مما أقول وأن ينزعجوا أيضا . ووجدت فى ذلك الوقت أنه لا حرائق بلا نار، ولا نار بلا دخان ولا انفجار بلا دوى . .

(*) مقدمة كتابى: « قلوب صغيرة » .

والشباب انفجار . . والانفجار نار وألوان ودخان وصراخ وضوضاء ورعب . .

ولم أكن فى ذلك الوقت إلا صورة أو انعكاسا لمئات الصور من الشباب فى مثل سنى وتجاربى وتطلعى وتعجلى وخوفى وتخويفى . .

واندهشت جدًا كيف أن عددًا من القضايا العاطفية والجنسية والاجتماعية كانت تشغلنى أكثر من أى شىء، وكيف أننى كنت أضع أصابعى فى النور بلا خوف؛ فلم يكن الخوف هو الذى يسيطر على أصابعى . . ولكن المهم عندى هو أن «أمسك» شيئا . . وأن أنظر إليه عن قرب وأن أزنه وأن أصفه وأن أقدمه، مهما كان الثمن. ولم أكن فى ذلك متسرعا ولا مستخفا ولا مستهينا بشىء واحد أو بأحد، ولكن تحددت حياتى - حاضرى ومستقبلى - فى أصبع . . أن أمسك بها ما أستطيع وأن أسجل بعد ذلك ما كان وما سيكون . .

وقد تغيرت الدنيا فى يدى وعينى . . وأجدنى متمسكا بكثير من آرائى فى الحياة والناس - وفى الحاضر والمستقبل، وفى هموم الشباب . . ويدهشنى أننى تنبهت إلى كثير من هذه المعانى فى سن مبكرة، ولما مضت السنوات أضافت إلى آرائى الكثير من اللحم والشحم والقدرة على الاستمرار.

لقد كان شيئا صغيرا. ولكن الصغير أصبح كبيرا . . كانت الهموم أصغر ولكنها أضخم . . كانت القلوب أصغر ولكنها أكثر نبضا وحيوية، وكانت الأشياء الصغيرة هى التى تدخلها، أما الأشياء الكبيرة أو الكبائر فإنها تسقط دونها . .

ولكن قلب الطفل وقلب الرجل كليهما قلبان . . والقلب يعلو ويهبط ويضطرب ويهدأ . . لأنه قلب . .

وهذه الصفحات الحارة الصارخة ليست إلا خفقات من قلب امتلأ بالحرارة، ثم كان حريصا على أن ينقلها للآخرين . . لأن القلب لا يدق وحده . . وإنما هو يستمد دقه وهداه من قلوب الآخرين . .

صحيح أن هذه الكلمات بإمضائى، ولكن المعانى والحرص على وضوحها وتقديمها وعرضها وتحميلها . . كل ذلك كان من أجل الآخرين . . فالإنسان يعيش وحده، ولكن فى الوقت نفسه مع الآخرين ولهم وحدهم . . وفى النهاية يتعايش معهم؛ يكون صوتهم، ويكون صداهم أيضا!

فى تلك السنة
هؤلاء العظماء ولدوا معًا (*)

نحن لا نعرف كيف يظهر إنسان عظيم، وما دام قد ظهر فلابد أن له دورا فى حياتنا. فإذا ظهر إلى جواره عظيم آخر، فلابد أن لهما رسالة، وهذه الرسالة هى دفع الناس إلى الأمام قليلا.

ولكن ما هى العلاقة بين العظيم وظروفه؟

وما هى الصلة بين ظهور عدد من العظماء فى بلد واحد فى زمن واحد؟

ولماذا ظهروا معا واختفوا معا؟

ثم ما معنى أن تمضى مئات السنين فلا يظهر أحد عظيم؟!

ففى القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت أسماء لامعة باهرة فى الحضارة الإغريقية، ثم لا نجد لهم نظيرا بعد ذلك حتى اليوم. فقد ظهر عندهم الفلاسفة هرقليطس وإنكساغوراى وفيثاغورث وإمبذوقليس وبروتاجوراس وأفلاطون وسقراط وأرسطو وهوميروس.

وفى سنة ١٨٨٩ وحدها ولد هؤلاء العظماء معا وفى بلاد مختلفة:

الشاعر والمفكر العظيم: عباس العقاد..

وعميد الأدب العربى: طه حسين..

والمؤرخ الكبير: عبد الرحمن الرافعى..

(*) مقدمة كتابى «فى تلك السنة هؤلاء العظماء ولدوا معا».

والأديب الساخر : إبراهيم المازنى . .

وولد أيضا : الفيلسوف الوجودى الألمانى مارتن هيدجر . .

والفيلسوف النمساوى : فتجنشتين مفكر الوضعية المنطقية . .

والفيلسوف الوجودى الفرنسى : جابريل مارسل . .

والأديب الفرنسى : كوكتو . .

والزعيم الألمانى : هتلر

والزعيم الهندى : نهرو . .

والمؤرخ الإنجليزى : توينبى . .

والزعيم البرتغالى : سالازار . .

والممثل الإنجليزى : شارلى شابلن . .

والشاعرة الروسية : إخما توفا . .

ومخترع الهليكوبتر البولندى : سيكورسكى . .

والفلكى الأمريكى : هبل . .

والرسام الإنجليزى : بول ناش . .

واكتشف فون ميرنج أن البنكرياس يفرز مادة البنسلين التى تمنع الإصابة بمرض السكر . .

وانتحر ولى عهد النمسا فى كوخ مايرلنج .

ومات الشاعر الإنجليزى براوننج . .

* * *

وفى سنة ١٩٦٤ مثلا توفى :

الأستاذ العقاد .

والأديب الأيرلندى بيهان .

وعالمة البيئة الأمريكية راشيل كارسون .

والعالم الرياضى النمساوى مخترع السبرنطيقا : نوربرت فينر .

والعالم الإنجليزى فلمنج : مكتشف البنسلين . .

* * *

وفى سنة ١٩٧٣ توفى :

طه حسين ، والمؤرخ توينبى .

وكذلك هؤلاء الأدباء : بيرل بيرك ، ونويل كوراد ، وباتريك هوايت ؛ الأسترالى الفائز بجائزة نوبل فى الأدب ، والشاعر الشيلى نيرودا ، والشاعر الإنجليزى أودن ، والفنان العظيم بيكاسو ، والفيلسوف الفرنسى جاك ماريتان . .

* * *

وفى سنة ١٩١٨ ولد :

الرئيس جمال عبد الناصر ، والرئيس أنور السادات .

والرئيس شاوشيسكو ، والمستشار هلموت شميت .

والأديب الروسى الفائز بنوبل فى الأدب : سولجنتسين .

وتاناكا رئيس وزراء اليابان . .

* * *

وفى سنة ١٩٧٠ توفى جمال عبد الناصر ، وشارل ديجول ، وكاتب الرحلات جون جنتر ، واثنان من الأدباء اليهود اللذان فازا مناصفة بجائزة نوبل هما : إجنون الإسرائيلى ونيللى ساكس السويدية ، والأديب دوس باسوس ، والرئيس السوفييتى ميكويان ، والروائى الألمانى ريماركه مؤلف «كل شىء هادئ فى الميدان الغربى» ، والفيلسوف الإنجليزى رسل ، والفيلسوف الألمانى كارناب .

واحترقت دار الأوبرا المصرية . .

* * *

وإليك المزيد من هذه «الصدف» التاريخية . . فهل لها دلالة؟ وهل هناك هدف . . خطة . . قرار . . وهل فى الحياة وفى الكون ما يوصف بأنه صدفة؟ !

ففى سنة ١٩٢٩ ولد :

الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات ، وأنشئت الوكالة اليهودية .

والأديب الإنجليزى الساخط جون أوسبورن .

وولدت الطفلة الهولندية «آن فرانك» التى روت تعذيب النازى لليهود وتحولت مذكراتها إلى مسرحية وإلى أوبرا . .

ومات الأديب النمساوى هوفمانشتال . .

ومات الزعيم الفرنسى كلمنصو . .

* * *

وفى سنة ١٩٢٧ :

مات الزعيم سعد زغلول . .

وولد الأديب الألمانى العظيم جنترجراس . .

* * *

وفى سنة ١٧٦٩ ولد :

الإمبراطور نابليون . .

وولنجتون القائد الإنجليزى الذى هزم نابليون فى موقعة ووترلو . .

* * *

وفى سنة ١٨٠٤ ولد :

الأديبة الفرنسية چورچ صاند . .

والناقد الفرنسى سانت ـ بيف . .

والزعيم البريطانى درزائيلى . .

والفيلسوف الألمانى الأعظم إيمانويل كنت . .

* * *

وفى سنة ١٨٠٥ ولد :
العالم الإنجليزى العظيم داروين . .
والرئيس الأمريكى لنكولن . .
والأديب الأمريكى إدجار بو . .
والأديب الروسى جوجول . .

* * *

وفى سنة ١٨١٠ ولد :
الموسيقار شوبان . .
والموسيقار الألمانى ليست . .
والشاعر الفرنسى ديميسيه . .

* * *

وفى سنة ١٨١٢ ولد :
الأديب الإنجليزى ديكنز .
وعملاق الصناعة الألمانية كروب .

* * *

وفى سنة ١٨١٣ :
ولد الفيلسوف الوجودى الدنماركى كيركجور .
والموسيقار الألمانى العظيم فاجنر .
والموسيقار الإيطالى فيردى .

* * *

وفى سنة ١٨١٨ ولد :
الشاعر الفرنسى بودلير . .
والأديب الروسى دستويفسكى . .
والأديب الفرنسى فلوبير . .

* * *

وفى سنة ١٨٢٨ ولد :

المسرحى النرويجى إبسن .

والأديب الروسى تولستوى .

والموسيقار الإيطالى روسينى .

* * *

وفى سنة ١٨٣٢ ولد :

الرسام الفرنسى مانيه . .

ومحمد على الكبير . .

* * *

وفى سنة ١٧٧٠ ولد :

الفيلسوف الألمانى هيجل . .

والموسيقار الألمانى بيتهوفن . .

* * *

وفى سنة ١٧٨٨ ولد :

الفيلسوف الألمانى شوبنهور . .

والشاعر الإنجليزى بايرون . .

والموسيقار الألمانى باخ . .

* * *

وفى سنة ١٧٩٥ ولد :

الشاعر الإنجليزى كيتس . .

والمفكر الإنجليزى كارليل . .

* * *

وفى سنة ١٧٩٧ ولد :

الموسيقار الألمانى شوبرت . .

والشاعر الفرنسى ألفرد دفنى . .

والشاعر الإنجليزى شيلى . .

والشاعر الألمانى هينى . .

* * *

وفى سنة ١٧٩٨ ولد :

الأديب الإيطالى ليوبردى . .

والرسام الفرنسى دلكروا . .

والفيلسوف الفرنسى أوجيست كونت . .

* * *

وفى سنة ١٧٩٩ ولد :

الأديب الفرنسى بلزاك . .

وأمير الشعراء الروس بوشكين . .

* * *

وفى سنة ١٨٠٢ ولد :

الأديبان الفرنسيان : فيكتور هيجو ، وألكسندر ديماس . .

* * *

وفى سنة ١٨٠٣ ولد :

الأديب الفرنسى مريميه . .

والموسيقار الفرنسى برليوز . .

والناقد الألمانى هردر . .

والأديب الأمريكى إمرسون . .

والمهندس إيفل الذى أقام البرج الشهير فى باريس سنة ١٨٨٩ . .

وتوفى : الشاعر الألمانى جيته . .

والفيلسوف الإنجليزى بنتام .

* * *

وفى سنة ١٨٣٣ ولد :

ألفرد نوبل صاحب الجائزة الشهيرة .

والموسيقار الألمانى برامز .

* * *

وفى سنة ١٨٤٤ ولد :

الفيلسوف الألمانى نيتشه . .

والموسيقار الروسى : رمسكى ـ كورساكوف . .

والأديب الفرنسى أناتول فرانس . .

* * *

وفى سنة ١٨٤٩ ولد :

الأديب السويدى سترندبرج .

والاقتصادى السوفييتى ليبرمان .

ومات : الموسيقار شوبان .

والأديب إدجار بو .

* * *

وفى سنة ١٨٦٠ ولد :

الأديب الروسى تشيخوف .

والموسيقار النمساوى مالر .

وتوفى الفيلسوف شوبنهور .

* * *

وفى سنة ١٨٧٠ ولد :

الزعيم الروسى الكبير لينين .

وتوفى الأدباء : ديكنز ، ومريميه ، وديماس الأب .

* * *

وفى سنة ١٨٧٤ ولد :

الزعيم الإنجليزى تشرشل . .

والزعيم الصهيونى حاييم فايتسمان .

والأديب الإنجليزى : سومرست موم .

والفيلسوف الألمانى كاسيرر .

والموسيقار السويدى شينبرج .

والشاعر الأمريكى روبرت فروست .

والمخترع الإيطالى ماركونى .

* * *

وفى سنة ١٨٨١ ولد :

الزعيم التركى أتاتورك .

والزعيم الإنجليزى : بيفن .

والرسام العظيم بيكاسو .

وتوفى الأديب كارليل، والزعيم دزرائيلى . .

* * *

وفى سنة ١٨٣٣ ولد :

الزعيم الإيطالى موسولينى . .

والزعيم الفرنسى لافال . .

الفيلسوف الألمانى ياسبرز .

ومات : كارل ماركس .

والروائى الروسى وتورجنيف .

والموسيقار الألمانى فاجنر . .

* * *

وفى سنة ١٩٣٤ ولد :

أول رائد للفضاء جاجارين .

والنجمة الإيطالية صوفيا لورين .

والنجمة الفرنسية بريجيت باردو .

* * *

وفى سنة ١٩١٠ :

مات تولستوى .

وولد الأديب الفرنسى الوجودى جينيه .

والأديب الفرنسى جان أنوى . .

* * *

وفى سنة ١٩١١ ولد :

نجيب محفوظ . .

ومات الفيلسوف الألمانى دلتاى .

والموسيقار النمساوى مالر .

والزعيم أحمد عرابى .

وحصلت العالمة الفرنسية مارى كورى على جائزة نوبل فى الفيزياء . .

* * *

وفى سنة ١٩١٦ توفى :

الشاعر الإنجليزى العظيم شكسبير . .

وتوفى الروائى الإسبانى العظيم سرفانتس .

* * *

ويوم توفى الخليفة عمر بن الخطاب ولد الشاعر الرومانسى عمر بن أبى ربيعة .

فقال الناس بعد ذلك : لقد زهق الحق وظهر الباطل !

ويوم توفى نابليون القائد العظيم ولد بودلير الشاعر الرجيم .

ويوم اغتيل الرئيس كنيدى مات الأديب الإنجليزى ألدوس هكسلى .

ويوم أطلق الرصاص على سعد زغلول توفى الأديب المنفلوطى . .

ويوم مات طه حسين توفى د. حسن عثمان ، العالم الجغرافى الذى ترجم «الكوميديا الإلهية» للشاعر الإيطالى «دانته» ـ دون أن يدرى به أحد !

والمؤرخ الإيطالى ماركو دولاونته عندما كتب عن الشاعر الإيطالى بتراركه قال : لم تشأ الطبيعة أن تلد عظيما غيره سنة ١٣٠٤ . . ادخرت له هذا العام والأعوام التالية لينفرد بالعظمة .

ولكنه لا يعلم أن رحّالا عربيا باهرا قد ولد معه ، هو ابن بطوطة !

ولكن هذه العبارة تدل على تفسيره للتاريخ، وهو أن القدرة الإلهية . . أو الإرادة التاريخية هى التى تصنع العظماء . . وتجعلهم واحدا فى سنة، أو عشرة فى سنة . . أو عشرة فى قرن، أو عشرة قرون . .

إنه ـ إذن ـ لا يرى أن «الصدفة» هى التى جمعت هؤلاء العظماء معا . . لأننا لا نعرف كيف «تقرر» أن يظهر: العقاد، وطه حسين، والحكيم، والمازنى، وعبد الرحمن شكرى، وسيد درويش، وأحمد شوقى، وحافظ إبراهيم، وعزيز أباظة، ومحمود حسن إسماعيل، وناجى، وعلى محمود طه، وصالح جودت، ورامى ويوسف وهبى، ومحمد عبد الوهاب، والسنباطى، والأخوان رحبانى، وأم كلثوم، والسنهورى، والتابعى، ومصطفى أمين، وعلى أمين، ونجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، والسباعى، وصلاح طاهر . . ثم إننا لا نعرف متى يظهر آخرون . . يملئون الفراغ الثقافى . . . ؟

وهل من الضرورى أن يظهر آخرون بالمقاس نفسه . . أو أن ظهورهم مرهون بظروفهم . . فكما أن لكل ظروف رجالا، فلكل رجال ظروف.

ثم هل هناك «صدفة» فى التاريخ؟

لا توجد صدفة!

. . وإنما الصدفة هى عبارة عن: سلسلتين من الأحداث . . كل واحدة تمشى مستقلة عن الأخرى . . وفى وقت ما تصطدم السلسلتان. فتكون الصدفة ـ هذا رأى الفيلسوف الفرنسى كارنو . .

ولكن يجب أن أوضح . . مثلا نفرض أن شخصا ينظر من طائرة هليكوبتر وقفت فى سماء القاهرة . . ونفرض أنه يرى شخصا خرج من بيته من إمبابة . . وهو يعلم مقدما أن هذا الشخص سوف يقطع المسافة من بيته إلى مبنى مجمع التحرير فى ساعة وثلاث دقائق وعشر ثوان . . ونفرض أيضا أن طوبة فوق هذا المبنى يحركها الهواء والمطر مليمترا كل يوم . . وأنه بناء على ذلك سوف تسقط بعد كذا دقيقة . .

وعند سقوطها فى الوقت المحدد لها، أى فى الوقت الذى يجعلها تفقد توازنها وتسقط «يتصادف» مرور هذا القادم من إمبابة . . هو يمشى فى حال سبيله لا يعرف شيئا عن الطوبة . . والطوبة تتحرك بانتظام لا علم لها طبعا بهذا الشخص . . وفى الثانية وفى المكان هبطت الطوبة فوق دماغه تماما ـ ومات!

الصدفة ـ إذن ـ لمن يرى حادث الاصطدام . .

ولكنه لا يعرف مسار الشخص ولا مسار الطُّوبة . . ولكن الذى ينظر من نافذة الطائرة . . أو الله سبحانه وتعالى هو وحده الذى يعرف كل ذلك . .

فهل هى صدفة؟

الجواب: لا . .

ولكن لماذا تصيب الطوبة هذا الشخص بالذات؟ لأنه مقدر له أن يموت هكذا. فنحن لا نعرف إلا أن الطوبة وقعت فوق دماغه وإلا أنه مات! . . وإلا أنهم قد ولدوا معا، تعاونوا، أو تقاتلوا . . ظهروا فى مسرحية اسمها: لعبة القدر . . أو القدر لعبتنا . . ثم تحدوا القدر أو استسلموا له . .

أو هل «الصدفة» أو «القاعدة» أن يظهر عظيم واحد فى أى وقت . . بل اثنان . . ثلاثة فى العلم نفسه أو الفن نفسه . . أو فى علوم وفنون مختلفة . . ثم ينحسر المد التاريخى . . ليرتفع بعد ذلك . . بعشرين سنة . . بمائة . . بألف . . ويكون العظماء بأشكال وألوان وأحجام وأدوار أخرى سوف نرى!

إن شيئا عجيبا لا نظير له فى التاريخ قد وقع فى كل الدنيا فى عام ١٨٨٩ . .

لقد ظهر عظماء كثيرون يدفعون الحضارة الإنسانية بقوة العقل والوجدان . .

أو بقوة الدمار القائم على أحدث ما اخترع العقل . .

أو بقوة الألم والندم على الذى كان، والأمل العظيم ألا يكون مرة أخرى . .

حاول معى أن ترى وتسمع، وأن تجد «خط سير» العظماء . . إلينا ومعنا وأمامنا إلى ما لا نعرف من إبداع الحضارة الإنسانية . .

عبد الناصر
المفترى عليه والمفترى علينا (*)

جاءت مقالات «جمال عبد الناصر المفترى عليه والمفترى علينا» قبل الانتخابات الأخيرة لمجلس الشعب. صدفة، وكان أثرها عنيفا. فكان على المرشحين الناصريين أن يواجهوا تساؤلات الناخبين: لماذا؟ وكيف؟ وإذا كان هذا صحيحا فكيف ننتخبهم على مذهب عبد الناصر؟ وكيف تسكتون؟

ولكن السبب الحقيقي للنشر هو مرور ٢٥ عاما على قرار الرئيس جمال عبد الناصر بفصلي من عملي بسبب مقال نشرته في «أخبار اليوم» بعنوان: حمار الشيخ عبد السلام. وهى مناسبة خاصة. والألم مثل الموت: خاص وشخصى. موتى أنا على مرأى ومسمع من الآخرين.. إنهم يشاركون من بعيد، ولكن الفقيد هو الذى يذهب وحده.. وكذلك الألم فى قلبى وفى عقلى.. وهو شخصى وهو نسبى أيضا، فأنت تضرب كلبك أو حمارك بالشلوت، ولا يقول: آه.. وتضرب خادمك بما فى يدك.. وفى الريف يجلس الرجل إلى جوار زوجته على الترعة ويخلع البلغة ويضربها على ظهرها، ويكون ذلك نوعا من الدلال.. ويكون رد الزوجة: جرى إيه يا عليوة؟ ليقول لها: يابت بأحبك!

وفى الريف يضرب العمدة أحد الفلاحين بالجزمة، فيقول: جزمتك شرف يا عمدة!

والرومانسيون يقولون: لا تضرب المرأة بوردة. أى أنك إذا رميتها بوردة، فكأنك رميتها بطوبة.. أى ضربتها، أى أهنتها..

(*) مقدمة كتابى: «عبد الناصر المفترى عليه والمفترى علينا».

وعشرات الألوف دخلوا السجون وخرجوا ناقصين وزنا وحجما وكرامة، ولم يتكلموا . . وبعضهم دخلوا السجون وتقلبوا على النار والبول ولحسوا الأرض ونهشتهم الكلاب، وخرجوا: شاكرين حامدين للرئيس جمال عبد الناصر أنه عذبهم، فهم يرون أنه الأخ الأكبر للنظرية الماركسية، وأنه يطبقها بعنف . . وللأخ الأكبر على إخوته الصغار حق الضرب والتأديب والتهذيب . .

وفى هذه المناسبة الشخصية إلى حد ما، انتهزت الفرصة لكى أعلن عن خطوط عامة لمقدمة دراسة عن عصر عبد الناصر الإنسان . . الحاكم الفرد . . وعن الأثر الاجتماعى والنفسى والأدبى والفلسفى لكل ذلك. ووجدت فى هذه الدراسة الكثير من المعانى التى درستها ولكن لم أستوعبها تماما . . لم أكن أعرف بالضبط ما هو المقصود بالهوان والذل والضياع والعبث، أى اللامعنى لأى أحد ولأى شىء . . إن أكثر معانى الفلسفة الوجودية قد تفجرت فى داخلى وحولى . . وفجأة انفتحت الدنيا وانقشعت على «حوش» قرافة سياسية واجتماعية ونفسية.

كيف؟ لا أعرف . . هل هى رؤية . . هل هى رؤيا؟ . . كيف درست الفلسفة الوجودية، وقمت بتدريسها فى الجامعة، وصدر لى أول كتاب عنها سنة ١٩٥٠؟ وكيف احتويتها واحتوتنى؟ ثم لم أكن أدرى معانى القلق والموت والحرية ومعانى العدم والانعدام . .

كل ذلك عرفته، والفضل للرئيس جمال عبد الناصر. ووجدت أن هذه هى مشاعر الآخرين الذين يمضغون ألسنتهم وشفاههم ولا يجدون ما يقولون، ولو قالوا فأين ينشرون، ولو نشروا فمن يقرأ ومن يسمع، ومن يشير إليهم بأن هذا هو الظلم والظلام . .

ووجدت من الضرورى لأى إنسان عنده مشاعر مدخرة . . مختزنة . . محتبسة أن يقول . . وقالوا وسوف يقولون . . لسببين:

السبب الأول: أن دراويش الرئيس جمال عبد الناصر قد صوروه لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يوحى - قالها د. محمود فوزى. فهو المعصوم عن الخطإ، وليس فى قاموسه إلا الحكمة إذا فكر وقرر ودبر. أما انكساراته وعثراته فخطوات على الطريق الصحيح، والخطوات أشكال وألوان . . فموسى عليه السلام ضرب

بعصاه البحر، فانشق نصفين، وهو يخطو على الأرض اليابسة . . سبحان الله . . والمسيح عليه السلام كان يمشى على الماء . . والبراق الذى حمل الرسول ﷺ كان يخطو من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . وعندنا فى الريف أولياء الله الصالحون ينتقلون من المنصورة إلى طنطا فى خطوة واحدة . . إنهم أهل الخطوة . . وأرمسترونج الذى نزل على القمر هو أيضا كان يخطو، وخطواته قفزات بسبب انعدام الجاذبية . . والذى يمشى على الحبل يخطو، والذى يمشى على المسامير وعلى النار وعلى رقاب العباد . . كلها خطوات . .

والرئيس كل حركاته خطوات مدروسة محسوبة، ولذلك فهو إلى الأمام دائما. فالنصر خطوة كبيرة إلى الأمام، والهزيمة نكسة إلى الأمام، أى خطوة صغيرة؛ فهو منتصر دائما. حتى عندما انتصر الجيش المصرى فى سنة ١٩٧٣ كان هو الذى وضع الخطة؛ فكان انتصارا عسكريا، وهزيمة سياسية، أى أنه الذى مات انتصر عسكريا، والسادات الذى لم يمت انهزم سياسيا. فعبد الناصر إذا حضر انتكس، وإذا غاب انتصر . . وإذا حضر انتصر قليلا، وإذا غاب انتصر كثيرا . .

وكما أن الخطوات أطوال وسرعات، فكذلك حروبه انتصارات بدرجات متفاوتة. كانت الثورة انتصارا له ولزملائه . . انتصارا كبيرا له وصغيرا لزملائه. والعدوان الثلاثى كان انتصارا شخصيا له . . فالعدوان الثلاثى لم يستهدف جيش مصر ولا شعب مصر، وإنما زعيم مصر . . «وإيه يعنى الجيش المصرى نعمل غيره» ـ كلمات الرئيس جمال عبد الناصر . . وإيه يعنى الشعب المصرى . . «ما هو على قفا من يشيل» ـ كلمات الرئيس عبد الناصر. ولكن هو شخصيا المقصود بالعدوان الثلاثى ـ كلمات شيخ مشايخ الطرق الناصرية.

فماذا حدث؟ لم يحدث شىء، فالرئيس ظل حيا يرزق بعد العدوان الثلاثى . . والنظام قائم على أربع . . وهزيمة ١٩٦٧ لم تكن هزيمة وإنما هى «وعكة» عسكرية . . عطس . . أو زكام . . سعال ديكى خفيف . . وبقى الرئيس جمال عبد الناصر . . وجاءت الجماهير تطالب بعودته، وفداك ألف جيش وجيش يا ريس . . وراحت الجماهير التى ساقها النظام تبوس القدم وتبدى الندم على غلطتها فى حق زعيم الغنم . . أما ممثلو الغنم فهم يرقصون ويطبلون فى مجلس الشعب . .

هذه النوعية من التراتيل الكهنوتية التى يرددها مشايخ الطرق الناصرية استفزازية لأنها إهانة للإنسان، وتجاهل لويلات ملايين المصريين والعرب، وصفعات وركلات لنصف مليون جندى كانوا يلحسون الرمال، ويعتصرون الماء من علب الصفيح بحثا عن قطرة ماء، ومئات الألوف من الضحايا ذهبوا فى «نزهة عسكرية» ولم يعودوا . . لقد ماتوا بحسرتهم، وعاش بغيظهم آباء وأمهات وزوجات وأولاد وبنات . .

وعندما أفاق المدنيون والعسكريون من هول المصيبة تساءلوا : من فعلها؟ من ارتكبها؟ من أجرم؟ من خان؟ من ضرب مصر كلها؟ لم يجدوا البطل صاحب القرار، وإنما سمعوا من يقول على لسانه : وهو ماله؟

أمال مال من؟ بطولة من؟

سمعوه يقول : لست أنا وإنما هو؟

ومن هو؟

المشير عبد الحكيم عامر الذى صوروه غائبا عن الوعى . . فغاب الجيش كله وضاع الطريق إلى الحدود المصرية . . وقالوا احتقارا لشأن عبد الحكيم عامر . . ليس هو بل هناك طراز من القادة من نوعية عبد الحكيم عامر . . مائة . . ألف . . عشرة آلاف . . الجيش كله . . المهم أنه ليس هو الذى فعل، وإنما هو مظلوم . . فقد اعتدى عبد الحكيم عامر على قداسته . .

ولكن ما السبب؟

إنها «الصداقة»؛ الرئيس وثق فى المشير إلى أقصى درجة . . أعطاه مفتاح مصر . . فأضاع مصر . . لماذا؟ لأن الرئيس لو كان هو الذى فى يده مفتاح كل شيء، لانتصرنا فى كل الجبهات . . ولدخلنا القدس صباحا وتل أبيب ظهرا . . وتوقف القتال ليلا : فقد انتحر اليهود فى البحر . . ولكن عبد الحكيم عامر قد خان الأمانة، وفضح قداسة الزعيم، فحقت عليه اللعنة حيا و ميتا!

والسبب الثانى : أن هناك قضايا كثيرة لم نصل فيها إلى حل، إلى رأى . كل قضايا الحرب والاستعداد لها والدخول فيها والخروج منها . . كل قضايا الاشتراكية

التعاونية والاشتراكية العلمية . . فعبد الناصر كان يريد أن يكون ماركسيا، لم يستطع. وعبد الناصر مشكوك فى إيمانه بالله وباليوم الآخر . . واحتقاره الظاهر لكل ما هو عربى ولكل رئيس على دولة عربية . .

وقضايا اليمن دخولا وخروجا، ومائة ألف شهيد، وعشرات البلايين من الجنيهات ذهبا . . والوحدة ثم الانفصال والهزيمة العسكرية . . ثم من كان صاحب القرار . . ثم انهيار صور البطولة وأحلام الشباب . . وإدارة طواحين الهواء فى الميكروفون وعلى الشاشة وفى الصحف، وتخبط الاجتهادات . .

ثم غياب الرئيس جمال عبد الناصر فى الستينيات . . كلها . . ابتداء من الوحدة حتى وفاته سنة ١٩٧٠ . .

فمنذ الوحدة مع سوريا ارتفع الرئيس جمال عبد الناصر إلى السموات . . نفخوه من أذنيه ومن عينيه، وليس كما ينفخ هو المعذبين فى السجون . . نفخوه حتى صار بالونا بطوليا فوق . . فرأى السوريين صراصير ورأى المصريين براغيث السوريون أكبر لأنهم أولاد الزوجة الشقراء الذهبية الشعر الزرقاء العينين . . أولاد الجديدة . . أما نحن فأولاد القديمة!

ويوم الانفصال كان أصغر فى الحجم من شعبى سوريا ومصر . . كان أصغر من مصر . . أصغر من منشية البكرى، وكان قبل ذلك أكبر من مصر ولذلك ضم لمصر سوريا والعراق واليمن والسودان وليبيا، ولم يبق أمامه إلا القليل ليحقق أحلام الإسكندر الأكبر، عندما نظر إلى السماء فسألوه، قال: أبحث عن مستعمرات جديدة.

أما الانفصال عن سوريا فقد أصابه بانفصال فى الشخصية . . بانفصام . . صار أكثر من واحد . . واحد يتكلم والثانى يلطم . . لقد اخترقه الانفصال . . وشقه نصفين . . فكانت الأصوات تخرج منه متداخلة . . كما تتداخل الخطوط التليفونية . . والموجات والقنوات . .

ثم جاءت الهزيمة العسكرية. وكانت النهاية. لقد تبدد الرجل . . وتشتت، وإذا كان الانفصال قد جعله اثنين يتضاربان . . فالهزيمة جعلته كثيرا . . انفرط . . تبعثر. وكان الكلام له ومعه والكتابة إليه تأكيدا للخيانة . . لأن صديقه قد

خانه . . لأن العالم كله قد تآمر عليه . . ولكن ما الذى استطاعه العالم؟ لا شىء . . إن الرئيس ما يزال فى صحة وعافية ، وما يزال قادرا على أن يحارب وأن يهزم وأن يسحق وأن يقود العرب من نصر إلى نصر . . فمن أجل ذلك ولد ، وفى سبيل ذلك يموت . . أو لعله لا يموت . . فهو قد ولد ليعيش إلى الأبد!

ولا تزال الهزيمة قائمة . . ولا يزال الإحساس بها حيا . الكارثة هى الحية ، وليس الرئيس جمال عبد الناصر . والهزيمة تتوالد ، وليس هو الذى يتوالد . والكلام عنه لا يمحو ظله الأسود على كل الأشياء . . ولكن تعيش المصيبة . .

ولأن المصيبة عنيفة ودامية ، وما تزال قادرة على أن تلد مصائب أخرى جديدة ، فإن انتصارات أكتوبر ١٩٧٣ لم تفلح فى القضاء عليها . . فقد جاءت هذه الانتصارات مثل حفلة زفاف عروسين فى غرفة الإنعاش . . لقد كان المرض صدمة عنيفة ، وكان العلاج صدمة أعنف!

ولا أحد يستطيع أن يقول لأحد : لا تقل آه . . إذا نظر إلى ذراعه المقطوعة أو إلى ساقه أو والده الذى غاب أو ابنه الذى لم يعد . .

آه لو اعترف أحد بالهزيمة وأخطائها . . آه لو قال أحد : أخطأ الرئيس خطأ فادحا ، ويطلب الصفح والعفو . .

ولكن أحدا لم يقل ، وإنما دراويش الناصرية ـ التى لا يعرف أحد ما هى بالضبط ـ يؤكدون أن سنة ١٩٦٧ كانت النصر . . وأن الضحايا قد تشرفوا بذلك . . وعلى آبائهم وأبنائهم أن يرقصوا فرحا ، ألم يروا نواب الشعب كيف يرقصون . . لقد أذيع ذلك فى «البرامج التعليمية» لكى يرى الشعب ويتعلم ويرتفع عن الألم السخيف ودموع الأطفال التى تذرفها الأمهات والآباء والأبناء . . وإيه يعنى مائة ألف شاب ماتوا من أجل الزعيم ، إيه يعنى؟ إن الفئران . . الفئران تفعل ذلك كل سنة وهى تنتحر من جبال النرويج وتلقى بنفسها فى المحيط من أجل زعيمها . . كل سنة . . لا كل سبع ، وإنما ثمانى سنوات؟!

ولأن العسكريين لا ينطقون . . يتلقون الإهانة ولا يشكون .

أما العسكريون على الجانب الإسرائيلى فقد كتبوا على هواهم كل شىء فى

كل اللغات . . وجعلوا جنودهم أبطالا . . وقادتهم أنصاف آلهة . . ولم يرد عليهم أحد!

* * *

وسمعت ما الذى قيل فى محافل كثيرة عن هذه المقالات . . ولماذا؟ وكيف؟

ولماذا سكت عنها حسنى مبارك؟ وهل هذه المقالات العنيفة كانت بالاتفاق مع الرئيس مبارك ؟ . . لابد أن يكون هذا التناول العنيف لعصر عبد الناصر بالاتفاق مع الرئيس حسنى مبارك . . وإلا كيف جاءت قبل المعركة الانتخابية؟ لابد أن يكون السبب فى ذلك أن الرئيس حسنى مبارك قد فضح «الطوق» الناصرى الملتف حول مؤسسة الرئاسة والحزب . . ولابد أن الرئيس قد صبر عليهم طويلا ثم كشفهم . . ولذلك كان لابد من ضربهم على رءوسهم ليفيقوا أو ليتنبه الشعب أيضا!

والحقيقة أن الرئيس حسنى مبارك لا دخل له فى كل الذى كتبت . . لا سألته ولا أطلعته على شىء قبل أن أكتب . . والرئيس مبارك صادق حين يتحدث عن حرية الصحافة، لا شك فى ذلك. لا تدخل ولا يتدخل ولا يحاسب أحدا عن الذى قال، حتى إذا ضاق بما كتبه فإنه يقول لى، ولابد يقول لغيرى أيضا: فلان هذا ليس منصفا، ولا هو عادل فى الذى كتب، ولكنه حر، ولن أراجعه . . وأنت لا تقل له شيئا على لسانى!

هذا أقصى ما يقوله الرئيس مبارك!

وفى يوم كنت أتناول العشاء فى بيت د. خيرى السمرة عميد كلية الطب فجاءنى د. يحيى الجمل، وقال لى: الناصريون تضايقوا من الذى كتبت، وقالوا لابد أن نذهب إليه ونقتله . . ولكنى منعتهم!

ولكنهم جاءوا بسيارة محملة ومدفوع لها فلوس أصحاب الملايين، أولاد عبد الناصر. وأطلقوا الرصاص على البيت . . وهددوا الحراس!

ولم أشأ أن أذكر ذلك للسيد زكى بدر وزير الداخلية . .

وفى مؤتمر صحفى للرئيس حسنى مبارك، حضره ثلاثمائة من الإعلاميين، وقبل أن يجلس على المنصة تساءل:

أين أنيس منصور؟

فرفعت يدى قائلا: أيوه ياريس.

قال: يا أنيس .. أرجوك .. فى عرضك .. كفاية المقالات عن عبد الناصر .. إنها تسبب لى صداعا، كفى، فكل رئيس له أخطاؤه .. كفى!

قلت: حاضر ياريس .. ولكنى انتهيت منها .. وبدأت سلسلة أخرى.

قال الرئيس: كفاية بقى!

وجلس الرئيس وجلست ..

ثم عاد يقول: للأمانة .. أنا كلمت أنيس فى بيته مرتين .. وتناقشنا .. ولكنه لم يستجب!

* * *

وفى مصعد نادى التحرير التقيت بالدكتور رفعت المحجوب، فقد كنا على موعد للعشاء مع الرئيس الأمريكى بدعوة من د. أسامة الباز، وبادرنى د. المحجوب: يا أخى المقالات التى كتبتها عن عبد الناصر لها أثر سيئ جدا على الناس .. كثير منهم تحول عن الحزب الوطنى إلى حزب الوفد .. وأنت السبب!

فقلت: ولماذا لا تكون أنت السبب؟!

وضحكنا. ثم عاد د. المحجوب واستأنف هذه المناقشة على مسمع من الأساتذة أحمد بهاء الدين وأسامة الباز ومصطفى الفقى ..

ونشرت صحيفة «الوفد» فى صفحتها الأولى نص هذا اللقاء وهذا الحوار. وأضافت أنه حتى فى خطاب د. رفعت المحجوب يوم افتتاح الدورة البرلمانية فقرة قصدنى بها.

وأقسم لى د. المحجوب أنه لم يقصدنى مطلقا ..

وقال لى صديق فى المخابرات العامة : إنه ليس صحيحا ما قاله د. رفعت المحجوب ولا حتى الذى قاله د. يحيى الجمل، فشرائح كثيرة من الرأى العام، أدهشتها المقالات وأذهلتها .. وآفاق كثيرون من نوم كاذب .. وانهارت الأسطورة!

* * *

والذين وصفوا جمال عبد الناصر بأنه يهودى الأصل، أظنهم يقصدون أنه أدى لإسرائيل خدمة جليلة عندما أعطاهم سيناء وقناة السويس والجولان والقدس والضفة وغزة .. ولو عاش جمال عبد الناصر لطالب اليهود بحقهم فى أرض «جوشن» التى جاءت فى التوراة ـ محافظة الشرقية؟!

والنكتة التى تقول إن اليهود قد أقاموا لعبد الناصر تماثيل فى كل مكان، مقصود بها أنه أدخلهم مصر من أوسع الأبواب .. فاستحق التمجيد والتعظيم!

وكان المرحوم كامل الشناوى قد اقترح على الصحفى الكبير محمود أبو الفتح صاحب جريدة «المصرى» التى أغلقها عبد الناصر ـ أن يقيم تمثالا فى كل أركان جريدة المصرى للأستاذ أنطون الجميل رئيس تحرير الأهرام .. لماذا؟

لأنه بسبب جمود الأهرام فى ذلك الوقت، انتعشت جريدة المصرى وانطلقت صحافة مصرية حديثة!

* * *

وسوف تنحسر موجة السخط على الرئيس جمال عبد الناصر، وفى الوقت نفسه نقوم بإنصاف الرئيس أنور السادات لقاء الإنجازات العظيمة التى حققها لبلاده: طرد الخبراء السوفييت، وتصفية مراكز قوى الناصرية، والانتصار فى حرب أكتوبر، وفتح قناة السويس، والأحزاب، ومعاش السادات، والتأمينات الاجتماعية، وانسحاب إسرائيل، والسلام معها، والانفتاح الاقتصادى، وحرية الصحافة، وقطع رجل زائر الفجر ..

وفى الوقت نفسه يأخذ كل زعيم حقه وحجمه .. وسوف تكون الأجيال القادمة أكثر تسامحا .. وأكثر انشغالا بمستقبلها .. ولن تعيش ماضيها خصما من حاضرها ..

ولن يمضى وقت طويل حتى ينزل الستار عن « العبث» السياسى . . والعبث التاريخى . . والعبث المسرحى أيضا ، وذلك بأن يعود المعنى إلى الكلمات والحركات . . ويعود المعنى إلى الإشارات والرموز . . ويعود الغطاء الذهبى لكل العملات والمعاملات . .

ويذهب الحكام وتبقى آثارهم على وجه مصر . . وتبقى مصر . ولن ترحم مصر ، فى أى وقت ، هؤلاء الذين رأوا وما نطقوا ، والذين قطعوا أصابعهم حتى لا يمسكوا أقلامهم ويقولوا كلمة الحق . . مهما كانت أليمة . . موجعة ، لهم أو لغيرهم .

والله على ما أقول شهيد!

عاشوا فى حياتى (*)

سؤال: هل تعرف فلانا؟

جواب: نعم أعرفه!

سؤال: هل سافرت معه؟

- لا . .

- إذن لا تعرفه!

* * *

وقال أوسكار وايلد الأديب الساخر: أنت لا تعرف امرأة، قبل أن تعرف جسدها!

* * *

سؤال: هل تعرف فلانا؟

جواب: لم أعرفه . . لأننى قريب جداً منه!

* * *

سؤال: هل تعرف فلانا؟

جواب: لا أعرفه . . فأين أنا وأين هو . . إنه بعيد جداً حتى لا أكاد أراه!

ومن الصعب أن تعرف إنسانا جيداً، إذا كنت تحبه . . فأنت تراه ولا تراه . . وإذا كنت تكرهه أيضا . . فأنت لا تحب أن تراه، فكيف تعرفه وأنت لا تراه . .

(*) مقدمة كتابى: «عاشوا فى حياتى» .

وأنت قد أسقطته من عينيك . . أو سحقته بعينيك . . أو أغمدت في قلبه رموشك . .

فالذي يحب كالذي يكره : لا يرى بوضوح!

ولكن لابد أن تحب ولابد أن تكره . . ولذلك فأنت لا تعرف الناس جيدا . . وإنما تعرفهم بالتقريب . . أو تعرفهم بعض الوقت . . وتحبهم بعض الحب . . وبعض الكره . . فأنت تعرفهم إلا قليلا!

والقرد في عين أمه : غزال . . إذا أحبته! وفي عينيها : قرد إذا كرهته! ولكل إنسان عدة صور :

صورتك كما ترى نفسك .

وصورتك كما تحب أن ترى نفسك .

وصورتك كما يراها الناس . .

فإن كنت أديبا أو فنانا فأنت تساوي ما تقدمه للناس ، فأنت تساوي كتبك أو لوحاتك أو موسيقاك أو تماثيلك . .

ولا توجد وسيلة أخرى لكي يعرفك الناس غير هذا الذي أبدعته ، أو عجزت عن إبداعه .

ولكنك لست في كل الأحوال قادرا على الإبداع . . فأنت تتعب وأنت تضيق . . وأنت تحب وأنت تمل . . وأنت على أعصابك كاتب وقارئ . . ولذلك فليست لك صورة واضحة لا عن نفسك ولا عن الناس .

وإذا أنت نظرت في المرايا . . فهناك مرآة تجعلك صغيرا ، وأخرى تجعلك كبيرا . . وثالثة تجعلك مقعرا . . ورابعة تجعلك محدبا . . وخامسة تجعلك أصفر اللون . . أبيض . . أحمر . .

ورأي الناس مثل هذه المرايا . . فأنت متعدد الألوان والأحجام والأوزان والأهمية والقيمة والأثر عند الناس .

وإذا سألت الناس، فأنت مثل الذى يسأل جميع المرايا . . فماذا لو نطقت جميع المرايا معا؟

سوف تسمع ضجيجا من النظريات، وضوضاء من العواطف . . وترى تلوثا من الأمزجة . . وكلها هى أنت فى عيون وآذان وأنوف وعقول وقلوب الآخرين!

وأنت لك وجهة، وأنا أيضا. وأنت على حق، وأنا أيضا. والذى يعجبنى فيك، هو الذى أحبه لنفسى . . والذى لا يعجبنى فيك، هو الذى لا أحبه لنفسى . .

والذى أقبله بالعقل، أرفضه بالقلب . . والذى أستريح إليه وجدانيا أنفر منه عقليا!

قال الفيلسوف الألمانى كارل ماركس: أنا آكل، إذن أنا موجود . .

وقال الفيلسوف الفرنسى ديكارت: أنا أفكر، إذن أنا موجود.

وقال الشاعر بايرون: أنا أحب، إذن أنا موجود!

وقال الأديب كافكا: أنا خائف، إذن أنا موجود!

وقال تولستوى: لن أكون حرا، حتى تموت زوجتى!

وكل واحد من هؤلاء يريدك أن تعرفه على هذه القاعدة، فهذا هو مفتاح الدهليز إلى أفكاره وأعماقه النفسية.

* * *

وفى حياة الواحد منا ألوف الناس . . قريبون وبعيدون . . يمرون دون أن يتركوا أثرا، كما تمر الرياح على أوراق الشجر، أو على رمال الصحراء . . أو يتركوا أثرا كما تمر السيارات فى الوحل . . أو كما تنفذ أشعة الشمس إلى الغرفة المظلمة . . أو كأعواد الحديد الساخن على بشرتك.

وقد يكون أقرب الناس إليك، أبعدهم عنك . . ويكون أبعدهم عنك أقربهم إليك . .

وقد يكون الشخص متواضعا، ولكنه عميق الأثر؛ أمى وأمك مثلا!

وقد يكون أكثر ثقافة وأوسع إدراكا: المدرسون مثلا . . ولكن لا أثر لهم.

وقد تقرأ كتابا قديما فيهزك . . وتقرأ كتابا حديثا، كما تقرأ صحيفة يومية لا تهزك . .

وقد يكون الكاتب الذى تقرأ له جميل العبارة عميق النظرة مسايرا للعصر يلقى الضوء فى كل مكان . . ولكنه لا يثيرك.

فقد يكون قد جاء فى الزحام، أو يكون قد جاء فى الوقت غير المناسب . .

فعندما كنت مشغولا بالأستاذ العقاد، لم أكن أقرأ لسواه . . لدرجة أننى لم أعرف أن هناك أدباء آخرين غيره فى مصر . . ولما قرأت مقالا لطه حسين بعد سنوات من متابعتى للعقاد، أدهشنى أن هناك أدباء آخرين . .

ولكن طه حسين جاء فى غير أوانه . . جاء بعد أن امتلأ عقلى بالعقاد، فلم أجد له مكانا . . ولم أقفل عقلى دونه . . وإنما أجلسته على بابى سنة . . وعشر سنوات . .

وأحزننى أننى لم أعرف طه حسين والحكيم والمازنى والرافعى وشوقى وابن المقفع والجاحظ وابن خلدون والحريرى وزكى مبارك إلا بعد ذلك بوقت طويل! تماما كما تتوافر كل الظروف المناسبة لنمو بذرة من البذور: الأرض والماء والهواء والشمس . . وسلامة البذرة، ولكنك ألقيتها فى غير أوانها . .

ويوم قرأت رواية «الحب والدسيسة» للشاعر الألمانى شيلر، لم أكن أعرف أن هناك قصصا وروايات مصرية أو عربية . .

ويوم عرفت الأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا، وقابلته وصادقته وقدمته إلى اللغة العربية، لم أكن أعرف نجيب محفوظ ولا قرأت له . .

عندما حفظت القرآن الكريم كنت فى السابعة من عمرى، وأنا لا أعرف معنى كلمة واحدة مما أقول . . وانتقلت من القرآن الكريم إلى قصائد المتصوفين وإلى مدائح الرسول . . فحفظت «البردة» للبوصيرى، وأنا لم أسمع بشوقى أمير الشعراء، ولا عرفت قصيدته «نهج البردة» إلا بعد عشرات السنين . .

وقرأت مئات الروايات المترجمة فى سلسلة «كتاب الجيب» من ترجمة الأستاذ عمر عبد العزيز أمين، ولم أقرأ رواية عربية واحدة، ولا عرفت أن هناك روايات عربية . .

عرفت تولستوى ودستوفسكى وبروست وشيللى وبيراندللو ودكنز وبلزاك - قبل أن أعرف أسماء الأدباء المصريين ، وكنت فى الثانية عشرة من عمرى .

هل كنت أعى ما أقرؤه؟ لا أعرف . . ولكنى أقرأ وأستمتع . . وأطلب المزيد . ويجىء المزيد فى صناديق وجوالات . . فقد كانت هذه الروايات رخيصة الثمن وتباع فى كل مكان . .

وعندما كنت طالبا فى الجامعة ، وكانت قوات الإنجليز فى مصر ، فى أثناء الحرب العالمية الثانية . . اشتريت عربة عليها مئات من الكتب الصغيرة الحجم التى كانوا يطبعونها للقوات البريطانية فى مصر . . وكانت هذه العربة تباع بمائة قرش - كل الحضارة الغربية بهذا المبلغ التافه!

وعرفت الفيلسوف الألمانى أوزفالد أشبنجلر ، فيلسوف الحضارة الغربية ، وقرأت ما كتبه أستاذنا عبد الرحمن بدوى عنه ، قبل أن أقرأ سطرا واحدا للمؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى . .

وقرأت للمؤرخ الإنجليزى توينبى قبل أن أقرأ لأستاذنا المؤرخ شفيق غربال ، وأستاذنا على إبراهيم ، وأستاذنا إبراهيم نصحى . .

وعبد الرحمن بدوى أستاذنا فى الفلسفة قد قدم لنا عشرات الأسماء فى الفلسفة والأدب والفن والموسيقى . . وفى زحمة هذه الأسماء الباهرة ، ضاع هو ، فلم نعرف أثره وقدره ، إلا بعد عشرات السنين . .

وقرأت للأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار ، قبل أن أقرأ سطرا واحدا للآنسة مى زيادة أو حتى للخنساء . .

وعندما قدمنى الأستاذ إحسان عبد القدوس على أننى «فيلسوف المستقبل» وأديب الوجودية الشاب فى سنة ١٩٥٠ ، لم أكن أقرأ لإحسان عبد القدوس إلا ما كتبه فى السياسة ، ولم أقرأ له رواياته إلا بعد ذلك بسنوات .

وعندما حفظت ديوان «أغانى الكوخ» للشاعر الرومانسى محمود حسن إسماعيل، لم أعرف مصطفى صادق الرافعى . . مع أنهما من مدرسة واحدة . . هذا رومانسى فى الشعر، وذلك رومانسى فى النثر . .

ولا أعرف إن كان الشاعر محمود حسن إسماعيل قد تأثر بما كتبه مصطفى صادق الرافعى فى كتبه: السحاب الأحمر وأوراق الورد ورسائل الأحزان . .

ولم أحفظ لمحمود حسن إسماعيل بيتا واحد من دواوينه الأخرى، وقد أذهله مرة عندما جمعنا لقاء أدبى أننى أسمعته معظم الديوان . .

وأنا لم أعرف الشعراء الرومانسيين محمود حسن إسماعيل والهمشرى وصالح جودت إلا عن طريق الشعراء الرومانسيين فى أوروبا: لرمنتوف الروسى، ونوفالس الألمانى، وليوبردى الإيطالى، ودى ميسيه الفرنسى وشيللى الإنجليزى . . قرأت لهم، ووجدت عندهم ما أريد واتجهت إلى أمثالهم فى لغتنا العربية . . فأحببت الأوروبيين، وأفسحت مكانا فى قلبى للمصريين . .

ولم أستطع أن أحب ابن الرومى، رغم إعجاب العقاد به . .

وإنما أحببت وأعجبت بالشاعر العظيم فى كل العصور: المتنبى . . فهو عبقرية أفسدتها الأخلاق . . أو فاسد الأخلاق . . وهو لا يقل احتقارا للناس عن احتقار أبى حيان التوحيدى والحريرى والجاحظ، والفيلسوف الألمانى ليبنتسى، والشاعر الإيطالى بتراركه، والأديب الفرنسى رابليه ـ والحق معهم . فهم أعظم من عصورهم، وأفقر من سفهاء زمانهم!

وبهرنى عدد من المؤرخين الأجانب . . بهرنى الأديب الفرنسى أندريه موروا، وقدرته الفذة على تحليل الشخصيات .

إن العقاد أبرع منه فى معرفة ملامح الشخصية التى سوف يدرسها . . ولكن العقاد بارع فى صناعة مفاتيح الشخصية . . إنه يعطيك مفتاحا صغيرا جدًّا . . فى عبارة واحدة . . وبسرعة تنفتح لك أسرار هذه الشخصية وإذا بك فى أعماق

أعماقها . . فالعقاد مهندس إلكترونى ؛ لا يطلعك على سر اهتدائه إلى هذا المفتاح . وهو يفضل أن يبهرك ، أن يقوم بدور «الحاوى» الذى تصفق له . . لأنه يحب أن يكون شخصا معجزا . . فيجعلك تراه خارقا للعادة!

ولكن أندريه موروا يعطيك مفاتيح كثيرة . . ومداخل عديدة . . وهو يصطحبك معه . . وتدور حول الشخصية وتستمع إليها . . وإلى الناس حولها . . ومن كلام الشخصية وحديث الناس . . وبين محبتهم له ، وكراهيته لهم . . وبين القصص . . والنوادر . . والفواجع تعرف الطريق إلى القلب وإلى العقل . .

وإذا كان العقاد مهندسا ، فأندريه موروا قارئ كف . . قارئ فنجان . . ضارب ودع . . قصاص أثر . . مفسر أحلام . . ولذلك فأندريه موروا أروع وأجمل وأمتع . .

وشخص آخر أسعدنى أن أعرفه إنه الكاتب الأمريكى الرائع : ول ديورانت . .

فليس فى اللغة الإنجليزية كلها شخص له عظمة وجمال وسحر هذا الرجل وزوجته . . فقد اشتركا معا فى مؤلفاتهما الأخيرة . . ولكن ول ديورانت انفرد بالأعمال الرائعة وحده : قصة الفلسفة الحديثة . . وقصة الحضارة بأجزائها الأحد عشر . . ومناهج الفلسفة . . ودروس فى التاريخ . . ثم ترجمة حياتنا . . أى حياتيهما الاثنين معا .

فهذا الرجل ديورانت قد أوتى من العلم والأدب والذوق ما لم يؤته أحد فى عصرنا . . ولذلك فهو مثل أعلى فى الكتابة . . ومثل أعلى فى اتساع النظرة وفى القدرة الفذة على الصياغة الأدبية . . فأنت عندما تقرأ لا تعرف إن كان هذا الذى تقرؤه أدبا أو تاريخا أو فنا أو رسما أو موسيقى - إنها جميعا .

وكثيرون غيره كانوا هداة صادقين بارعين لكل أبواب ودروب وأغوار وقمم الحضارة الغربية .

وعندما قرأت لمؤرخنا عبد الرحمن الرافعى بعد ذلك ، وجدت أنه رجل وطنى على خلق ، ولكنه ليس أديبا ولا فنانا ولا فيلسوفا . .

وعندما اتجهت إلى التأليف المسرحى ، لم تكن عندى دراية واضحة بفنون الكتابة

المسرحية . . وكان مزاجى أن أكتب المسرحيات الكوميدية . . وكتبت . . وظهرت مسرحيات على المسرح وعلى الشاشة . .

ووجدت أن مزاجى يميل إلى السخرية . . بل هو أقرب إلى الواقع الحديث . . فنحن فى عصر المتناقضات . . عصر الانهيارات المذهبية . . عصر الانحلال الحضارى . . فالإنسان هو الذى يدعو إلى السخرية . . إنه لا يصدق ما يقول . . ولا يؤمن بما يكتب . . ولا يعمل على إنقاذ نفسه من نفسه . . وهو فى كل الأحوال يبعث على الإعجاب : فهو يكذب ببراعة ويصدق بعبقرية . . وهو يخترع وسائل الدمار بذكاء، ووسائل العلاج والحياة بإصرار. فكيف لا نضحك من زماننا . . من أنفسنا؟

وقبل أن ألتقى بمؤلف مسرحى واحد قابلت الأديبين ديرنمات وفريش . . زرتهما فى سويسرا . .

وترجمت لديرنمات مسرحيات : زيارة السيدة العجوز . . وزواج السيد مسيسبى . . وهبط الملاك فى بابل . . والشهاب. وظهرت كلها على المسرح . .

وقابلت فريش فى بيته وترجمت له مسرحيتين : مشعلو النيران . . وأمير الأراضى البور . . وظهرت الاثنتان على المسرح . .

وأناس عظماء لقيتهم لحظات . . بعضهم كان عميقا . . وكذلك عدد من الجميلات . .

فعندما رأيتُ مارلين مونرو فى هوليوود، وبعد ساعة من الانتظار قالت لى : إزيك يا إنت!

وهى لا تعرف من أنا . . ولا من هو أى أحد . . فهى جميلة فقط .

ويوم انتحرت مارلين مونرو، كتبت عنها وبكيت أيضا، فقد رأيت فيها نموذجا معذبا للعذاب الإنسانى . . كيف يكون الجمال نقمة . . كيف يكون اليتيم مسكينا . . كيف هى تجارة الرقيق الأبيض . .

ويوم تزوجها الأديب آرثر ميللر، كرهت هذا الرجل . . ويوم ترجمت له مسرحية «بعد السقوط» التى بها صفحات عن مارلين مونرو، ازددت كراهية له . .

وبقيت مارلين مونرو صورة جميلة ذهبية بارقة لامعة أمام عينى، وهى وغيرها من الشقراوات، طريقى إلى دراسة طويلة عن عذاب الجمال، أو جمال العذاب، أو عن «جهنم الشقراء» . . ولم أنسها، ولا تركت كتابا واحدا ظهر عنها . . حتى تجمع لدى مائة كتاب!

ويوم قابلت الرئيس الجزائرى هوارى بومدين، وهو رجل رقيق، هامس الصوت، مهذب ودود قال لى: لو اشتغلت بالسياسة!

فقلت: يكون ماذا يا سيادة الرئيس؟

قال: تكون السياسة أدبا يقرؤه الناس!

ونسيت هذه العبارة، فلم تكن لها ضرورة أو صدى فى نفسى . . فأنا لست سياسيا، ولا أحب العمل السياسى، وإن كنت قد اشتغلت بالفكر السياسى أو الفلسفة السياسية، وكنت أقوم بتدريسها فى الجامعة، كجزء من تاريخ الحضارة الإنسانية . .

وفوجئت بعد ذلك بسنوات بالرئيس السادات يقول لى: لو كتبت فى السياسة!

فقلت: يكون ماذا يا سيادة الرئيس؟

فأجاب: تكون أكثر إيجابية فى عملك الوطنى!

ودارت هذه العبارة وترددت وتخبطت فى رأسى مترنحة، ذهابا وإيابا: أكون . . أكثر . . إيجابية . . فى العمل الوطنى . . وهل الذى أقوم به أقل إيجابية . . أو هو أكثر سلبية من العمل الوطنى؟!

تدحرجت إلى الكتابة السياسية، ولست نادما على ذلك. ولكنها أبعدتنى عن «البيئة الصحية الصحيحة» التى تناسبنى . . عن الأدب والفن والفلسفة . . أى الإنسان وعلاقاته بنفسه وبالآخرين . .

وعندما زرت الأديب السويسرى ماكس فريش فى البيت الذى يسكنه عند سفح أحد الجبال، سألته سؤالا تقليديا: كيف حال صحتك!

أجاب إجابة غير مألوفة: أنا فى صحة جيدة جداً.

وكأنه لم يقل شيئا غير عادى، فمضى يشرح ذلك: أنا أعمل ثلاثة شهور فى السنة . . وأسافر وأتجول بقية السنة . . وأسكن هنا . . وقد اخترت الارتفاع النموذجى . . فالبيت يقع على مستوى ١٨٠ مترا من سطح البحر . . والهواء أكثره أوكسجين . . ودرجة الحرارة معتدلة . . وقوة الجذب على هذه المنطقة معقولة تناسب وزنى وسنى . .

إذن هناك درجة حرارة وارتفاع وجاذبية وأوكسجين لابد أن تكون مناسبة للعقل . . وعلى الأديب أو المفكر أن يختارها . ولم أكن أعرف ذلك . .

وإذا كنت لا أعرف السباحة، فإننى أمارس سباحة المسافات الطويلة والغوص فى أعماق الكتب، أصعب الكتب وأطولها وأعقدها فى ثمانى لغات . . أنزل البحر ولا أخاف الغرق . .

وعلمنى حب السفر متعة التنقل . . ولذة التغيير . . وجمال الحركة . . أنا الذى أنتقل خفيفا، من مكان إلى مكان، من كتاب إلى آخر، ومن مفكر إلى أديب إلى موسيقار إلى كاهن إلى راهب إلى قسيس إلى شيخ إلى حاخام إلى إمام إلى «جورو» بوذى . .

وكما يقلب الإنسان الكتب بأصابعه، فإن كتاب الكون أقلبه بقدمى، أو بعينى . . فأنا على سفر دائم . . وأنا أتغرب فى بلاد غريبة . . لا انتهت دهشتى، ولا أحسست بأنى قريب لأحد أو من أحد . . وإنما غريب فى كل مكان وزمان . .

وإذا كان أستاذنا أرسطو قد علمنا: أن الدهشة هى بداية المعرفة . . فأنا ما أزال فى مرحلة الدهشة فلا نهاية للمعرفة!

وقديما سئل الشاعر الألمانى جيتة: ما هو الكتاب الذى أثر فى حياتك؟ . . فهز رأسه بأنه لم يفهم.

فأعيد السؤال: ما هو الشخص الذى هز حياتك؟

فهز رأسه كأنه يرفض السؤال. فقيل له: ما هى البلدة التى أثر أدباؤها ومفكروها فى حياتك!

ولم يهز رأسه . كأنه لم يسمع شيئا ، فقيل له : إذن ما هو الشيء أو الأشياء فى الأدب والموسيقى والتاريخ التى تركت أثرا فى حياتك . . أى أثر . . وليس من الضرورى أن يكون عميقا أو هامشيا؟

فاعتدل الشاعر وأسند ظهره إلى الحائط ، فمن عادته أن يكتب واقفا لأوجاع فى مصرانه الغليظ ، وقال : أفضل أن أجيب عن هذا السؤال كتابة !

وكتب جيتة يقول : كما أن أحدا لا يعرف نوعية الطعام والشراب الذى يجعل أظافرك وعينيك لامعة ، فإن أحدا لا يعرف بالضبط ما الذى أثر فيك أدبيا وفلسفيا !

ولما قيل للشاعر جيتة : ما رأيك فى هذه العبارة : لا يقدر على الوحدة إلا حيوان أو إله؟

فأجاب بسرعة : أو . . هما معًا !

أى الحيوان المبدع الخلاق . . أى الإنسان الأديب أو الفنان أو المفكر أو الموسيقار ، فقط هو الذى يطيق أن يظل وحده يبدع كل مقدمات وعناصر الحضارة الإنسانية !

وأديب فرنسا مالرو هو الذى قال : إن الموسيقار لا يتعلم الموسيقى من خرير المياه . . وإنما من موسيقى الآخرين . . والرسام لا يتعلم كيف يرسم إذا نظر إلى غروب الشمس وشروقها ، وإنما من لوحات الفنانين الآخرين . . يرى عملية تركيب الألوان ، ويرى حركة الفرشاة . . والأديب لا يتعلم مما يسمعه من قصص وحكايات ومن حكمة الشعوب ، ولكن من الذى يقرؤه للأدباء الآخرين . .

إذن . . سوف أحكى لك حكاية من عرفت وكيف عرفت . . كثيرا أو قليلا . . ولا نهاية للذين عرفت عنهم وقرأت لهم .

ولكنى سوف أكتفى بالذين عرفتهم عن قرب . . بالمعايشة والصداقة والحب والتأمل والتأثر . .

ولن أدعى شيئا من الحكمة ، ولكن سوف أدعى حرصى الشديد على أن أعرف وأفهم ، وتقديرى العظيم لكل من حاول أن يقول جديدا . . أو يعرض جديدا فكرا قديما . . ويكون «العرض» هو الجديد . . أى الأسلوب هو الجديد .

والأدب والفن: أسلوب . . وأنت تساوى أسلوبك!

وليس صحيحا أن أحدا يستطيع أن يرى كل ما حدث وأن يسمع كل ما قيل، ويلمس كل جسد؛ لأننى لا أرى إلا من خلال «ثقب» فى الباب . . هذا الثقب هو «وجهة نظرى». وهى ضيقة، كما أن عينى ثقبان فى وجهى . . وهما ثقبان ضيقان، ولكنهما قادران على رؤية ملايين الملايين من الكيلومترات المربعة: السماء مثلا . . ورؤية ملايين النجوم التى تبعد عنا ملايين السنين الضوئية . .

و«ثقب الباب» أيضا هو مجموع مشاعرى: حبى وكرهى . . ومبالاتى ولا مبالاتى . . وما يتفق مع مزاجى . . وما يناسب القارئ . . والمجلة التى تنشر لى ما أكتب، والمساحة الورقية . . والمساحة الزمنية . . ومدى احتمال القارئ لذلك - دعك من احتمال الكاتب أيضا!

لعل الموت ينسانا (*)

كانت فرصة متجددة أن نؤكد لعبد الحليم حافظ أنه مريض، وأننا نخاف عليه . . ودون أن نذكر ذلك صراحة : أن نوهم أنفسنا بأننا أحسن حالا منه . . وأننا فى صحة جيدة وأن حياتنا منتظمة وأننا نعرف تماما ما الذى ينفع وما الذى يضر . . وكنا لا نمل أن ننصحه كل ليلة . . وكان ذلك منذ أكثر من عشر سنوات .

وكان يتزعم «حملة العطف» على عبد الحليم حافظ شاعرنا كامل الشناوى - يرحمه الله - وكان شيئا غريبا أن يقودنا كامل الشناوى إلى الحملة من أجل صحة عبد الحليم حافظ، مع أن كامل الشناوى نموذج مكبر جدا للحياة الفوضوية، فلا كانت عنده صحة ولا فى حياته نظام . . ولم يفلح أحد فى تنبيه كامل الشناوى إلى شىء من ذلك .

وكان على أمين كثيرا ما ينصح عبد الحليم وكامل الشناوى بضرورة النظام فى الحياة، وأن الفن ليس هو الفوضى، وإنما الفن هو تنظيم للطاقة الإنسانية والقدرات الإبداعية . . وأن الزمن الذى يرتبط فيه الإنسان بشروق الشمس وغروبها قد انتهى وانقضى، وأن العلم الحديث قد أطال النهار . . عندما اخترع الإنسان المصباح الكهربى، وأن كل شىء فى هذه الدنيا قد ركبنا عليه ساعة تدق . . فالوقت من ذهب، وأن هذا هو شعار العلم الحديث والصناعة . .

وكان على أمين يؤكد للشاعر والمطرب أن الساسة الإنجليز رغم مشاكلهم الكثيرة كانت لهم مواعيد مقدسة للأكل والنوم والمشى، وكان على أمين ينصح كل إنسان

(*) مقدمة كتابى : « لعل الموت ينسانا» .

فى الدنيا أن يراعى صحته وألا يبدد طاقته . . وأن الإنسان كنز ثمين ، وأن الإنسان إذا لم يحرس نفسه فسوف يسرقه الناس . . وأن الإنسان إذا لم يكن طبيبا لجسمه ولعقله ولقلبه ، فلن يجدى معه العلم والطب .

وقد اقترح على أمين مرة أن نربط عبد الحليم حافظ ونشده بالقوة إلى البيت ، إلى السرير ، إلى تحت اللحاف . . وأن الذين يحبونه ويحبون كامل الشناوى يجب أن يؤلفوا جمعية اسمها «جمعية الرفق بالفنانين» .

وقد نسى على أمين كل هذه النصائح الغالية ، أو لا يريد من أحد منا أن يذكره بما كان يقوله للذين يغتالون أنفسهم بالعمل المتواصل . . والذين يجهدون أجسادهم ، ويعصرون عقولهم ، ولا يعرفون معنى كلمة الراحة ، أو الإجازة ، ولا ينظرون فى روشتات الطبيب ولا شهادات الميلاد . .

وفى كل مرة أجلس مع على أمين أحاول أن أستدرجه إلى أى موضوع آخر غير الذى يحب أن يتكلم فيه . . ولكن فجأة يحس على أمين كأننى قد شددته بحبل من المطاط فإذا به يرتد بسرعة وعنف ويتكلم عن معشوقات العمر كله : المطبعة والحبر والألوان والورق والتوزيع . ولولا أننى أعرف أن على أمين رجل مؤمن لقلت : إن له ربا آخر اسمه : التوزيع أو زيادة التوزيع .

ومنذ يومين وجدت على سريره صورا لفتيات جميلات . . ومرت عينى على الصور الرائعة ، وعلى الابتسامات الفاتنة ، والشفاه المثيرة ، والصدور البارزة ، ونظرت إلى على أمين لعله يسمعنى القصيدة التى نظمها . . واقترب منى على أمين ليقول : ألم تلاحظ شيئا غريبا؟

قلت : فعلا شىء عجيب . .

ثم بادرنى بقوله : إن هذا الورق وهذا الحبر وهذه الدبابيس هى التى أحلم بها . . إلخ . .

ولم يقبل أن أذكره بحرف واحد مما كان يقوله فى التليفون لعبد الحليم حافظ أو كامل الشناوى!

وتركته يؤدى طقوسه اليومية فى محراب الحبر والورق والتوزيع!

إننا ننسى أننا مرضى . . لأننا نريد أن ينسانا الموت أيضًا!

عندى كلام (*)

ما هو أكبر رقم فى الدنيا ؟

نفرض أنك أجبت عن هذا السؤال وقلت : إنه واحد وأمامه مليون مليون مليون صفر . .

والجواب ليس صحيحا ؛ لأن أى رقم من الممكن أن نضيف إليه واحدا أو صفرا أو ملايين الأصفار . إذن لا يوجد أكبر رقم ، لأنه سوف يكون هناك ما هو أكبر منه . .

فلا نهاية للأرقام ، ولا نهاية للكلام أيضا ، فكل كلام مهما طال ومهما كان كثيرا وعميقا ، فهناك دائما كلام آخر يقال . .

أكثر عددا وأكثر عمقا وأكثر جمالا وأكثر وضوحا . .

ومن أحلامى ككاتب أن أقول أجمل وأسهل وأعمق . . وأن أضيف المتعة إلى المتعة إلى الجمال . . أضيف الأرفع إلى الأنفع إلى الأجمل . . وقبل كل شىء أن يكون كل ذلك سهلا عند أطراف أصابع كل قارئ . . أقل القراء تخصصا وثقافة . أملى ! وقد حاولت طوال حياتى الفكرية والأدبية . . وأيام كنت مدرسا للفلسفة فى الجامعة ومنذ اشتغالى بالجامعة الكبرى : الصحافة . .

ولا يزال عندى الذى أقول والذى أستطيع أن أضيف به وأن أضيف إليه . .

وأنا مؤمن بأنه لا يوجد شىء اسمه : آخر كلام . . أو الكلمة الأخيرة أو نهاية السطر . . فكل شىء قابل للزيادة ، قابل لأن نضيف له . .

(*) مقدمة كتابى : «عندى كلام» .

ولو عدت إلى كل كتبى وقرأتها ـ وهذا أمر صعب جداً، فلم يحدث أن فعلت ذلك ـ لو حدث لأمسكت القلم وحذفت وأضفت . . وربما مزقت صفحات كاملة . . والحذف صعب . . لأنه نوع من تشويه الواقع النفسى الذى كنت عليه فى أثناء الكتابة . . وهو واقع يختلف عن واقعى الآن . . وكأن ذلك تدخل فى تاريخى . . فى تثبيت لحظة فكرية وجدانية كنت عليها . .

ولذلك فأنا لا أراجع ما كتبت بعد أن صدر فى كتاب . . فهذا تاريخ . . وإن كان هناك من جديد أضيفه إلى ما سبق أن كتبت ونشرت، فإننى أضع ذلك فى المقدمة . . أى فى مكان بعيد أبعد (السيل التاريخى) أو (الانسياب التاريخى) لواقعى النفسى والعقلى فى وقت من الأوقات . .

فلا خوف من أن ينتهى الكلام . . ولا خوف من أن يجف نهر المعرفة وتمسك سماء الفكر أمطارها . .

شكرا لله أنه ما يزال هناك ما يقال اليوم وغدا . .

أنت ناقص وأفكارك أيضا! (*)

كل يوم، صيفا وشتاء، أصحو عند الخامسة صباحا، أغسل يدى، لابد أن أغسل يدى، وأبلل عينى بالماء، وأتجه إلى مكتبى . . وأزيل كل الكتب من فوق المكتب . . وكل قلم وكل ورقة وكل ما أجده يعترض عينى إذا نظرت أمامى . . وأطفئ نور السقف حتى إذا نظرت فلا شيء من الكتب التى على الجدران تجذب عينى . . فأنا لا أريد أن أنظر إلى شيء . . لا أريد أن أركز على أى شيء . .

أما الورق فلابد أن يكون أبيض بلا سطور . . طويلا ناعما . . أما القلم فأمامى عشرات الأقلام . . لابد أن يكون حبرها أسود قاتما . . ناعمة تنزلق على الورق بسهولة . . وألا تكون أسنانها مدببة وألا تكون غليظة . . فإن كانت ناعمة جدا، سبقتنى على الورق . . وإن كانت خشنة أو جافة أو محددة فإنها تعرقل كتابتى . . وأنا أكتب بسرعة التفكير بالضبط، ولذلك فالحروف كبيرة، وخطى ليس واضحا، وأكثر الكلمات بغير نقط . . فأنا أكاد لا أرى ما الذى أكتبه . . فلم أرث عن والدى جمال الخط . . فقد كان خطه فارسيا جميلا أنيقا . .

كثيرون من الكتاب يفعلون ذلك . .

فالشاعر العظيم شكسبير يكتب بسرعة هائلة. ويقال إنه لا يشطب كلمة واحدة. وكان يختار ورقا صغيرا.

ومن يقرأ ما كتبه الأديب الفرنسي هيجو يجد أن الصفحات التى يكتبها ليست إلا معركة بين الذى كتبه وبين الذى أعاد كتابته وبين الذى شطبه وبين الذى وضعه بين السطور . .

(*) مقدمة كتابى : (إلا قليلا !) .

قليلون جدا من الأدباء لهم خط جميل. وفى مقدمتهم جميعا كاتب أمريكا إدجار ألن بو . . ويقال إنه فاز فى أول حياته الأدبية بجائزة كبيرة لجمال خطه . .

والأديب الفرنسي ألكسندر ديماس الصغير، اشتغل سكرتيرا لأحد المحامين لجمال خطه . .

والكاتب الإنجليزى كارليل كان يكتب على ورق ملون . .

وأمير الشعراء أحمد شوقى كان يسجل ما يخطر على باله هو على علب السجائر والكبريت . .

ولم يعرف الأدب رجلا أصر على أن يكتب باللون الأسود مثل الشاعر رديارد كبلنج، حتى إنه فى إحدى المرات أراد أن يسجل إحدى قصائده، فلما لم يجد قلما أمسك عودا من القش وراح يغمسه فى فنجان القهوة ليكتب على قطعة من القماش!

ولابد أن أعد لنفسى كوبا من الشاى . . وأرى أن إعداد الشاى هو نوع من الانشغال المؤقت . . أو هو نوع من «تسخين» الذهن قبل أن يعمل . . ولا أحب أن يكون الشاى بلا سكر . . ولا أحب أن يكون سكره واضحا . . فالمرارة الشديدة كالحلاوة الشديدة، تفسدان شيئا ما فى فمى أو فى رأسى . . أو تشتتان طعما ما أحرص على أن يكون لفمى ولشفتى . .

أو لعل التفكير يكون أيسر إذا توافرت شروط عديدة اعتدت عليها: الضوء والطعم ونعومة الورق وانسياب القلم والهدوء التام والفراغ الذى حولى وأمامى . . وأجلس بالبيجاما حافى القدمين . .

وكان الأديب الأمريكى همنجواى يكتب واقفا، فقد أصيب بكسر فى ظهره على أثر حادث طيارة . .

وكان الشاعر الألمانى جيتة يكتب واقفا، فلديه التهاب مزمن فى مصرانه الغليظ . .

بينما أدباء آخرون «أفقيون» يكتبون نائمين على بطونهم . . مثل أديب بريطانيا إستفنسون والشاعر والتر سكوت.

وكان الفيلسوف الأمريكى بنيامين فرانكلين يكتب وهو فى البانيو ـ وهو أول من أدخل البانيو إلى أمريكا . .

وكان السياسى البريطانى دزرائيلى يكتب وقد ارتدى ملابسه كاملة .

وأديب فرنسا جوستاف فلوبير كان يضىء البيت والحديقة ، حتى يخيل للناس أنه أقام وليمة ، فيقف الناس أمام الباب ليروا السادة الكبار الذين دعاهم . . ثم لا يجدون أحدا !

وربما كان أديب فرنسا بلزاك هو أكثر الأدباء إسرافا فى شرب القهوة ، يشرب فى الليلة مائة فنجان . .

وكان الشاعر الألمانى شيلر يشرب القهوة بالشمبانيا . .

وكان الفيلسوف الإنجليزى هوبز يكتفى بشرب الماء البارد . .

والفيلسوف الوجودى الفرنسى سارتر يكتب فى المقاهى . . فى أحد الأركان وأمامه زجاجة من النبيذ . .

والأديب الأمريكى فولكنر لا يفيق من الخمر فى أثناء الكتابة . .

وكان الأديب النرويجى إبسن يجلس للكتابة وقد وضع أمامه صورة للأديب سترندبرج ، أبغض الشخصيات إليه . وكان يقول : أحب أن أراه مشنوقا على الحائط وأنا أكتب !

وكان كاتب الأطفال أندرسن إذا جلس ليكتب فإنه يملأ قميصه بالصحف ، فقد كان نحيفا جدّاً ، ويضيق بهذه النحافة ، ولذلك كان حريصا على أن يبدو ممتلئا ، فإذا تحقق له هذا الشعور فإنه يسرع إلى الكتابة . وكان إذا نام يخيل إلى من يقترب منه أنه ميت . ولذلك كان يكتب ورقة إلى جوار سريره عليها هذه العبارة : لست ميتا ولكن أبدو كذلك !

وقد عرفت الأديب أحمد حسن الزيات ، فقد كان رجلا أنيقا ، يرتدى ملابسه كاملة . ويكتب على ورق صغير . وكانت كلماته وحروفه والنقط فوق الحروف كلها واضحة ، وكان خطه صغيرا جدّاً .

ورأيت د. عبد الرحمن بدوى يكتب على ورق متوسط. وخطه جميل، وحروفه واضحة كلها، والنقط، وكل علامات الترقيم. وحتى عندما ينشر المخطوطات القديمة، فإنه ينقلها بخطه هو، بدلا من أن يكلف أحدا يفعل له ذلك..

وأصر الأديب ألدوس هكسلى على أن يكتب دون أن يرى الذى يكتبه- فعل ذلك قبل أن يفقد عينيه- وكانت حجته أن الإنسان قد اعتاد على الكتابة، فهو يعرف بالضبط كيف يكتب فى أى وضع وتحت أى مصباح.. تماما كما يأكل ويشرب ويرتدى ملابسه فى الظلام.. وكان فى استطاعته أن يكتب ليلا، ولما فقد عينيه، كان يقرأ الكتب البارزة الحروف بأن يلمسها بأصابعه.. ثم يجلس أمام مكتبه ويرفع رأسه إلى أعلى، ويضع يده على الورق ويكتب..

وهذا هو الفارق الوحيد بين الأديب والفنان، فكل ما يخطه الفنان على لوحاته هو الهدف.. هو المعنى.. أما الكاتب فكلماته ليست هى الهدف، وإنما الكلمات رمز إلى المعنى.. الكلمات ليست هى المقصودة.. فالكلمات التى أكتبها تقوم المطبعة بنقلها على نحو آخر.. أما الذى يرسمه الفنان أو يخطه أو يظلله فهو المقصود.. هو الإبداع نفسه. فأمام اللوحات الفنية نقف نتفرج على ضربة الفرشاة.. على بداية الخطوط ونهايتها.. على البقع الملونة؛ بقع الظلال.. وعلى توزيع الدرجات.. فالخطوط فى اللوحة لا ترمز إلى معنى، وإنما هى المعنى.

على عكس الكلمات والعلامات الموسيقية فهى جميعا رموز إلى معنى آخر.. ولذلك لا يهتم الأديب كثيرا بشكل الكلمات أو حجمها..

والذي يقرأ ما كتبه الشاعر الرسام ميكلوبخلو، أو المفكر الإنجليزى كارليل.. أو الروائى الإسبانى سرفانتس، يخيل إليه أنهم مجموعة من الأطفال يقلدون آباءهم ولم ينجحوا، فهم جميعا يكتبون باليد اليسرى.. فيما عدا سرفانتس الذى كان يكتب بيده اليسرى ثم فقدها فى الحرب، فراح يكتب باليمنى التى لم يعتد عليها!

وليس أصعب على نفسى من أن أقرأ الذى كتبته، وليس أقسى من مراجعته وتعديله؛ فلا أكاد أمضى فيهما بعض الوقت حتى أضيق بهما.. أتمنى أن أغيره أو أعيد كتابته من أولها لآخرها.. ولذلك ففى كثير من كتبى أخطاء مطبعية.. إما

لأننى لم أحسن قراءتها عند إعادة طبعها، وإما لأن الذين يقومون بمراجعتها قد أهملوا فى ذلك، أو تركوها على ما كانت عليه، ظنا منهم أنها رغبتى!

مرة واحدة فقط لم أطق صبرا، فعندما فاز كتابى «حول العالم فى ٢٠٠ يوم» بجائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٣ أعيدت طبعته الأولى بعد شهور من ظهورها، وقبل أن أبعث بالكتاب مرة أخرى إلى المطبعة، قلبت فى الكتاب .. وشعرت بالغيظ والضيق والقرف؛ فلم يعجبنى. إن الكتاب فى حاجة إلى ترابط وإلى تماسك .. وقررت أن أكتبه من جديد، وجلست فى البيت أسبوعين، وأعدت هذا الكتاب فى ٧٠٠ صفحة. وقد ظهرت طبعته السابعة عشرة، دون أن أغير فى الكتاب سطرا واحدا. وقد كتب له د. طه حسين مقدمته، ثم كتب له الأستاذ محمود تيمور مقدمة أخرى، ولم أشأ أن أقلب فى الكتاب حتى لا أعيد كتابته مرة ثالثة!

وقد حدث أن بعث المفكر الإنجليزى توماس كارليل بكتابه عن «تاريخ الثورة الفرنسية» إلى الفيلسوف جون ستيوارت ميل، فما كان من خادمة الفيلسوف إلا أن ألقت به فى المدفأة.

وجلس المفكر كارليل يعيد هذا الكتاب من الذاكرة.

والمترجم الإنجليزى الكبير سير ريتشارد برتون الذى ترجم «ألف ليلة وليلة» فوجئ بأن زوجته قد ألقت بنصف هذا الكتاب فى النار ..

وجلس يملى عليها الترجمة فى أسبوع واحد ..

وليس من الضرورى إذا جلست إلى الكتابة أن أجد بسهولة ما أكتبه، وعندما تتعذر الكتابة فإننى أفضل أن أقرأ فى أى موضوع .. وتمضى الساعات أستمتع بما أقرأ .. أو تمضى الساعات لا أعرف بالضبط ما الذى أقرؤه .. وفجأة أجدنى أكتب موضوعا آخر غير الذى كان فى نيتى أن أكتبه ..

وقد أجلس لكى أكتب عددا من المقالات القصيرة، فأجدنى قد كتبت قصة لا علاقة لها بكل ما كان يدور فى رأسى، وإنما تكون فكرة هذه القصة قد راودتنى عن نفسى منذ وقت طويل، ولم أستسلم لها، ثم إذا بى أجدنى فجأة مستعدا لكتابتها كاملة ..

وكما أننى لا أطيق أن أرى شيئا أمامى وأنا أكتب . . فإننى أيضا لا أستطيع أن أستمع إلى الموسيقى . . فهى تبعثر اهتمامى وتسحبنى كموج البحر بعيدا عن الشاطئ . .

وإذا كان لابد من الموسيقى ، فليكن ذلك عندما أجلس للتفكير . ولا أحب فى هذه الحالة أن تكون أغنيات ؛ لأن الأغانى كلمات وخطابات . . وهذه الخطابات تقوم بتشريدى وجعلى طرفا فى قصة حب وكراهية . . وأنا لا أريد أن أنشغل بغيرى . . ولذلك فالموسيقى أفضل . . إنها تطلق حريتى . . إنها أجنحة . . إنها بالونات مملوءة بالأوكسجين ترفعنى بعيدا دون هدف . .

وأعتقد أن التفكير «كيمياء» . . أى عمليات كيميائية . . إضافة عناصر إلى أحماض إلى سوائل . . وهزها معا ليكون منها سائل جديد . . أو مادة جديدة . . ولكى تنجح هذه العملية الكيميائية لابد أن تتحقق شروط التفاعل . . وفقا لمعادلة دقيقة . . هذه المعادلة لا أعرفها بالضبط . . ولكن بالتجربة اليومية . . فإننى أحسها ، وأحاول أن أكون دقيقا . . فاليقظة فى ساعة معينة . . وتناول الشاى . . أو صنعه . . ووضعه أمامى دون أن أنتبه إليه . . ونوع الورق والحبر والإضاءة ودرجة حرارة الغرفة . .

إننى أقوم بعمليات تكييف للهواء والماء والضوء والمزاج والتسخين . . وأنتظر . . وأنتظر طويلا . .

وقد أكون هادئا . . وقد أكون غاضبا . . ولكنى دائما أحنى رأسى للذى يجىء ويتوارد . .

ولا يزال المثل الأعلى لكل مفكر ما قاله أستاذنا العظيم فيلسوف الوجودية الألمانية مارتن هيدجر : إننى أجلس خاشعا حانى الرأس أمام سيدتى . . وأنتظر ما تجود به على . . وقد تفضلت معبودتى فقالت . . والذى قالته ليس كثيرا . . ولكنى أكن لها عظيم الاحترام والامتنان . .

أما معبودته ومعبودتى فهى «الحقيقة» . .

ولا أعرف من أين تجىء الأفكار . . ولكنها تجىء . . ولا كيف يحدث أن أكتب فى جلسة واحدة ألف سطر ، وفى أيام لا أكتب سطرا . .

وإذا وجدتنى عاجزا عن الكتابة، فإننى لا أعصر رأسى . .

وقديما سألوا الشاعر العاشق كُثَيِّرا : ماذا تصنع عندما يعز عليك قول الشعر؟

أجاب بأنه يطوف الحدائق ويدور حول البيوت . . وهنا «يسهل على أرصنه ويسرع إلى أحسنه» . .

والشاعر الساخر الفرزدق قال : ربما أتت ساعة يكون فيها نزع الضرس أسهل من قول بيت واحد من الشعر!

وكان الشاعر العظيم المتنبى يقول إنه إذا تعذر عليه قول الشعر، ترك فراشه وركب حصانه . . ساعة وساعتين، فإذا عاد إلى بيته تدفق عليه الشعر!

أما الشاعر الألمانى رلكة فيصف حالة نزول الشعر، أو فيضان الخاطر . . بأن الشعر يشبه السحب التى تحمل قطرات الماء التى تبخرت من بلاد بعيدة . . فقامت الرياح ونقلتها إلى بلاد أخرى . . ثم جاءت الشمس فأسقطتها مطرا . . فلا أحد يعرف من أين تواتيه هذه المعانى . .

ومن الممكن أن يعرف المفكر من أين جاءت هذه المعانى، ولكن هذه هى المرحلة الثانية، أما المرحلة الأولى فهى أن يسجل ما يجىء . وبعد ذلك يسأل من أين جاء ولماذا جاء؟

مثلا : صدر لى كتاب بعنوان «يسقط الحائط الرابع» ثم كتاب آخر بعنوان «الحائط والدموع» وكتاب ثالث بعنوان «كرسى على الشمال» . .

وفسرت ذلك بأن الحائط الرابع فى لغة المسرح هو الحائط الوهمى الذى يفصل بين الممثلين والمتفرجين . . فالممثلون يتحركون على المسرح فى «حياتهم الخاصة» وكأن أحدا من الناس لا يتفرج عليهم . . أى كأن المتفرجين يتلصصون عليهم . . وليس مفروضا أن يشعر الممثلون بذلك . . وليس من الضرورى أن يجعلهم المتفرجون يشعرون بذلك . . إذن فهذا الحائط وهمى . . أو هذا الحائط هو أكذوبة اتفق عليها المؤلف والممثل والمخرج والمشاهد . . هذه الأكذوبة قد ارتضيناها جميعا . .

ولكن «مسرح العبث» الذى ساد باريس فى الستينيات قد أسقط هذا الحائط الوهمى . . وجعل الممثلين يجلسون فى الصفوف الأولى من المسرح . . أى أن المسرح الحديث جعل المتفرج موجودا فى عيون وآذان وخيال الممثل والمؤلف والمخرج . . فلم يعد هناك حائط وهمى . . ولذلك كثيرا ما دار الحوار بين الممثلين والمتفرجين . . بل إن الأديب الفرنسى جان جينيه عندما قدم مسرحية «السود» جعل جميع الممثلين يرتدون أقنعة سوداء . . واشترط أن يكون فى الصف الأول من مقاعد المتفرجين رجل أسود يرتدى قناعا أبيض. لماذا؟ لأنه أراد أن تكون المسرحية محاكمة للرجل الأبيض . . ولذلك يجب أن يكون هناك رجل واحد أبيض على الأقل من المتفرجين . . فإذا تعذر ذلك فليكن هناك رجل أسود يضع قناعا أبيض . .

وفى مسرحية «الكراسى» للأديب الفرنسى الرومانى الأصل يوجين يونسكو نقل قاعة المسرح إلى خشبة المسرح . . فامتلأ المسرح بالمقاعد الخالية . . لأنه توقع فشل هذه المسرحية . . وتوقع ألا يتفرج عليها أحد . . ولذلك جعل المسرح مليئا بالمقاعد الخالية من المتفرجين . . فكأنه شاء أن تكون خشبة المسرح صورة أو مرآة لقاعة المسرح . .

إذن فلقد أسقط المسرح الحديث الحائط الرابع . .

وأذكر أن د. عبد الرحمن بدوى كتب مقالا عن كتابى « وداعا أيها الملل» وعن الدراسات التى كتبتها عن «مسرح العبث» وقال عبارة مشهورة: لو لم يدرس الفلسفة الوجودية ما استطاع أن يكتب بهذا الوضوح والإقناع.

وكان يتوجه بهذه العبارة إلى د. لويس عوض الذى رأى هو أيضا فى دراساتى عن سقوط الحائط الرابع شيئا جديدا فى النقد وعلم الجمال . .

وعندما أصدرت كتابى «الحائط والدموع» عن اليهود وإسرائيل والصهيونية والصراع العربى - كنت أقصد بالحائط حائط المبكى . . وبالدموع دموع اليهود عند هذا الحائط . . ورأيت أن اليهود كان لهم حائط واستردوه . . أو اغتصبوه، أما العرب فلهم فى كل بيت حائط للدموع . . فهم يبكون الهزيمة والعار الذى أصاب الأمة العربية، والهوان الذى طحن الضمير العربى بعد نكسة سنة ١٩٦٧ . .

وعندما أصدرت كتابى «كرسى على الشمال» فسرت اختيار هذا العنوان بأننى كنت أذهب إلى دار الأوبرا وأجلس دائما على اليسار . . وأننى أحب الجلوس إلى اليسار فى أى مكان . . مع أننى لست يساريا . أو أننى معتدل فى هذا اليسار . فالجلوس إلى اليسار ليس تجسيدا عمليا لفكر سياسى . . وإنما التفسير الوحيد الذى اهتديت إليه فى ذلك الوقت . . هو أننى اعتدت على أن يكون مقعدى هكذا ، ولا أعرف كيف بدأ .

واهتديت إلى معنى آخر هو أن عينى اليمنى أضعف من اليسرى . ولذلك فأنا أنظر إلى اليمين عادة ، وهذا يجعل المسافة الضوئية أمام العين اليمنى أقصر من المسافة أمام العين اليسرى . . ولو نظرت إلى شىء إلى يسارى لكان ذلك مرهقا للعين اليمنى ومريحا لليسرى ، ولما كانت اليمنى هى التى لا تستطيع أن تجارى اليسرى . فقد كان التوازن البصرى يخفف العبء على اليمنى . فأجلس إلى اليسار وانظر . .

ووجدت ذلك مقنعا ، أو أننى اخترت هذه العناوين لمعنى وجدته قريبا . ولكن عندما عاودت التفكير فى اختيار كلمة «الحائط» اهتديت إلى المعنى الحقيقى . فقد كنت أسكن فى مدينة إمبابة وأنا طالب فى الجامعة ، عضو فى جماعة الإخوان المسلمين قريبا من مسجد سيدى إسماعيل الإمبابى - مشغولا بفتاة لها عينان جميلتان لا تقرأ ولا تكتب . وكنت أقول : يا رب ما الذى تفعله هذه البائعة بعينيها . . إن أصغر شىء تراه فى حجم البطيخة . . وأنا أكبر شىء أراه بعينى فى حجم النملة ! يارب إنها حكمتك التى غابت عن حكمتى !

وكان يسكن الغرفة التى فوقى ساع فى مؤسسة أخبار اليوم ، وقرر صاحب البيت أن يبنى طابقا ثالثا ، فكان لابد من هدم الحائط المطل على الشارع ، وهدم الحائط الرابع لغرفة نومى ، وكنت لا أستطيع أن أدخل هذه الغرفة إلا ليلا . . ولا أدخلها من الباب فلا حاجة إلى الباب ، وكنت أجد الكلاب والقطط والفئران قد سبقتنى بمخلفاتها إلى غرفتى .

وفى الليل أحاول تنظيف الغرفة ، ويغلبنى التعب فأضع المرتبة على الأرض ، وأضع فوق رأسى بعض الكتب حتى لا يتساقط التراب على وجهى ، وأحيانا أضع بعض ملابسى . . ويكون لسقوط التراب صوت يوقظنى .

أما سقوط التراب فسببه أن الساعى قد عاد من الخمارة، وأسمع الحوار العنيف بينه وبين زوجته الذى قد يتطور إلى استخدام الأحذية والسكاكين . .

وكنت أهلوس فى أثناء النوم فأتخيل نفسى حصانا ينام واقفا. أو أتصور نفسى وطواطا يظل يدور فى الغرفة، ويقال إن الوطواط يستطيع أن ينام وهو يدور . . وتمنيت لو كان كل الناس وطاويط يمسكون بعضهم ببعض على شكل حبل طويل يمتد من جدران هذا البيت إلى جدران البيت المقابل . . وكان الهنود يتخيلون أن الآلهة كانوا يقطعون المسافة بين الهند وجزيرة سيلان على ظهر ملايين الوطاويط التى تماسكت بين البلدين . .

وعلى الرغم من أن هذا الساعى قد أصبح يجلس أمام مكتبى فى أخبار اليوم بعد ذلك، غير أن انتقاله بين الجلوس فوق رأسى، إلى الجلوس أمام بابى لم يكن اعتذارا كافيا لما أصابنى، فبقى هذا الحائط الرابع الذى سقط فتعذبت، وتعذبت عميقا فى داخلى . . ولذلك جاء عنوان الكتاب وكأنه هتاف بسقوط الحائط الرابع، كأننى الذى هتفت بسقوطه، واستجاب الله!

ويوم نجحت فى ليسانس الفلسفة وكان ترتيبى الأول مع مرتبة الشرف الأولى، لم أكن سعيدا حقا، فقد مات والدى بعد أن سمع هذا النبأ، وظن بعض زملائى أننى أفتعل الحزن. كأن هذا النجاح ليس كافيا. أو كأننى توقعت ما هو أكثر من ذلك. فليس أكثر من ذلك.

وقال لى زميل: طبيعى أن تكون هذه هى نتيجة المذاكرة على ضوء مصابيح الشوارع!

وبكيت، وخجلت من دموعى، فقد أوجعنى المعنى الذى قصده. وعلى الرغم من أننى زرته فى السجن، وكانت زيارتى سببا فى أن صديقى مدير السجن قد عجل بالتحقيق معه، وإخراجه. فلم أر فيما أصابه ترضية كافية أو اعتذارا نهائيا، وإنما بقيت الدموع والحائط فى أعماقى!

أما لماذا اخترت «كرسى على الشمال» عنوانا لكتاب عن المسرح الحديث والنقد المسرحى، فلسبب آخر غير الذى ذكرت، فقد كنت تلميذا فى مدرسة أبى حمص

الابتدائية، وكنت أتسلى بالوقوف إلى جوار عسكرى المرور أتفرج على السيارات التى تتجه إلى الإسكندرية، المدينة التى سمعت عنها ولم أرها، وكان عسكرى المرور يترك لى مهمة تسجيل أرقام السيارات هكذا: ١٩٢٤ ملاكى بحيرة الساعة ١٢ و١١ دقيقة . . وكنت سعيدا بذلك، ومصدر سعادتى أن أتفرج، وأتابع وأسجل، وأن الرجل يثق بى، وأنه أصبح من حقى أن أقف إلى جوار كشك البوليس! ولم يكن كل رجال المرور يوافقون على أن أسجل السيارات بدلا منهم، وإنما واحد منهم فقط، اكتشفت أنه يعرف والدى. ولسبب لا أعرفه نزل واحد من سيارة فورد موديل سنة ١٩٣٣ ـ فقد كنت أعرف موديلات السيارات أيضا ـ وأمسكنى من ملابسى، وقال: أمامى على القسم!

وذهبت إلى القسم، والآن أصف لك نفسى، كنت ألبس جلبابا مخططا وطاقية من اللون نفسه، كالتى نراها فى مسلسلات التليفزيون، وفى قدمى قبقاب خشبى، إذا مشيت على الكوبرى فإننى أحدث طرقعة ذهابا وإيابا، وكنت أتابع هذه الطرقعة وأحرص عليها . . وكان جلبابى مشقوقا من الجانبين، وهذا الشق نسميه «فراجية» أى فرجة صغيرة ـ أى فتحة صغيرة. وظل الرجل ممسكا بملابسى، ودخلنا القسم، ولم يكد الضابط يرانى حتى قال: أنت؟ كيف؟ ماذا حدث؟

قال صاحب السيارة: إنه لص . . فى عصابة خطفت محفظة زوجتى . .

ولم أتبين وجه الضابط، فقد كنت فى دوامة من المشاعر التى لا أعرف كيف أصفها.

المفاجأة كانت مخيفة مذهلة لى ولغيرى فى القسم.

ثم طلب الضابط إخراجى من الغرفة، وسحبنى العسكرى بشدة وغلظة، وتركنى أمام الباب محذرا أن أتحرك، ولم يكن فى استطاعتى أن أفعل شيئا، ويبدو أن الضابط قد طلب من العسكرى أن يجلسنى على أى مقعد، فأتى لى بمقعد وقال لى: اجلس على هذا بعيدا هناك . . ولا تتحرك . . إلى أن نرى نهاية هذا اليوم الأسود . . أنت ابن الرجل الطيب تخطف المحفظة؟!

ولم أنتبه إلى أن جلوسى جاء أمام دورة مياه، ولا أدعى أننى شممت شيئا أو رأيت أحدا؛ إننى مسلوب مذهوب العقل . . إننى فى غيبوبة . . دايخ فى دوامة . .

جالس فوق أو تحت الكرسى أو واقف . . لست على يقين من شىء . . ولا أعرف كم مضى من الوقت حتى استدعانى الضابط وسألنى :

هو يقول إنك تعرف الولد الذى خطف المحفظة؟

قلت : نعم أعرفه . .

سألنى : من هو؟

قلت : زميلى فى المدرسة .

قال : ما اسمه؟

وقفز صاحب السيارة يقول : إننى لم أكذب ، إننى رأيتهما يتحدثان معا . . ومن يدرى لعلهما سوف يقتسمان المبلغ الذى سرقاه . . خمسة جنيهات ونصف!

قال الضابط : ولكنك يا سيدى لا تعرف من هو ، ولا من هو أبوه ، ولو كان لصا لهرب . . ولكنه ليس كذلك!

وطلب منى أن أخرج . .

وخرجت . وبعد خمس أو ست ساعات خرج الضابط ليجدنى ما زلت جالسا فى مكانى . فصرخ : أنت ما تزال هنا؟ يا عسكرى . . ألم أقل لك دعه يذهب إلى بيته . . إنه برىء . . ليس لصا!

وقال العسكرى : لم تقل شيئا من ذلك يا أفندم!

قال الضابط : اخرس يا كلب يابن الـ . . .

ثم استدعانى إلى مكتبه ، وقدم لى شايا ، وأقسم أن أتناول السندويتشات معه . . وألا أذكر لوالدى شيئا من ذلك . .

وعلى الرغم من أن العسكرى هو الذى قدم لى الشاى واشترى لى السندويتش . . ورأيته عندما خرجت من غرفة الضابط يأكل ما تبقى منى ، فلم أجد فى ذلك تعويضا عن هذا العذاب والهوان . .

ومن هنا جاء عنوان كتابى «كرسى على الشمال» . .

وربما اهتديت إلى مدلولات أخرى بعد ذلك، ولكن ساعتها لم أفكر إلا فى الذى يخطر على البال، ويكون مقنعا لى عند الكتابة . .

وعندما عاودت التفكير فى الحائط الذى سقط فى إمبابة . . أعادتنى ذاكرتى إلى حائط آخر فى المنصورة، فقد كنت أسكن فى بيت رقم ٩ شارع كوهين، وكانت غرفتى فى الطابق الأرضى مطلة على الشارع، وكان الحائط وراء ظهرى يتساقط منه الماء . . الرطوبة . . وكانت هذه الرطوبة تسحب معها الطلاء الجيرى . . ولذلك كنت أبعد الكتب والمجلات عن الحائط حتى لا يزعجنى ويفزعنى سقوط الجير . . ثم كنت «ألف» حصيرة حولى وحول المكتب لتحمينى من شدة الرطوبة . . ثم اهتديت إلى صنع غطاء . . أو سقف من الورق المشدود بعضه إلى بعض والذى يتدلى من السقف بخيط حتى لا يسقط الجير فوق رأسى . . وعند عودتى من المدرسة فإننى أكنس الجير الذى تراكم فى أرض الغرفة وفوق المكتب . . ثم ألف الحصيرة حولى والسقف الورقى فوقى، وأجلس قريبا من المصباح الغازى . وكثيرا ما نهضت من نومى وقد احترق رمش عينى وشعر رأسى بسبب اقترابى الشديد من المصباح الذى يضىء ويدفئ فى الوقت نفسه . .

إذن لقد عانيت سنوات طويلة من سقوط الحائط . . لا حائطا واحدا يسقط كل ليلة، ولكن كل الحوائط والسقوف أيضا!

وعندما قبلت أن تتبنانى إحدى السيدات التى تسكن فوقنا فى هذا البيت، لم يكن هناك إلا سبب واحد هو أن أهرب من رطوبة الحوائط الباردة المتساقطة . . ولكنى ما لبثت أن هربت من فوق إلى تحت . . ووجدت بقائى فوق هو انحطاطا لى، وأن صبرى على الذى هو تحت سمو بنفسى وارتفاع بها عن الهوان!

وعندما أصدرت كتابى «نحن أولاد الغجر»، كان هذا عنوان المقال الأخير من هذا الكتاب . والمقال مشروع كتاب عن أعماقى، فمنذ وقت طويل وأنا حائر بين اختيارات كثيرة، وبين وجهات عديدة، وبين ألوان ولغات وديانات وعناصر .

ولم أفهم معنى أن تكون أمى من أصل فرنسى مغربى وأن يكون أبى من أصل سعودى . . أو أن يكون من سلالة شمس الدين الشربينى، شيخ شربين، وأن تكون أمى من سلالة «الشيخ الباز» . . وأن يختلط أجدادى بدماء ومذاهب مختلفة . ولم

أفهم كثيرا سر العيون الزرقاء والشعور الذهبية والبشرة الشقراء فى أسرة أمى . . ولا أن يكون لها أقارب من فرنسا ومن المغرب ومن المكسيك وفلسطين . . سمعت كل ذلك . ولكن لم ألتق بواحد من هؤلاء . .

ولم أعرف لماذا قررت الهرب فى أحد الأيام وأنا طفل، وكان الجو باردا، والسماء غزيرة الأمطار، وقد حذرتنى جدتى الطويلة القوام، الشقراء، الزرقاء الجليدية العينين، أن أخرج وحدى ليلا . . وإلا أكلنى الذئب، ولكنى فضلت الذئب على عصا جدتى - وكانت تضربني كثيرا، ويقال لأننى كنت أضرب الأطفال، ويقال لأننى كنت أكره كراهيتها لوالدى . . ويقال لأننى لا أحب ضعف أمى أمامها . . ويقال إن كثيرين ينفرون من قسوتها وتسلطها على كل أبنائها . .

وفى الليل عرفت طريقى عبر حظيرة الأبقار والجواميس، وعبر القناة الصغيرة واختراقا لحقول الذرة، ووصولا إلى ضريح أحد أجدادى . . ويقال إن هناك عفاريت ويقال أرواحا . . ثم اتجهت إلى السكة الحديد . . وعبرتها . . وواجهت نباح الكلاب، ولكنى مضيت، والتفّت الكلاب حولى، ثم ما لبثت أن راحت تلعق قدمى ويدى . لقد عرفت رائحتى منذ وقت طويل، وهناك قابلتنى أم «موشيه» . . أى أم موسى . . إنها سيدة الغجر فى هذه المنطقة، ومن العجيب أن يكون لابنها اسم عبرى، فلا أعرف إن كانت يهودية، لم أتحقق من ذلك، ولم تكن قادرة على نطق اسمى نطقا صحيحا، فقد كان اسمى فى ذلك الوقت «صلاح»، أى غير الاسم المسجل فى شهادة الميلاد، وكانت تقول لى : أهلا يا شالوح يا ابنى . . ما الذى أتى بك؟

فلما لم تجدنى راغبا فى الكلام، أدخلتنى الخيمة، وجففت ملابسى، وطلبت منى أن أخلعها، ثم أعطتنى ملابس أخرى، وأشارت أن أنام إلى جوار ابنها صديقى «موشيه» . . الذى كان سببا فى أن ضربتنى جدتى حتى كدت أموت بين يديها . . فقد ضبطتنى أنقل إليه وإلى أسرته بعض ما فى البيت من طعام وأحيانا من ملابس وأدوات للطهى والطعام . . ثم إننى ركبت حمار جدى . . وطلبت إليهم أن يأخذوه وأن يهربوا به . . ولكنهم خافوا فأعادوه واعترفوا بكل الذى قلته لهم!

وصحوت من النوم فلم أجد أحدا، لا الرجال ولا النساء ولا الأطفال ولا صديقى . . وجدت نفسى وحدى . . مع الدجاج والكلاب وفى ملابس أخرى

غير ملابسي . . وتولاني الخوف . ولما فكرت في أن أعود خفت أن أذهب في هذه الملابس المزركشة . . إنها ملابس واسعة . . نظيفة ولكنها قديمة . . ثم وجدت طرطورا فوق رأسي . . ووجدت إلى جوارى طعاما قد تغطى بفوطة : رغيفا وبيضتين مسلوقتين وبعض الأرز والبلح . . ثم لا أحدا!

ولم يكن لطفل مثلى فى السادسة من عمره أن يفهم ما هذا الذى حوله . . ومن هؤلاء . . ولماذا هم هنا . . ولماذا أنا أيضا . وجلست تحت الخيمة أرقب من بعيد كل الفلاحين وأولادهم . . أعرفهم . . بعضهم أقاربى . . وأسمع ما يقولون . . وتصورت أنهم سوف يتحدثون عن اختفائى . . أو توهمت أن أحدا يعرف مكانى، وأنه لابد أن أمى سوف تبعث بمن يبحث عنى . . وفى الوقت نفسه كنت حزينا ؛ فأنا لا أريد أن أغضب أمى، ولا أريد أن تتطاول عليها جدتى . .

وأخشى ما أعرفه . . فأمى سوف تضربنى كثيرا . إننى أجد لها ألف عذر، ولكن لو كانت جدتى تقلل من هذا الضرب أو هذا الغضب الذى يجعلها ترقد من الألم، ويجعلها تنزف دما من أنفها وفمها . . ثم تنهال غضبا على والدى الذى يسافر بعيدا ولا يعرف أحد متى يعود . . أمى فقط هى التى تريده أن يعود . . أما أنا فلا أريد ذلك . . فإننى لا أحب أن يرفع أحد صوته فى وجه أبى، وكانت جدتى وبعض خالاتى يفعلن ذلك!

ونمت . ولا أعرف كم يوما نمت، وكل الذى أذكره أن الخيمة قد امتلأت بكل شيء . . بالناس والأطفال والطيور والحيوانات . . وأننى غارق فى الماء . . وأن الماء يصل إلى عنقى . . ثم ينحسر إلى بطنى . . باردا عند قدمى . . ثم يعود الماء فينزل من عينى وأذنى . . وأحيانا أراه يهبط من عينى أم موشيه . . ومن والده . . ووالدتى . . وحتى جدتى هى الأخرى . .

لقد أصبت بالحمى، ولا أعرف ماذا جرى لى . وفى ليلة من الليالى أضاءت الدنيا فجأة واشتعلت النيران، وامتلأت أذناى بالصفير . . لقد أمسكت أم موشيه عودا من الحديد الساخن، وأدخلته تحت شعرى . . وكوتنى بالنار علاجا من الحمى، ولا يزال أثر الكى بالنار على الجانب الأيسر من رأسى . .

وعرفت فيما بعد أنها ذهبت إلى والدتى وأخبرتها أننى موجود عندها، وأننى ألعب مع أولادها، فلا خوف، ولاقلق . ولا أعرف ما الذى قالته والدتى . .

فقد اكتفت بحبسى فى إحدى الغرف ليلا ونهارا . . يومين . . ثلاثة . . خمسة . . لا أذكر، ولكنى لم أتحقق من ذلك . . فكنت قد اعتدت على أن أهرب إلى ما تحت السرير وأنا ما أزال طفلا صغيرا، وأمكث يوما دون أن أتحرك، أو أجوع أو أعطش . . ثم إن هذا «الحبس» ليس غريبا عنى . . فأكاد أكون هكذا دائما؛ فى حالة عزلة، انطواء . . انفراد . . انزواء . . مع الناس ولست معهم . . بينهم ولست على صلة بهم . .

ووجدت فى حياة الغجر النموذج الرفيع الذى يناسبنى تماما. إنهم وحدهم هناك، يتحركون بعيدا عن الناس. الناس هم الذين نبذوهم، ولكنهم لم ينبذوا الناس ولا أنفسهم. يتفرجون على الناس، يتربصون بالناس. جاءوا من المجهول، وسوف يذهبون إلى المجهول. لا أحد منهم عبء على أحد . . فلا هو أخوه و لا أبوه ولا صديقه ولا جاره . . ولا حبيبه ولا عدوه . . فليس هناك ما يربطهم بالناس، فكل رابطة رباط، وكل علاقة قيد . . وكل صلة سلسلة . .

ولما فكرت وأنا صغير أن أكون شيخا أزهريا، مثل عمى ـ لم أكن أعرف معنى ذلك، وإنما اختلط فى خيالى شيوخ ورهبان الكنيسة . . فقد تصورت أن فى الإمكان أن تكون لى صومعة وأن أظل شيخا . .

وعندما هربت مرة أخرى إلى خيام الغجر . . وطلبت من أم موشيه أن أتزوج ابنتها، وكان اسمها : شطارة . . لعلها . . إستير . . لا أدرى، وكانت فى الرابعة من عمرها. لم تضحك السيدة، وإنما وضعت يدها على خدى ونظرت فى عينى لترى إن كنت مريضا، ولكى أؤكد لها جديتى أخرجت من جيبى بعض الفلوس فسألتنى : من أين؟ قلت : وجدتها على سرير جدتى!

وضمتنى السيدة إلى صدرها، ووضعت الفلوس فى جيبها.

وكانت للغجر لغة لا أعرفها حتى الآن . . وكل ما أذكره أنها قريبة من لغتنا العربية . . ويبدو أنها بغير حروف . . فهى مجرد أصوات . . عين . . حاء . . فاء . . هاء . . لم أتحقق من ذلك فيما بعد. وكنت قد سمعت من موشيه أن الغجر يشربون من دم بعضهم البعض . . فهو قد شرب من دم أمه . . وأمه كذلك . .

وأبوه . . لكى يشعر الجميع أنهم من دم واحد . . وأنهم واحد . . وقدمت لها ذراعى وطلبت إليها أن تشرب من دمى . . وأن أشرب من دم شطارة . . وأننى لن أعود إلى أمى . . فقد قررت أن أهرب . .

وأتت السيدة بسكين ومرت بسرعة على ذراعى . . فسال الدم . . ولعقته بلسانها وكذلك ابنها وابنتها . . ثم جرحت ذراع ابنتها . . وسال الدم . . ولعقته بلسانى . . وكذلك ذراع ابنها . . ثم ذراعها هى . . وأتت بعلبة البن ووضعت مسحوق البن على كل الجروح!

وعندما فكرت فى هذا الذى حدث فى طفولتى فهمت لماذا كتبت مقالات فى مجلة كلية الآداب بإمضاء «حى بن يقظان». حى بن يقظان . . هذا بطل قصة كتبها الفيلسوف الأندلسى ابن طفيل . . وهى قصة طفل تبنته غزالة وأرضعته . . وعاش بين الغزلان يمشى على أربع . . وينطلق بسرعة . . ويعيش حيوانا بين هذه الحيوانات . . فأنا ـ إذن ـ ذلك الإنسان الغزال . . الإنسان الهارب من الإنسان . .

فقد كان هذا حلما من أحلام الطفولة أن أعيش بين الآخرين . . لا بين أهلى وأقاربى . . وإنما بين آخرين لا يملكون إلا حرية التنقل . . فلم أجد الاستقرار العائلى ولا الجدران المتينة . . كأنى يتيم . . أو أننى يتيم . . كأننى طفل قد تبنوه فى ظروف لا أعرفها . . كأننى شرعى المظهر، لا شرعى الإحساس . .

وعلى الرغم من أننى عرفت عن الغجر فى مصر وفى إسبانيا وفى إيطاليا وفى ألمانيا ما جعلنى أكرههم . . أو أنفر منهم . . وما جعلنى أرى أنهم ليسوا جميعا من الفلاسفة أو المفكرين . . فهم لم يختاروا هذه الحياة . . وإنما فرضت عليهم، وكل ما يتمناه أى غجرى هو بالضبط ما يتمناه كل بحار . . يريد أن يستقر على شاطئ . . وكل طيار يريد أن يسكن على الأرض . . وكل ضال أن يهتدى، وكل هارب أن يعود . .

ولم أفهم إلا أخيرا لماذا اخترت مثل هذين البيتين من الشعر وعلقتهما فى غرفتى فى مدينة سيدنى بأستراليا:

إذا شاب الغراب أتيت أهلى وصار القار كاللبن الحليب
وصار البر مرتع كل حوت وصار البحر مرتع كل ذيب!

فقد وجدت فى حديقة حيوان مدينة سيدنى غرابا أبيض . . وقفزت إلى معنى آخر : أن العرب كانوا يرون أن الغراب الأبيض لا وجود له . . فهو المستحيل . . فلما وجدت الغراب الأبيض هتفت قائلا : الغراب الأبيض موجود . . فلا مستحيل ياعرب !

ولكن المعنى الحقيقى الذى فى أعماقى هو أننى أنشد المستحيل . . فلا قرار ولا استقرار . . ولا أمن ولا أمان . . فلن أجد أهلى . . ولا أريد . . والحوت إذا سار على الشاطئ فهذا مستحيل . . والذئب إذا عاش فى البحر فهذا هو المستحيل . .

ولكنى وجدت أن هذا هو الممكن . . فالشاطئ ما الذى عليه . . عليه الناس . . المجتمع . . والمجتمع هو الحوت الذى يحتوى الناس . . إننا جميعا فى بطن حوت . . فليس يونس وحده . . أو «ذو النون» هو الذى ابتلعه الحوت . . وإنما كل الناس . . والقرآن الكريم يقول : ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه* فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين* فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين .. ﴾

إن نجاة النبى يونس من بطن الحوت تحتاج إلى معجزة . . إلى الله . . ولا نجاة للناس من الناس إلا بقوة الله !

وما الذى يفعله الناس فى بطن الحوت . . إنهم ذئاب يأكل بعضها بعضا . . فالحيتان على الشاطئ والذئاب أيضا ، والذئاب فى الماء وعلى الشاطئ أيضا . .

* * *

ولست أدرى متى أعود إلى الغوص من جديد فى أعماقى ، لا أعرف لماذا كان ما كان . . ولماذا لم أكمل ما بدأت . . ولماذا أشعر بأن الذى أكملته ليس إلا مرحلة . . وليس نهائيا . . فلا شىء نهائى . . وحتى بعد الموت ، فنحن نستأنف الحياة بصورة أخرى .

هكذا تقول لنا الأديان ، وهكذا استرحنا إلى ذلك . .

والكاتب الفرنسى بلزاك كان يقول لمن يجده مهموما يريد أن ينفرد بنفسه : لا أعرف بالضبط ما الذى سأكتبه ، كل الذى أشعر به هو أننى أريد أن أكتب . .

والمؤلف البوليسى چورچ سيمنون كان يذهب إلى الطبيب ، ويجرى فحصا عاما ، ويطمئنه الطبيب على قلبه وعلى معدته وعلى ضغطه وعلى تنفسه . وبعد ذلك يدخل إلى مكتبه حيث يوجد سرير ومطبخ صغير ، ويعلق ورقة على بابه تقول : مشغول حتى نهاية الأسبوع .

وعند نهاية الأسبوع يكون قد فرغ من إحدى رواياته التى بلغت ٢٥٠ .

أما المؤلف المسرحى الإسبانى لوبه دى فيجا الذى كتب ٢٢٠٠ مسرحية فكان يترك ضيوفه قائلا : لقد نسيت شيئا .

ثم يذهب إلى مكتبه ويغيب ثلاث ساعات . وبعدها يعود سعيدا ، قائلا : كتبت مسرحية كاملة !

ثم يستأذن من الضيوف لحظات . . ويعود ضاحكا : إن الخادمة قد عرفت عاداتى السيئة . . لقد أخفت المسرحية . . ولو وجدتها لمزقتها كلها ؛ لأعيد كتابتها من جديد !

وقد نسى الأديب الأمريكى همنجواى حقيبة بها عدد من القصص القصيرة وضاعت الحقيبة ، ولكنه نزل من القطار ، وجلس فى مطعم بمحطة سان لازار بباريس وكتب القصص التى ضاعت !

وفى يوم اكتشف الكاتب الأمريكى جون إشتاينبك أن كلبه قد أكل روايته «الفئران والناس» . . فما كان من الكاتب الكبير إلا أن استأجر أحد الأتوبيسات وأدخل الأتوبيس فى حديقة بيته ، ثم جلس يكتب الرواية كاملة ، من الذاكرة !

* * *

وعندى إحساس دائم ، بأن الذى كتبته من الممكن أن يكون أفضل ، وأطول . فما من مقال كتبته إلا أحسست أننى مخنوق تماما كأننى ارتديت ملابس طفل صغير . . ثم إننى حريص على أن أبدو مقبولا وفى الوقت نفسه ألا تتمزق هذه الملابس . . بعد أن أصبحت أطول وأعرض . .

ثم أعود إلى الذى كتبته، فأوضحه أو أضيف إليه . .

ولذلك فكثير من المقالات أتناول فيها المعنى نفسه، ولكن بصور أخرى . . فكأننى ألف وأدور حول المعنى لأراه وأوضحه، أو لأجسده لنفسى أحسن . . ثم أضيف إليه من إحساسى أو من تجارب الآخرين . .

وأذكر أننى سألت صديقى الروائى الإيطالى ألبرتو مورافيا فى ذلك، فقال: إن الفنان الحقيقى هو الذى يكرر نفسه . . لأن لديه معنى واحدا . . أو فلسفة واحدة . . يعبر عنها فى ظروف مختلفة . . ولو رجعت إلى كل مسرحيات شيكسبير لوجدت أن شخصياته لا تزيد على ست شخصيات . . هذه الشخصيات الإنسانية يضعها فى كل مسرحياته . . أى يهيىء لها ظروفا ومشاكل مختلفة . . ليرى ما الذى تفعله . . فهو يكرر نفسه؛ لأن لديه معنى واحدا . . فالمعانى مثل ينبوع واحد . . أو نهر واحد . . تتفرع منه عشرات القنوات . . والفنان مثل البلبل: له أنشودة واحدة!

ولما تعمقت فى دراسة الفلسفة الوجودية وجدتها تتحدث عن الإنسان نفسه فتصفه بأنه «مشروع» . . أى بأنه فكرة تنمو وتكبر يوما بعد يوم . .

أى أن الإنسان حيوان ناقص، وهذا الحيوان يحاول أن يكبر وأن يزداد حجما وسلطة وحرية يوما بعد يوم . . فأنت تساوى بالضبط ما تكتبه . . ما ترسمه . . ما تلحنه . . أو تغنيه . . أنت تساوى عملك، ولما كنت أنت ناقصا فعملك كذلك . . وما دمت حيا، فالكلمة الأخيرة لم تقلها بعد . .

فكل شىء «ليس بعد» . . أى لم يكمل بعد . .

الموتى هم الذين اكتملوا؛ قالوا ما عندهم . . آخر ما عندهم . . ولذلك يمكن الحكم على الموتى . . يمكن نقدهم . . لأنهم قد فرغوا من الكلام . .

ولكن الفيلسوف الوجودى سارتر وهو صاحب هذا الرأى، قد أصدر أطول كتاب عن أديب ما يزال حيا، فقد جاء كتابه عن الأديب الفرنسى «جان جينيه» فى ألف صفحة. الكتاب عنوانه «القديس جينيه ـ شهيد وكوميدى» . . وقد رأى سارتر أن الأديب الفرنسى رغم أنه ما يزال حيا، فقد فرغ تماما من كل ما لديه من أفكار . . فليس عنده ما يضيفه . . كأنه مات!

ثم أصدر أطول كتاب فى تاريخ النقد الأدبى عن أديب مات هو فلوبير، فقد جاء كتاب سارتر فى ثلاثة أجزاء، وهو فى هذا الكتاب يتحدث بتفصيل وجمال وعمق، عن الأديب الذى لا يحبه، لأنه نموذج للأديب الذى لا يلتزم بقضايا عصره؛ كذلك كان فلوبير . . ومن مبادئ الفلسفة الوجودية أن الأديب ملتزم، ولابد أن يكون ملتزما، وحريته لها قيد واحد: هو الالتزام بالعصر!

وقد رأى سارتر فى هذا الكتاب، أن الأديب فلوبير قد مات مرتين: مرة يوم وضع فى التراب، ومرة قبل ذلك عندما قرر أن ينزوى وأن يعتزل عصره، فحكم على نفسه بالموت، ولذلك فمن المنطقى أن يكتب عنه . . لأنه مات مرة بعد مرة؟

* * *

وفى نهاية كتابى «وداعا أيها الملل» . . جاءت بعض المقالات من الممكن أن تكون نظرة فلسفية إلى الحياة . . أى أن تكون «مذهبا» فلسفيا . . وربما كانت كلمة «نظرة» هى أكثر تواضعا من كلمة «المذهب» لأن المذهب أعمق، يحتاج إلى وقت أطول وإلى تأمل أكمل، لكى أناقش هذه المعانى ومدى قدرتها على الشمول: أى على تفسير الكون والإنسان والحياة والحرية والجمال والخير والعدل والموت والحياة بعد الموت . .

فبعد عشرين عاما من كتابة المقال الذى عنوانه «المسافات بيننا» . . والمقال الذى عنوانه: «فلسفة ما» أحسست أخيرا أننى أستطيع أن أعود إليهما وأملأ ما بين الكلمات بالمعانى والأحداث التاريخية والأدبية والنفسية . . أى أن أكسو العظام لحما . .

وأرى أن دراسات أخرى كثيرة يمكن أن أعود إليها لو اتسع الوقت . .

وفى كتابى «يسقط الحائط الرابع» حوار تليفزيونى بين العقاد وطه حسين والحكيم . . كنت أسأل العقاد عن رأيه فى طه حسين.

ثم أسأل طه حسين عن رأى العقاد فيه . .

وأسأل الحكيم عن رأيه فيهما . .

ثم أعود إلى العقاد أناقشه فى رأى الحكيم . . وبعد ذلك أسأل طه حسين . .

وقد نشرت هذا الحوار التليفزيونى ـ وكان للعظماء الثلاثة رأى فى كل منهم وفى دوره التاريخى .

وبعد أن نشرت الحديث ، وضعته فى كتابى المسمى «يسقط الحائط الرابع» . . ولم أجد إلا معنى واحدا : «شقاوة» صحفية . . لأننى أعرفهم الثلاثة . .

وكان من الممكن أن يصبح هذا الحوار التليفونى أساسا لكتاب فى أدب ونقد وفلسفة هؤلاء الثلاثة ، ولكنى لم أفعل . . ولا تزال هذه الفكرة تشغلنى . .

ونشرت رواية مسلسلة فى مجلة «الجيل» بعنوان «عريس فاطمة» . . وظللت أحلل شخصية فاطمة ، وأضعها فى ظروف اجتماعية صعبة ومعقدة حتى وجدتنى عاجزا عن إكمال القصة . . عاجزا عن إخراجها من المصاعب التى غرقت فيها . . وتوقفت ورحت أتعلل بأسباب كثيرة لعدم إكمال هذه القصة ، ولكن الحقيقة أننى لم أستطع . .

وأخيرا وجدت الحل ، فقد كنت أقرأ رواية «المعنى الحزين للحياة» للفيلسوف الأسبانى الوجودى أونا مون . . فجأة وجدت الحل . . فقد وقع الفيلسوف العظيم فى الحفرة نفسها . ولكنه خرج من المأزق بأن أدار حوارا بينه وبين البطل . . أى بين المؤلف والبطل ، يقول له البطل : كيف قررت أن تميتنى؟

أى أن البطل يسأل المؤلف : على أى أساس قرر أن يموت البطل ، لماذا لا يعيش أطول ، لماذا لا يجد له حلا أفضل؟ . . إنه هو الذى اختار له النهاية واختار له البداية . . وإن هذه عقدة المؤلف الذى لا يستطيع أن يدفع الموت عن نفسه فيتسلى بأن يحكم بالموت على الآخرين ! !

وهكذا أكملت قصتى بحوار بينى وبين البطلة التى عاتبتنى ، واتهمتنى بأننى أنا الذى وضعت نفسى فى مأزق . . فأنا الذى اخترت صفاتها وأهلها وظروفها . . وأنه كان من الممكن أن تكون النهاية أفضل ، لو أننى غيرت البداية . .

ولو اتسع وقتى لفعلت ذلك . .

فأنا لست مشغولا بالصورة النهائية لكل الذى أكتبه . . ولكن الذى يشغلنى هو ما أفكر فيه الآن وما أكتبه الآن . . ولا أكاد أكتبه حتى أنساه . . ولكن عقلى يروح ويجىء ويلف ويدور . . ويعلو ويهبط، ويلقى ضياء على ما سبق أن رأيت وتأملت وقرأت . .

وكما يحدث عندما أجلس للكتابة أو أزيل من أمامى الكتب والأقلام والورق والعقاقير . . لكى أرى المكتب خاليا تماما . . وكما أحب أن أنظر من النافذة فلا أرى إلا مساحات لونية وضوئية . . ولا تتركز عينى على شىء . . وأذنى على شىء . . فإننى هكذا أيضا عندما أشغل نفسى بالتهيؤ لكتابة شىء كبير . . دراسة كبيرة . . كتاب متكامل . . لا أحب أن أنشغل عنه بشىء آخر . .

ولذلك فكل فصول هذا الكتاب الذى بين يديك كان من أملى أن أجعلها كتبا مستقلة . . كل فصل يمكن أن يجىء كتابا، ولو جلست أفعل ذلك لاستغرق وقتا طويلا ولشغلنى تماما عن الذى فى رأسى، ولذلك قررت أن أنحى هذه الكتب عن رأسى تماما لكى أتمكن من التفرغ التام لشىء جديد . . هم جديد . . قلق جديد . . ضوضاء فى رأسى وفى أذنى . . برج حمام وحشى يتضارب ويتخبط ويشاكس بعضه بعضا . . عشرات الأجراس ترن ومطلوب أن أرد عليها حالا . . كأننى أمٌ ترضع عشرين طفلا معا . . ولا صبر عندهم، ولا إشباع لجوعهم، ولا مفر منهم. . مجالات مغناطيسية تدور حولى وتجذبنى وأقاومها وأطاوعها . . قاعة كبرى امتلأت بالمقاعد والمناضد وبقايا الطعام والشراب ورائحة التبغ . . لابد من تفريغها وتنظيفها وتنظيمها استعدادا لحفلة كبرى بعد ذلك . .

شىء من ذلك أحسست به، فكان لابد أن أسجل كل «مشروعات» الكتب التى هى «ليست بعد» كتبا . . وهى مثل مقالات طويلة جدا ومركزة، لا هى مقالات ولا هى كتب . . وإنما هى أطول من مقال وأقصر من كتاب؛ إنها «مشاريع كتب». . إنها ما تسميه الفلسفة الوجودية : الـ «ليس بعد» . .

وفى اللغة العربية تجد كلمة تناسب هذا المعنى تماما . .

ففى اللغة العربية تجد : بسر . . وابتسر . . أى تعجل الشىء قبل نموه ونضجه . .

والبسر أى الشيء الغض . . وكذلك يطلقه العرب على التراب الذى سقط عليه الماء حديثا . . أى لم يصبح طينا بعد . .

ويقال بسر النهر أى حفر فيه بئرا . . والنهر جاف . .

وابتسر الثمرة أى قطفها قبل أن تنضج .

والطفل المبتسر هو الذى ولد قبل الآوان . .

وكان الرسول عليه السلام قبل أن يخرج للسفر يدعو الله هكذا : «اللهم بك ابتسرت ، وإليك توجهت وبك اعتصمت ، أنت ربى ورجائى . . اللهم اكفنى ما أهمنى وما لم أهتم به ، وما أنت أعلم به منى ، وزودنى التقوى ، واغفر لى ذنبى ، ووجهنى للخير ، أين توجهت» .

وكلمة «ابتسرت» التى جاءت فى دعاء الرسول معناها : بدأت السفر . . وكل فكرة هى إحساس مبتسر . . أى ناقص ، ويحاول الكاتب أن يتممه . . يكمله . . فى مقال أو فى قصة أو رواية أو مسرحية أو بحث . .

ولذلك فكل الأفكار مبتسرة . . الأعمال الأدبية كذلك . .

ولا أعرف متى أعود ، أو يعود الكاتب إلى إكمال ما كتبه . . أى ما سجله ناقصا . . ولكنه وعد بينه وبين نفسه . . وإن لم يكن وعدا فهو حقيقة : أن كل شيء ناقص . . أن كل شيء قد اتخذ شكله النهائى . . إلا قليلا .

وإذا كان الكاتب لم يقل كلمته الأخيرة بعد ، فكذلك الإنسانية لم تقل كلمتها النهائية . ولن يكون ذلك إلا فى نهاية الزمان . .

وكان الفيلسوف الفرنسى أرنست رينان يتمنى أن يولد عند نهاية العالم ، ليعرف آخر ما قاله الإنسان . . وكيف انحلت مشاكله . . وسكن قلقه . . واستتب طموحه . . وكيف أصبح كل شيء كاملا . . تماما كما هو فى عقل الله . . فالله هو الكمال . .

وعندما تخيل الفيلسوف العظيم أرسطو صورة الله . . وجد أن الله لايصح أن يفكر فى الكون . . لأن الكون ناقص ، والله الكامل لا يفكر فى الناقص . .

ولذلك فقد وصف المؤرخون معنى الله عند أرسطو بأنه «أدار ظهره لهذا الكون» . . لأنه لا يليق بجلاله وكماله أن ينشغل لحظة بالناقص التافه الفانى من الأشياء . .

وإنما الله قد أودع القوانين فى الكون . . وترك الكون يمشى وفقا لحكمته هو . . والكون يمشى ويتحرك لأنه يريد أن يتغير وأن يتبدل ليقترب من الصورة التى أرادها الله . .

وكل فنان يرى فى نفسه لمسة من الألوهية . . أى لمسة من الإبداع . . والله سبحانه وتعالى هو المبدع . . والله قد خلق الإنسان على صورته . . أى بالعقل والحكمة والتطلع إلى المثل الأعلى . . أى إلى حكمة الله . . ولذلك فالأديب والفنان مشدودان إلى الأمام . . إلى إكمال ما بدآه . . إلى المضى فى «المشروع» . . أى يجعلان الذى «ليس بعد» صورةً لها ما بعد . . ما بعدها . .

وعندما تصور المتصوف الألمانى إكهارت كيف يكون الكون فى صورته الكاملة . . وجد أنه يشبه القطب الشمالى . . بارداً أبيض ساكنا ميتا . . بارد لأنه لا أحد هناك . . أبيض لانعدام كل ألوان القلق والمرض والعذاب . . ساكن لأن كل شىء قد بلغ نهايته . . ولذلك، فلا حركة نحو هدف . . ميت لأن الموت كمال الحياة . . الموت مثل نضج الثمرة، فليس بعد ذلك إلا سقوطها على الأرض . .

أما الحياة فهى الـ«ليس بعد» . . أى الاضطراب والقلق والطموح والخوف والحرية والثورة والغضب والانتهازية والجشع . . فالكل يجرى من أجل صورة أخرى . . من أجل إكمال الذى لم يكمل . . فكل شىء وكل حى وكل فكرة قد تحققت إلا قليلا . .

وعندما صدر أول كتاب لى كان اسمه «وحدى . . ومع الآخرين»، وقد كنت فى مدينة دمشق أتنقل بين المكتبات. وفجأة وجدت هذا الكتاب مطبوعا فى بيروت. لا أنساه؛ لونه قرمزى فاتح، وعليه شريط أصفر، وعلى هذا الشريط عنوان الكتاب . . واسمى على الجانب الأيسر من الغلاف . . مفاجأة سارة جدا . أول كتاب، أول مولود، أول خطوة فى طريق طويل بدأ فى نهاية سنة ١٩٤٧ بكتابة القصة المؤلفة والمترجمة . . والقصيدة المترجمة والمؤلفة . .

شيء واحد ضايقني في عنوان الكتاب هو حرف «الواو» . . فقد كان العنوان الذي اخترته هو «وحدى مع الآخرين»، وعرفت فيما بعد أن الصديق الكبير كامل الشناوى هو الذى أضاف «الواو» . . أما المعنى الذى أراده فهو أننى أكتب عن نفسى وعن الناس . . أى التأملات العقلية والواقع الملموس . .

ولكن المعنى الذى قصدته لم يدركه الأستاذ كامل الشناوى، فأنا أردت أن أقول إننى حتى عندما أكون مع الناس فأنا وحدى مع نفسى . . أو أستطيع أن أكون كذلك . . فالناس معى، هذا صحيح، ولكنى لست معهم. إننى فى عالم آخر . . عالم آخر من رؤيتى وسمعى وخيالى . .

إننى من المصابين بالسرحان الشديد . . فعندى هذه القدرة الهائلة على أن أسرح . . فلا أدرى بأحد أو بشيء . . وقد أبقى كذلك ساعات طويلة . . ولا أعرف بالضبط أين أنا . . وما الذى يدور فى داخلى . . ولكن عندى هذه القدرة على أن أنفصل عن كل الذى حولى . . فلا أرى ولا أسمع ولا أتابع . . عندى هذه القدرة على أن أطفئ الأنوار وأغلق النوافذ وأطرد كل من حولى فى ثانية واحدة . .

وقد ضاق الناس بهذا «السرحان» الذى يرونه إهانة لهم، وإغفالا لقدرهم، واحتقارا لشأنهم . . ولكن اعتدت على أن أتابع بعض ما يقولون . . فأبدو كأننى أفهم ما يقولون . . والحقيقة أننى غير ذلك تماما . . بل إننى أجلس أمام التلفزيون وأنظر إليه ولا أعرف بالضبط ماذا جرى . . لم أر . . لم أسمع . . ولكن الذى يرانى يخيل إليه أنه لا صغيرة ولا كبيرة قد غابت عن عينى . . ولذلك يمكن أن أرى الفيلم الواحد عشرات المرات وكأنه جديد تماما . . لأننى لم أشهده فى أى وقت . .

وتبدأ مشاكلى التى لم تنته، عندما يتعلق ذلك بالناس . . فأنا أصافح ببرود من أعرف جيدا وأصافح بحرارة من لا أعرف . . ويذهب الناس فى تفسير ذلك إلى ما لا يرضينى . . وأنا فى حيرة ولا أستطيع أن أعتذر لكل الناس عن هذا العيب، ولم أوهب القدرة على أن أضحك فى وجه الذين لا أعرفهم كأننى أعرفهم، ولا فى وجه الذين أعرفهم كأننى سعيد بذلك . . فحالة السرحان هذه هى «انسحاب عقلى» إجبارى . . أو توقف اضطرارى فى داخلى . . تماما كما يفعل الناس فى مواجهة سيد البيت أو رئيس العمل، فتتوقف الحركة فى الغرف المجاورة . .

لا صوت . . لا حركة . . لا إضاءة . . وإنما كل شيء همس . . احتراما له، أو تمكينا له من العمل أو النوم . .

وأنا عندما أجلس إلى الناس . . فإننى أطفئ كل الأنوار وأغلق كل النوافذ فى داخلى . . وأترك حارسا واحدا . . بوابا . . جنديا . . أما عقلى كله . . فمثل عمارة خرج منها السكان . . وأغلقت الأبواب والمصاعد وحنفيات المياه . . وعدادات النور . . لا شيء . . لا أحد . . وإنما فقط حارس أمام الباب يتابع ما يجرى حولى من كلام وحركة . .

ولو عرف كثير من الناس الذين أجلس إليهم وأحرص على لقائهم أو بقائهم أو حديثهم أننى لست موجودا تماما معهم، ما فتحوا أفواههم بكلمة واحدة . . أو مكثوا فى مكتبى أكثر من دقيقة . . فالذى يتحدثون إليه ويجلسون إليه، ليس هناك . . خرج منذ وقت طويل!

إننى أنتسب إلى هؤلاء الذين يمشون فى أثناء النوم . . كأننى كذلك . . أو كأننى غارق أطفو على الماء من حين إلى حين لكى ألقى نظرة على البحر أو على الشاطئ . . أو كأننى نوح فى الطوفان . . والناس هم الطوفان، أفتح نافذة أطل منها وبعد ذلك أغلقها، وأنا أستمع بوضوح إلى صوت الموج وصوت الرياح . . أو كأننى أحد رواد الفضاء قد ارتدى بذلته الإلكترونية الفخمة ولكنى لا أسمع ما حولى . . وإنما أنا فى عزلة علمية تكنولوجية تامة . . أو كأننى أحد السباحين الذين قرروا أن يعبروا المحيط فغطيت جسمى بطبقة من الشحم تعزلنى عن الحرارة والبرودة . . والتى تجعل جسمى أقل مقاومة للماء . .

وكثير من الناس يضيقون بركوب القطار أو السيارة أو الطيارة مسافات طويلة، ولكنى لا أضيق، فالمقعد الذى أجلس عليه، كأى مقعد، إنه مقعد معلق فى الهواء أو تحت الماء أو فوق القمر . . فأنا لا أدرى بشيء حولى . . وإنما غارق فى داخلى . .

وينطبق على حالتى ما قاله الشاعر الألمانى هينه عندما رأى الشاعر الفرنسى هيجو، قال: لقد انقلبت عيناه من كثرة النظر إلى داخله فلم نعد نرى إلا بياضهما!

فهل سبب هذا السرحان عدم قدرتى على التركيز على العالم الخارجى؟ ربما لضعف نظرى، فأنا لا أستطيع أن أرى تفاصيل الدنيا، وإنما أراها كلها جملة واحدة؛ أراها شاملة؛ ولذلك فأنا لا أنظر إلى العالم قطعة قطعة . . أو شخصا شخصا . . وإنما عموما . . هل هذا هو السبب؟ . . أو هل لأننى مشغول بمعنى الذى أراه؟ . . والمعنى هو التفسير الشامل لكل الأشياء . . هل هى الدراسة الفلسفية التى جعلتنى مهتما بالكليات لا بالجزئيات ؟ بالناس وليس بفلان . . بالأشجار وليس بشجرة . . بالطيور وليس بعصفورة واحدة . . بالدنيا وليس بالحياة . . بالكون وليس بالأرض . . بالخلق وليس بالمخلوقات؟ . .

ربما كان هذا أحد الأسباب . .

وليس معنى ذلك أننى غائب تماما، وإنما أحيانا . . وليس معنى ذلك أننى غريب عن الدنيا، وإنما مغترب بعض الوقت . . وليس معنى ذلك أننى أغمض عينى لأرى خيال الحياة، ولكننى أغمض عينى لأرى أوضح، وأسد أذنى لأسمع أعمق، وأسرح لأفهم أسرع . .

ولقد أمضيت سنوات طويلة أقف بباب محل «البن البرازيلى» فى شارع سليمان باشا . . مرتين فى اليوم . . مرة فى الصباح الباكر فيما بين السابعة والنصف حتى التاسعة صباحا . . ومرة بعد الظهر فيما بين السابعة حتى الثامنة والنصف مساء . . ثم أتوقف ببابه ذهابا وإيابا فى أى وقت . . كنا مجموعة من الأصدقاء نعمل فى الإذاعة ووكالات الأنباء؛ أصدقاء وزملاء الدراسة ورفاق المهنة . . وعلى باب البن البرازيلى وفى داخله وأمامه وفى الطريق إليه . . كنت أجدنى مشدودا مجذوبا . . بالزحام حولى لا أدرى به . . أجسام تروح وتجيء . . وألوان تتداخل . . تطفو على وجه بحيرة من البن . . أو فى ضباب من البخار . . أحيانا أحس كأن المحل ميناء على بحر من البن الأسود والبن باللبن . . والكابوتشينو والشاى . . وأننى بحار ينزل إلى الأرض . . سعيد بأنها ثابتة تحت قدمى . . أما الذى يتحرك فهو البحر . . الموج . . الهواء . . والحيوانات والناس والحيتان التى تخوض هذا البحر . . أو أن البحر هو الآخر ثابت جامد . . أما الذى يتحرك فهو أنا . . رأسى أو ما فى رأسى . .

أو كأن محل البن البرازيلى سفينة تتحرك وسط الأمواج والأهوال . .

أو أنه قطار وصل إلى نهاية الخط الحديدى . . وأنه واقف . . قرر الوقوف . . تعب من الانسياب على القضبان الحديدية . . وما صوت البخار ورائى إلا غليان القطار . . وأنا أحب صوت القطار وشكله وما يحدثه من حركة ولهفة بين الناس . . وأراه وأرانى من عائلة واحدة: الغليان والأحضان والانطلاق.

وكنت أرى محل البن البرازيلى مثل «الحمام التركى» الذى يستحم الناس فى بخاره . . ولكن بخاره من البن والشاى . . حمام يغسل الرأس ويغلى الفكر وينضج المعانى . . كنت على بابه أحس كأننى مثل أحد أبراج الحمام، والمعانى حمام وغربان وصقور . . كنت أقف كأننى «خيال المقاتة» - أى العصا التى يضع عليها الفلاحون جلبابا لإنسان فى حقل القثاء، فتهرب الطيور الجارحة فلا تأكل ثمار الأرض . . ولم يكن على أرضى شىء أخاف عليه . . وإنما كنت خيالا يستدعى الخيال ويستدرج الصقور من كل نوع . . وليس فى أبراجى طيور جارحة . . طيور فقط . . فأنا الذى أضع ريشها وأنزع أنيابها ومخالبها، وأطلقها حماما بريا أو حماما زاجلا . .

وعلى باب البن البرازيلى أكتب كل ما أشعر به فأنا واقف فى مكتبى . . وأنا مع الناس ولست معهم . . أفتح عينى ولا أرى، أذنى ولا أسمع، وأزاحم ولا هدف، وأشرب ولا طعم . . إننى فقط ألقى فى داخلى بالوقود وأتزود بالزاد . . وأنتظر أصدقائى وأعاتبهم أنهم تأخروا، ثم أغيب عنهم فى أبخرة البن والشاى . . وأرى الوجوه الحلوة تروح وتجىء وأبتسم . . أو أرد على ابتسامة . . وأحيانا أتابع بعينى الجمال والدلال خطوات ثم أتجه ناحية أخرى . . . و . . .

وعرفت كيف أن أرشميدس خرج من البانيو يصرخ يقول: وجدتها . . وجدتها. وكان فى حيرة علمية فهو يريد أن يعرف كيف يكون حجم الإنسان . . واهتدى إلى أن حجم الإنسان يساوى كمية الماء التى تخرج من البانيو إذا دخل هو فيه . . ولا أدعى أننى اكتشفت مثل الذى اكتشف، ولكن من المؤكد أننى أحسست كثيرا وتخيلت . .

وحتى بعد أن تنقلت بين القارات الخمس . . كنت أعود إلى هذه المسافة الضيقة من الأرض بباب البن البرازيلى . . وعلى هذه المساحة الضيقة أتلفت حولى . . كأننى مرصد فلكى له عدسة ضخمة تجوب الفضاء الخارجى وهى لا تبرح

مكانها . . أو كأنني العين نفسها الصغيرة في محجرها ترتاد الدنيا حولنا وهي في مكانها . . كأنني الرأس الذي استقر على الكتفين، ولكنه وسع الأرض والسماء، ما كان وما سيكون من مخلوقات الله، والله أيضا . . كأنني القلب الصغير الغارق في الظلمات والدم . . ولكنه مصدر النور والحب والرحمة . .

كان دمي من البن الأسود، ولكن هذا الدم الأسود هو مصدر النور والحور، مصدر الأفكار والابتكار . . هو الذي يمدني بالقوة الهائلة لأرى الناس ذهابا وإيابا وأتابع باللهفة والرغبة كل خد جميل وشفة وصدر وساق . .

سنوات على هذا الباب . . كأنني على باب جهنم أو على باب الجنة . . أو كأنه مثل أبواب الفنادق دوار، مرة إلى الجنة ومرة إلى النار، مرة إلى الداخل ومرة إلى الشارع . .

وكان يومنا مثل البن يبدأ ساخنا مرا . . ثم ينتهي فاترا فلا نشعر به . . ويتجدد مع البن نشاطنا وحيويتنا . . لا أظن أنني كنت أعرف طعم البن . . أو طعم الشاي . . كأن البن فكّر وألقى به في طاحونة عقلي وندور معا، هواء أدفعه إلى مروحة خيالي وندوخ معا . . ونضيع . .

وكان جوابي اليومي على أين نلتقي ومتى؟ فأقول: في البن . .

ولا أذكر الساعة، فمن المعروف أنني هناك صباحا ومساء . .

ولم أفكر كم من الوقت ضاع، ولا كم من العمر . . أكثر من عشرة آلاف ساعة في أكثر من عشر سنوات . .

لم أكن شاذا عندما نزلت من الطائرة واتجهت بحقيبتي إلى محل «البن البرازيلي» وبعد أن شربت القهوة ووقفت، وتلفت، وانتظرت ورأيت وتنهدت وتوجعت وتمنيت ـ اكتشفت أنني كنت على سفر، وأنني لم أذهب إلى البيت أو إلى المكتب . . فحملت إليه حقيبتي، فهو الطريق إلى كل طريق، والبداية لكل نهاية فما الذي هناك؟

لا شيء، لا أحد. أنا الذي هناك، أما الذي أريده فهو أن أكون في الزحام أقاومه ثم لا أدرى به. ومن هذا الزحام تتولد مقاومة سرية في داخلي لكي أكون

وحدى بين الأجسام والألوان والأصوات والروائح، أتصدى لها وأتحداها وأسد منافذ الحس عندى وأعكف على داخلى . .

هناك فى البن : الدخان والاحتراق . .

هناك ذرات القهوة . . كل ذرة كأنها «طبلة مسحراتى» توقظ كل خلية نائمة . . هناك أجد متعتى الكبرى فى أن أكون على الشاطئ . . الأرض ورائى والبحر أمامى . . هناك الوجود والعدم . . أنا الوجود وما عداى عدم . . هناك الصومعة . . فمحل البن صومعة راهب . . امتلأت بأصوات الدنيا، ولابد أن أنزه نفسى عنها، فليس راهبا من يعيش فى الصحراء، لا يقاوم إلا نفسه . . ولكن الراهب هو الغارق فى الدنيا، ويرفضها . . غارق فى اللذة ويزهد فيها . . ملاك بين شياطين . .

كأن محل البن البرازيلى أحد المعامل . . إحدى سفن الفضاء . . كأنه خيمة أسرة غجرية، أفرادها كثيرون وليست بينهم صلة أو علاقة . . إنهم معا، وليسوا معا . . إنهم خائفون معا حائرون معا، غرباء معا . . يتمسكون بحبال من أبخرة القهوة والشاى وسعداء بوحدة «الكيف». وبهذا التحدى . .

فعلى الرغم من أن البن الذى نشربه اسمه البرازيلى فقد اختلط بالذرة المصرية والفول والحمص . . ولكنه ما يزال يحتفظ بأكذوبة أنه جاء من البرازيل.

وكثيرا ما عاب علينا الناس أننا نقف بباب البن وأمامه نعترض الناس . . ثم ما الذى يجعلنا هكذا نتسكع على بابه . . مع أننا لسنا عاطلين ولا فارغين ولا تافهين . .

ورغم هذه المعانى، وبسببها كنا نقف ولا يهمنا ما الذى يقال. إننا نريد أن نقف، وفى هذا الوقوف كنا نحس أننا لسنا على الأرض . . وإنما فوقها . . ولسنا فوق الأرض . . وإنما فوق العمارات . . كأننا «إريال» لالتقاط الصوت والصورة . . كأننا تلك الأعواد المعدنية التى يضعونها فوق العمارات لتمتص الصواعق فلا تحترق العمارات . . كأننا أصابع لامعة تشير إلى النجوم . . أو كأننا تلك الأعمدة القوية الجبارة من الماء التى تخرج من رأس الحوت دليلا على أنه غاص تحت الماء، وأنه يريد أن يطفو، ولذلك يفرغ الماء من أعماقه لكى يخف وزنه . .

لا أحـصى عـدد الأفكار التى جـاءت وهبطت واسـتـقـرت . . الأفكارالدائرة والأفكار الزائرة والأفكار اللاجئة . . الأفكار التى تنفر منها الأفكار، والأفكار التى هى أذرع ممدودة ترحب بالشاب والجديد . . ولا أعرف كم مرة انعقد الزواج بينى وبين أحلامى . . ولا أعرف كم مرة خرجت الطرق ممدودة واسعة من رأسى لأسير عليها . . ولا أعرف كم مرة نسجت أحلامى كما ينسج العنكبوت بيته ودودة القز تابوتها الحريرى . .

ولا كم مرة رأيت تبادل المواقع بين عقلى وقلبى . . فمرة أجد قلبى على كتفى ومرة أجد عقلى بين ضلوعى . . ولكنى فى كل الأحيان كنت أحس قلبى يدق فى رأسى، ومعدتى فى يدى . .

كم مرة تمنيت لو كنت البطل أوقيانوس أبتلع هذا الكون وأستريح فى فراغه . . وكم مرة تمنيت أن أكون «شعاعا» أجوب الدنيا وأرتد حول نفسى . . أو أنطلق ولا أعود . .

هل كنت أنام واقفا؟ مرة واحدة، وأدركت يومها أننى من فصيلة الخيول التى تنام واقفة، فقد أسندت ظهرى إلى الحائط وأغفيت لحظات، ولكنى نمت، ورحت أضحك، فقد رأيت فيما يرى النائم . . وأدهشنى أن كل هذا الذى رأيته لم يستغرق إلا لحظات. ولكن العقل أسرع من الضوء، فأنا فى لحظة واحدة أجدنى على باب الجنة، أتخيل ذلك. وربما كانت المسافة بين البن البرازيلى والجنة ألوف ألوف ملايين السنين الضوئية . . كل ذلك رأيته فى لحظة واحدة!!

ويجىء ماسح الأحذية، ويدق قدمى، ويرفع إحداهما ويضعها على الصندوق، وأنظر إليه كأنه عفريت خارج من أعماق البحر . . ثم يدق بفرشاة، فأرفع قدمى الأخرى، ويصبغ الحذاء بالأسود، ثم يدق بالفرشاة بما معناه أنه انتهى من عمله، وأنه يريد حسابه ليتركنى ويبحث عن حذاء آخر. وكان ذلك يحدث كل يوم، لا أحد طلب منه أن يفعل ذلك، لا أحد رفض، أو استنكر. أنا أفكر وهو يعمل، وكثيرا ما نسيت أن أحاسبه، وكثيرا ما جاءنى بالقهوة، وكثيرا ما أشرت بيدى أطلب إليه أن يضع يده فى جيبى؛ لقد أصبحنا . . زميلين . . صديقين . . ابنىْ أسرة واحدة . . كل ما يلمسه يلمع . . وأنا كل ما أجده فى رأسى يلمع . . هو

صاحب لمسات لا معة، وأنا صاحب أفكار لامعة، فاللمعان والبريق والوميض والنور هى التى تجمع بيننا . .

فى أحد الأيام قال لى: عندى عروس لك . .

لابد أنه يرثى لحالى واقفا كل يوم بالساعات، وحدى؛ مرض ليس له إلا علاج واحد: ألا نقف هنا، وإنما أن تكون لنا بيوت وزوجة وأولاد . . أما هذه الوقفة . . هذه «اللطعة» فدليل على أننا ضائعون مضيعون . .

قلت: لكى نقف معا فى محل واحد؟

- كيف؟

قلت: ألا تشكو كل يوم من زوجتك . . إننى فى كل مرة أجىء إلى البن أجدك هنا . . فما الذى فعله الزواج بك!

قال: يا سعادة البيه، وهل أنا مثلك . . أنت رجل متعلم ولك وظيفة، أنا كما ترى وجهى فى الأرض . . وهل تحترم زوجة رجلا يملأ صدره من تراب الجزم!

ونهض الرجل ليكون فى مستواى وقال: الله يخليك ابحث لى عن عمل آخر عندكم . .

- وتجىء البن البرازيلى؟

- كل يوم . . والله العظيم سوف أترك عملى وأقف مع سيادتك . .

- أى أنك سوف تفعل ما نفعله تماما، رغم زواجك ورغم انتقالك إلى عمل آخر . . بل إنك سوف تعرض نفسك للخطر إذا تركت عملك وجئت تقف معنا هنا . .

ثم قال: البن أصبح أفيونة . . أنتم أصبحتم بالنسبة لى أفيونة يا سعادة البيه . . إننا نعرف بعضنا البعض منذ عشر سنوات؛ عمر يا سعادة البيه . . نصف عمرى . . فاكر يا سعادة البيه . . يوم سرق اللصوص حافظة نقودك . . أنا الذى دفعت لك القهوة أنت وضيوفك . . فاكر . .

وكنت قد نسيت ذلك تماما . .

واستأنف : والتاكسى . . أنا الذى دفعت أجرة التاكسى . . أخوة . . عيش وملح . . فاكر الأستاذ محمد عبد الوهاب . . عندما شددته بالقوة ليشرب فنجان قهوة . . والأستاذ عبد الحليم . . والست الخواجاية . . أنا الذى دفع الحساب . . شرف . . وعشرة . . أين أذهب . . ففى مصر محلات كثيرة للبن، ولكن هذا البن مزاج . . أى والله!

وهو بالفعل كذلك . . ليس المحل الذى هو مزاج، ولكن مجموعة من الصفات والمواصفات التى تريح الرأس والجسم، وتجعلنى فى الوضع المناسب لتفكيرى . . فأنا هكذا واقف على الجانب الأيمن للمحل . . وفى يدى فنجان القهوة، وفى فمى مرارة، وفى رأسى صحوة، وفى قلبى عزيمة . . ثم إننى وحدى . .

وبعد البن البرازيلى أتجه إلى مكتبى . . إنه فى شارع شواربى . . فقد كنت أعمل فى جريدة «الأساس» . . وبعدها فى جريدة « الأهرام» وفى «روزاليوسف» ثم فى «أخبار اليوم» . . تغيرت الأماكن وأشكال الكتابة وأحجام الكتب . . وبقى البن البرازيلى «موقف» البن البرازيلى . .

وعندما كتبت مقالى اليومى فى «الأخبار» ثم فى «الأهرام» اخترت له عنوان «مواقف» . . إما لأن الفيلسوف الوجودى سارتر قد اختار كتابا فى أربعة أجزاء بعنوان «مواقف» . . وإما بسبب هذا «الموقف» البنى البرازيلى . . ولم تكن مواقف سارتر إلا مقالات طويلة، ولكنها مواقفه الفلسفية والأدبية والسياسية. الحياة مواقف، والفلسفة مواقف، والإنسان يساوى بالضبط مواقفه . .

* * *

وكما يحدث فى أبراج المراقبة فى المطارات، أن تسجل الطائرات القريبة والبعيدة، وتحدد لها اتجاهها وسرعتها وارتفاعها . . وترسم لها طريق الهبوط . . فكذلك أنا أقف حكما بين أفكار متباعدة ومتقاربة وهابطة على مهلها وهابطة اضطرارا . . ولا أعرف إن كانت الطائرات تخرج من رأسى أو تأوى إليه . .

والعقل الإنسانى يستدعى الأحداث البعيدة، لأسباب لا أعرفها بوضوح . . ولكن لابد أن يكون هناك سبب . . فالعقل الإنسانى ليس مثل الحاسب الإلكترونى . . لأن الحاسب الإلكترونى يعطيك الذى أودعته فيه . . إنه مثل البنك تسحب منه ما أودعت مع فارق واحد أن البنك قد يضيف إليك أرباحا . . أما الحاسب فهو يعطى بسرعة هائلة ما أودعته . . أما العقل الإنسانى فهو يعطى ويضيف ويبدع . . ويعطيك ما لم تكن تعرف . . وما لم تكن تفكر فيه . .

أذكر أننى كنت فى جزر هاواى وتذكرت زجلا على إمساكية شهر رمضان فى بلدة أبى حمص. كنت فى هاواى سنة ١٩٥٩ وكنت فى أبى حمص قبلها بخمسة وعشرين عاما، ولا وجه للشبه بين الجمال والروعة التى بهرتنى فى جزر هاواى ولا بين فوانيس رمضان فى بلدة أبى حمص - راجع كتابى «حول العالم فى ٢٠٠ يوم» فى الفصول عن جزر «هاواى» . .

وعلى أثر هذا الحوار مع ماسح الأحذية، وما أثاره فى داخلى من موجات وتيارات وتراجعات تذكرت أبياتا حفظتها منذ كنت طفلا، ولا أعرف من الذى نظمها، ولكن لا أستبعد أن تكون قد جاءت فى مقامات الحريرى، وكان والدى معجبا بها. تقول الأبيات:

لا تقعدن على ضر ومسغبة … لكى يقال عزيز النفس مصطبر
وانظر بعينيك هل أرضٌ معطلة … من النبات كأرض حفها الشجر
وانقل ركابك عن ربع ظمئت به … إلى الجناب الذى يهوى به المطر
واستنزل الرى من در السحاب فإن … بلت يداك فليهنك الظفر
وإن رددت فما الرد منقصة … عليك قد رد موسى قبل والخضر

وربما كان المعنى الذى تداعى مع الموقف هو ألا ييأس الإنسان . . أى أن الذى قاله ماسح الأحذية يدل على يأسه وعلى ضيقه أو على خوفه علينا. وكأننى عندما تذكرت هذه الأبيات تذكرت نوعا من المقاومة لهذا المعنى ودعوة لشحذ الهمم والأمل والتفاؤل . .

وكان هذا المعنى عميقا فى داخلى فتذكرت أبياتا لوالدى، أعتقد أنها من مقامات الحريرى، وكان والدى أديبا، وإن لم يكن رغيفه قد اشتراه بالشعر وقراءة القرآن ورواية الأحاديث النبوية والأذان والصلاة . .

يقول والدى أيضا :

يقولون إن جمال الفتى وزينته : أدب راسخ
وما إن يزين سوى المكثرين ومن طود سؤدده شامخ
فأما الفقير فخير له من الأدب القرص والكامخ
وأى جمال له أن يقال : أديب يعلم أو ناسخ

والمعنى أن الأدب يزين الأغنياء، ولكن الفقير يحتاج إلى الرغيف والزبد.

وكان والدى يردد ما جاء فى مقامات الحريرى هكذا : أن رجلا ذهب إلى قرية . . إنه أديب مؤمن بأن الأدب لا يشبع ولا يروى . . وسأل الناس : هل يباع هنا الرطب بالخطب؟

فقيل له : لا والله . .

فسأل : ولا البلح بالملح ولا العصائد بالقصائد؟

فقيل له : لا والله.

فسأل : ولا الثرائد بالفرائد، ولا الدقيق بالكلام الدقيق.

فكان الجواب : فى هذا المكان لا يباع الشِّعر بشُعَيرة ولا النثر بنثارة . . ولا القصص بقُصَاصة، ولا الرسالة بغسالة، ولا حكم لقمان بلقمَة، ولا أخبار الملاحم بلحمة.

ولم يجد الرجل حلا لمشكلة الجوع والعطش إلا أن يبيع السيف، فأخذه واحد من الناس وهرب ولم يعد . .

وهكذا يترنح العقل بين تأييد للرأى ومعارضة له، بين الوقوف معه والوقوف ضده. وأحس كأننى برج بابل اهتز يمينا وشمالا . . فليس العالم أمامى هو الذى

يهتز وحده ولكننا جميعا نهتز ولا نتحرك، كالرادار . . مثل قرون الاستشعار عند الحيوانات والحشرات . .

وكثير من المعانى نهتدى إليها فى أثناء النوم . . أو عندما نصحو من النوم. ومعنى ذلك أن النوم قد فصل العقل عن المؤثرات الصوتية والضوئية حولنا . . فلما اتسع وقته وطال سكونه، استخرج المعانى والصور التى غابت عنه عندما كان صاحيا . .

إن العالم الرياضى الفرنسى بوانكاريه قد اهتدى إلى إحدى المعادلات الرياضية الصعبة وهو يضع قدمه على سلم الأتوبيس . . لقد عانى هذه المعضلة وتركها، وانشغل عنها، ولكن العقل عكف عليها، دون وعى منه، حتى وجد لها حلا . .

وأذكر أننى كنت تلميذا فى المدرسة الثانوية، كان مدرس الألعاب الرياضية يخرجنى من الطابور ويقول لى: اخرج أنت يا ابنى . . الله يفتح عليك . . اقرأ لك كتابا . . أما هؤلاء فهم طلبة فاشلون . .

ولم يكن المدرس يدرى أنه يحقق لى أغلى وأعز أمنياتى . . ألا أقوم بأى نشاط رياضى . . أو اجتماعى . . وأن أنزوى وأنطوى وأقفل نفسى على نفسى وأسرح . . فى لا شىء!

وكنت أحتفظ في جيبى وإلى جوار فراشي بنوتة صغيرة وقلم . . فكثير من الأفكار مثل الطيور المهاجرة . . تحط على رأسى . . ولذلك لابد أن أسجلها بسرعة . . كأن رأسى جهاز استقبال مفتوح دائما . . وهو يلتقط كل الأصوات على كل الموجات . . ولا أعرف أين مصدر هذه الأصوات . . ولا كيف جاءت . . ولذلك فإننى أبادر بتسجيلها بسرعة . .

بعض هذه الأصوات إجابة عن أسئلة فى رأسى سمعتها . . ولم أجب عنها . . أو سألتها لنفسى . . وبعض هذه الأصوات أفكار عابرة . . أو مشروعات طائرة . . تماما كما يسمع هواة اللاسلكى رسائل من مكان إلى مكان . . رسائل واضحة أو رسائل شفرية . . أو يستمعون إلى استغاثات من سفن فى عرض البحر . . أو من طائرات . . وبعض أجهزة الرادار والمراصد الفلكية تستمع إلى أصوات تتردد بين

الكواكب البعيدة ألوف الملايين من الأميال عن الأرض . . أو يسجلون بعض الشعاعات التى انطلقت من ألوف ملايين السنين، ولم تصلنا إلا أخيرا . .

إن شيئا ما يجيء دائما من مكان ما لسبب ما، وكل شيء يستحق أن أسجله . . فقد انشغلت به بشكل ما، فكانت هذه الأفكار مثل كرة الإسكواش تضربها لتعود . . مثل حمام الزاجل . . مثل المهاجرين واللاجئين والهاربين والنادمين والضالين، لابد أن يعودوا ويتوبوا . . ولابد أن يقولوا لأحد؛ أى أحد فى أى مكان : إنا هنا . .

ولذلك يجب أن أكون جاهزا لتسجيل ذلك . .

ثم عدلت عن ذلك تماما . .

فقد وجدت أن القلم والورق إذا كانا إلى جوارى، نهضت رغبتى فى أن أكتب . . وهذا يقلقنى، ويباعد النوم فى عينى . .

ووجدت أن كل الأفكار التى خطرت على رأسى لن تذهب . . لن تضيع . . سوف تعود . . فلاشيء يموت . . وإنما كل ما فى الكون يتوالد . . ويتواصل . . ويكمل بعضه بعضا . .

فأنا أعيش على لحوم الأبقار، والأبقار تعيش على الأعشاب والأعشاب تعيش على التربة والتربة هى بقايا إنسان وحيوان . . فكل شيء يعيش على شيء آخر . . والحياة تتوالد من الحياة . . والأفكار تتوالد وتتعايش ويختفى بعضها فى بعض مثل موج البحر . . ولكنها هناك دائما . . فلا خوف منها ولا خوف عليها . .

وآمنت بما آمن به الأديب البريطانى أرثر كونان دويل من أن الأشياء تلقى ظلالها على العقل . . وله قصة جميلة فى هذا المعنى : أن رجلا كان يحلم كل ليلة حلما واحدا، ولم يجد لذلك تفسيرا عند أحد من الناس، ثم اهتدى إلى أن فى غرفته مقعدا كان يجلس عليه رجل قتل وهو يكتب وصيته لخادمته . . وكان هذا هو الحلم الذى يراه كل ليلة بمنتهى الدقة . . إذن فهو المقعد الذى يحكى قصته . . يشع هذه القصة على عقله كل ليلة!

وكذلك الورق والقلم كان وجودهما إلى جوارى دعوة ملحة إلى أن أجلس وأن أكتب . . وألا أنام!

وأعود مرة أخرى إلى «كيمياء الفكر» . . فكثيرا ما أشعر أن درجة اليقظة والتنبه عندى زائدة . . أكثر مما يجب . . وأننى أكاد أكون عصبيا . . وأنا أعرف مقدما ما سوف يحدث . . سوف أكتب كثيرا وبسرعة فلا أعرف كيف أقرأ ما كتبت ولا أحد من الذين سوف ينقلون خطى بالآلة الكاتبة . . ولذلك أحاول أن أخفض درجة اليقظة العقلية وذلك بأن أتناول بعض الطعام . . أو أستمع إلى الراديو أو نشرة الأخبار . . أو الأغانى . . وقد «أسرح» فأنسى ما الذى أفعله ولماذا . . كأن آكل أكثر مما يجب . . أو أجد نفسى مشردا بين الإذاعات والأغانى . . وهنا أجد أننى بددت يقظتى . . فلم أعد قادرا على الكتابة . . وأعدل عنها نهائيا . .

وأكتفى بتسجيل بعض الأفكار أو مشروع المقالات لأعود إليها فى اليوم التالى . .

وأحيانا أجدنى مرهقا ، أعرف ما الذى سوف أكتبه بوضوح ، ولكن همتى وعزيمتى خائرتان ، فأنا أحتاج إلى تنشيط ، ويكون هذا التنشيط بعمل الشاى ، فقط الشاى بسكر قليل جدّا ، أو ببعض اللبن . . بشرط ألا أتناول أكثر من كوب . . أما الكوب فهو مشكلة أخرى ، فلأننى لا أعرف بالضبط كم كوبا سوف أشرب ، ولأننى أكره أن يتغير طعم الشاى أو درجة حرارته ، فإننى أضع الشاى فى كوب كبير جدّا . . «شوب» أكبر من شوب البيرة . . وبذلك أضمن طعما واحدا للشاى ودرجة حرارة واحدة . . وكثافة واحدة . . قد أشربه كله أو بعضه . . وقد لا أشربه . . فأنا أحاول تنشيط قدراتى العقلية . .

فأنا كما يقول الطبيب العظيم جالينوس : لست إلا وعاء من السوائل يختلط بعضها ببعض ، ومن هذه السوائل يتكون المزاج . . الذى أسميه أنا «كيمياء التفكير» . . أو البيئة الداخلية للعمل العقلى ؛ لأن هناك بيئة خارجية أيضا ، ومن اعتدالهما وانسجامهما ، أصبح أنا قادرا على الكتابة . .

ولذلك أطلت النظر فى حياة «حيوان اللؤلؤ» وكتبت عنه كثيرا . . فهو يعيش فى صدفة من الجير المنيع ، وهو يطبقها على نفسه . . برجًا صدفيا . . أو صومعة

محكمة . . أو معملا نائيا . . أو غواصة . . سفينة فضاء . . فى حماية تامة من أى تدخل خارجى . . حيوان اللؤلؤ هذا ينطوى فى داخل معمله يفرز هذه المادة اللامعة التى نسميها اللؤلؤ . . فى درجة حرارة لا تتغير . . وعلى ارتفاع ثابت عن سطح الماء ومن قاع المحيط . . أى فى مجال مغناطيسى تتساوى قوته على جوانب حبة اللؤلؤ . . وهذا ما اهتدى إليه علماء الفضاء أخيرا . . فهم يرون أن كل قطرة من الزجاج السائل أو الصلب السائل تكون كاملة الاستدارة فى منطقة «انعدام الوزن» . . لأنه لا توجد قوة جذب من أية ناحية، وعلى ذلك فجوانبها تكون كاملة الاستدارة . . وقد اهتدى إلى ذلك حيوان اللؤلؤ بالغريزة . . أنه لكى تكون الحبة كاملة الاستدارة، يجب أن تكون جميع قوى الجاذبية الأرضية ثابتة لكى يتحرك بمقتضاها فيقاومها . . حتى تكتمل الاستدارة لكل حبات اللؤلؤ . . أما الحيوان القلق الذى يعلو ويهبط . . ويفتح أبوابه ويقفلها . . والذى يبرد ويسخن ويجوع ويمرض فهو العاجز تماما عن «تكوير» حبة اللؤلؤ . . وكذلك المفكر والفنان!

* * *

ولا أدعى أننى سوف أعود بقلمى وخيالى وهمتى وعزيمتى إلى إعادة النظر والتأمل فى كل هذا الذى كتبت . . وإنما يكفى أن أوهم نفسى بذلك . . فإن اتسع العمر والصدر، فلعلى أفعل ذلك . .

وإلا فأنا وأفكارى وأنت أيضا قد قلنا كل ما لدينا . . إلا قليلا!

فالكاتب يشبه الذى يقف أمام القاضى ويقسم: أن أقول الحق ولا شىء إلا الحق . . وكل الحق!

أما إنه يقول الحق فصحيح . . ولا شىء إلا الحق فصحيح أيضا . . أما «كل» الحق فليس صحيحا . .

فلا أحد يعرف «كل» شىء . .

ولا أحد قال «كل» شىء . .

وإنما بعض الشىء بعض الوقت . .

. . أى الحقيقة . . إلا قليلا!

أدب السياسة
وسياسة الأدب (*)

ونحن طلبة صغار فى المنصورة الثانوية زارنا د. محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف. أما السؤال الذى كان علينا أن نجيب عنه فهو: ما الذى تحب أن تكونه عندما تكبر؟

وكان جوابى: لا أحب أن أكون مدرسا!

وكان ردا غير سياسى . . فمعناه أننى لا أحب أن أكون مثل هذا المدرس أو مثل ناظر المدرسة أو ربما مثل وزير المعارف، أى لا أحب أن أعمل عملا له علاقة بالتدريس والتعليم وتصحيح الكراريس . . وأن أقول اليوم ما سبق أن قلته بالأمس. وأن أمسك الطباشير وأشم رائحة الجير . . حتى الموت!

وكان صاحب السؤال هو مدرس اللغة العربية، وكان الرجل يحبنى ويحب والدى؛ فهو شاعر مثله. وكنت أحفظ الشعر، وأنظمه. وكان مدرس اللغة العربية يتوقع لى خيرا كثيرا فى صناعة الكتابة.

ولكن إجابتى كانت صادقة: فقد كان ذلك هو إحساسى أو انطباعى مما أراه ومما أرى عليه المدرسين من تعب وعذاب واستخفاف التلامذة الصغار، فقد كان بعضهم لا يحترم المدرسين كثيرا، بل إن المدرس كان يكلم الواحد منهم فلا يستمع إليه، ثم يطلب إليهم أن يتركوا الغرفة، فكانوا لا يفعلون إلا إذا جاء ناظر المدرسة.

(*) مقدمة كتابى: «فى السياسة».

وفى إحدى المرات رفض واحد منهم أن يخرج برغم صراخ ناظر المدرسة، فقرر الناظر أن يأتى بوالد التلميذ الذى هو يكبرنا بعشر سنوات على الأقل.

فلم أكن أرى إلا صورا مؤلمة للمدرسين . .

وعندما قابلت الرئيس أنور السادات لأول مرة سنة ١٩٦٩، وكان وقتها نائبا لرئيس الجمهورية، سألنى: ولماذا لا تكتب فى السياسة؟

قلت: سوف أفعل.

فعاد وسألنى: متى؟

فأجبت: غدا.

وكان ردا سياسيا، وكتبت مقالا سياسيا. وعندما عدت إلى هذا المقال بعد ذلك، لم أجده سياسيا تماما، وإنما وجدته نموذجا للشكل والمضمون اللذين أستريح إليهما، وأنا أستريح إليهما لأن هذا هو الذى أقدر عليه، وأنا أقدر عليه لأننى أمارس حريتى فى التعبير . . ولكننى أراه ليس سياسيا تماما، وليس أدبيا تماما إنما هو خليط من كل ذلك.

وفى مولد النبى عليه الصلاة والسلام ألقيت قصيدة أمام الشيخ حسن البنا فى مدينة إمبابة، وكنت فى ذلك الوقت عضوا فى جماعة الإخوان المسلمين، طالبا فى قسم الفلسفة بآداب القاهرة. وكان الاحتفال فوق مبنى الجمعية، وكانت إحدى ليالى الصيف الباردة، وكان الهواء شديدا، وحاولت أن أزرر قميصى، ثم وضعت منديلا فى صدرى. ونهض الشيخ حسن البنا، وقدم لى مجلة لأضعها بين قميصى وجسمى حتى لا أصاب بالبرد، ولم يكن الجو هكذا باردا، ولكنها مخاوفى، ثم اللحظة الحرجة: أن ألقى قصيدة فى مدح الرسول أمام فضيلة المرشد العام حسن البنا. ولا أعرف كيف أنهيت القصيدة، ولا لماذا تلقاها الناس بالتصفيق. ثم نهض الشيخ البنا وصافحنى وضمنى إلى صدره. ودعا لى بأن يفتح الله على.

ثم قال: لو حذفت بعض الكلمات مثل: الأبدية والعدم . . واللامتناهى . . والضرورة والمقولات . . لو فعلت لكانت أجمل وأوضح . .

وعندما فكرت فى هذا الذى قاله الأستاذ البنا وجدت أن الرجل كان فى غاية

الرقة، وكان أستاذا وأبا. فهو لم يشأ أن يقول: لو فعلت ذلك لكانت أوضح، وبذلك تكون أجمل.

فهو رجل الجماهير القادر على الحديث إليها فى بساطة وإقناع، والمثل الأعلى عنده هو أن يمتلك الجماهير. وامتلاك الجماهير لا يكون إلا باجتذابها، ولا يكون ذلك إلا بالقدرة على فهمها وتفهيمها بعد ذلك . .

وكان جوابى للأستاذ البنا: هذا ما فكرت فيه، ولولا أنك هنا لاعتذرت عن عدم إلقاء هذه القصيدة، فأنا أدرس الفلسفة ولم أفلح بعد فى التخلص من مثل هذه التعبيرات، ولكن سوف أعمل بنصيحتك وأحذفها قبل أن أنام . . بل لن أنام حتى أفعل ذلك، وهذا يشرفنى!

ولم أكن صادقا فى كل هذا الذى قلت، فلم أفكر لحظة واحدة فى أن هذه المصطلحات التى وضعتها فى القصيدة فى غير موضعها.

ولكن الرد كان سياسيا . . فقد وافقت الأستاذ البنا فورا على رأيه، وفى الوقت نفسه أرضيت الرجل عندما قلت له إننى ضحيت بالوضوح من أجل أن ألقيها فى حضوره وليكن ما يكون، فوجوده وإلقاء القصيدة بين يديه أهم كثيرا من كل عيوب القصيدة.

وعندما عدت إلى القصيدة بعد ذلك بوقت طويل، أيقنت أنها لم تكن مفهومة، وأيقنت أنه هو الذى كان سياسيا، فلم يشأ أن يقول إنها غير مفهومة برغم موسيقاها، ولكنه كزعيم سياسى لا يصدم الصغار، إنما يأخذ بأيديهم، فإذا لم يكن قد نجح فى هذه المرة، فلعله ينجح فى المرة القادمة . .

وعاتبت نفسى بعد ذلك كيف أسلم له بكل هذه العيوب من أول لحظة، لماذا لم أتمسك بكل كلمة، وأقول له: هذا أقصى ما أستطيع، وإذا كان أحد لم يفهم هذه القصيدة، فلأن مستوييه الفنى والفلسفى لا يرقيان إلى آفاقى البعيدة؟!

ووجدت أن هذه الإجابة، لو قلتها فى ذلك الوقت، لكنت خاليا من التواضع والذوق والأدب، ولكنت عنيدا مكابرا مغرورا . . ولكنت بعيدا عن السياسة تماما . .

ولم تمض هذه الحادثة الصغيرة دون نقاش طويل بينى وبين نفسى، وبين زملائى أيضا، وكثيرا ما رويتها متندرا برقة الشيخ البنا، أو متندرا بضعفى، أو مدللا على خجلى وسهولة إحراجى، أو على غرورى كطالب صغير تخصص فى الفلسفة وتهجم على كل المذاهب الفكرية والدينية، دون أن يصيبه من هذه المذاهب والنظريات شىء . . وإنما كنت كالذى يسبح ولا يبتل، ويمشى حافيا على الشوك ولا يقول : آه . .

أو أننى تخيلت ذلك . .

* * *

وأنا طفل ذهبت لزيارة جدى وجدتى، وكان ذلك فى الريف. وفجأة توفى خالى، وكان رجلا وسيما جميل الصوت، وقد تعلقت كثيرا بصوته ووجهه وهو يغنى، وكان الكثيرون يفعلون ذلك.

ولما مات انقلبت الدنيا واضطربت الأوضاع وتمزقت العلاقات . . وعرفت ما لم أكن أعرف من أشكال الحزن والغم فى الريف، ورأيت النساء يضعن الطين على رءوسهن ويصبغن بالسواد وجوههن، وكن يرقصن من الألم فى حلبات مثل حلبات الذكر، وأدهشنى أن أجد أمى أيضا. ولم أفهم شيئا. ولم أكن أتصور لحظة أن أمى هذه من الممكن أن تهتز أو يمزقها شىء أو تذوب دمعا على أحد . . فقد كنت أراها قوية صابرة، وكنت أرى عنفها وهى تضربنى كثيرا ولأسباب كثيرة أيضا، ولم تكن كلها أسبابا معقولة، ولكن عندما كبرت وجدت لها ألف عذر.
وبعد وفاة خالى وجدت من يقول لى : لا تلعب مع فلان . . لا تذهب إلى «هذه» المدرسة بعد اليوم . . ولا تجعل فلانا يدخل بيتنا . . وخاصة أخاه الأكبر . .

وأصبح من المحرم علينا أن نذهب إلى حارة فلان، وأن ندخل بيت فلان. انسدت بيوت كثيرة وأغلقت حارات كثيرة، وحرمت علينا علاقات عديدة، لماذا؟ لأن خالى مات.

ولكن ما علاقة خالى وموته بهؤلاء الأطفال أو الرجال. أشيع أن زوجته هى التى قتلته . . أو كانت سببا فى وفاته، ولذلك يجب أن نقاطع أسرة الزوجة وجميع أقاربها من الرجال والأطفال والبيوت والحارات والمدرسة التى يملكها أخوها . .

ودارت معارك كثيرة بالطوب والحجارة . . واستخدمت الأسلحة النارية . . وأشعلت الحرائق . . وهربت الجواميس والأبقار والأغنام ليلا من بيت إلى بيت . . ثم كان الخلاف على من يكون العمدة بعد ذلك!

وجاء عدد من البكوات والباشوات يحاولون إصلاح ما فسد من هذه العلاقات . . وأغلقت عليهم الأبواب والنوافذ . . وقدمت لهم الأطعمة الضخمة الفخمة . . ثم منعونا من الاقتراب من الحجرات التى يجلسون فيها . . وكان الكلام همسا والحركات لمسا . .

وبعد سنة من وفاة خالى سمعت والدتى تتحدث مع بعض صاحباتها عن وفاة خالى ، فتقدمت متطوعا قائلا : إنه لم يبلغ الثلاثين من عمره وفى صحة جيدة ، ومات فجأة لأن زوجته هى التى قتلته!

ورأيت عشرات النجوم فجأة أمام عينى ، فقد صفعتنى أمى على وجهى بمنتهى العنف!

وعرفت فيما بعد أن صلحا قد تم بين أقاربى وأقارب زوجة خالى ، فقد دفنوا الماضى مؤمنين بأن الأعمار بيد الله ، وأن خالى توفى لأنه كان مريضا ، وأنه كان لابد أن يموت .

ولم تقل أمى ما الذى يجب أن أفعله أو لا أفعله حتى لا تغضب منى ، ولكن عرفت فيما بعد أننى حشرت نفسى بين الكبار ، وأننى تدخلت فيما لا أعرف ، وأننى مثل والدتى تماما ، لم أكن سياسيا ، وكان فى استطاعة أمى أن تقول مثلا : إنه صغير . . إنه لا يفهم . . إنه ما يزال يكرر ما يقوله الناس . .

أو كانت تقول : إن حبه الشديد لخاله هو الذى جعله يتصور دائما أن التى قتلته هى زوجته ، وهو لم يكن يحب زوجة خاله لأنها ضربته فى إحدى المرات . .

ومضى وقت طويل جدًّا قبل أن أنسى هذا الذى فعلته أمى . .

* * *

ولكن ما هذا الذى كان ينقصنى . إنها السياسة . فما هى؟

يقال : إن الإنسان السياسى هو الذى يستطيع أن يتثاءب دون أن يفتح فمه ، أو إنه الذى يقول : نعم وهو يقصد أن يقول : لا . .

أو هو الإنسان الذى يحاول طوال حياته أن يجد كلمة واحدة للدلالة على: لا ونعم معا، ثم إنه لا ييأس . .

ومعنى هذه التعريفات الساخرة أن السياسة هى ألا يكون للإنسان رأى واضح فى شىء، أى يجب أن يكون حريصا على ألا يقول، على ألا يكشف عن وجهه. ولكن المثل يقول: كيف تضحك وتخفى وجهك . . أو كيف تبكى وتخفى دموعك. إن هذا غير ممكن . . ولكن الممكن هو أن يحسن الإنسان اختيار الوقت والأسلوب الذى يقول به: لا . . ويقول به: نعم.

ولكن لابد أن يقول . .

وفى كل هذه الأحداث التى رويتها كان المطلوب هو: نوع من ضبط النفس، أى أن يكون رأيى صريحا إلا قليلا، وأقرب إلى إرضاء الآخرين، أما الصراحة الكاملة فمن الواجب أن أحتفظ بها لنفسى . .

وفى يوم فوجئت فى بيتنا بواحد من أقاربى كان الاتصال به محرما، وسمعته يقول لوالدتى: ولكن ابنك ما ذنبه . . ما دخله . . يجب أن يكمل القرآن الكريم . . لم يبق غير جزء واحد، يجب أن يحفظه . وبعده افعلى ما تشائين . . إنه - باسم الله ما شاء الله - يحفظ بسرعة، لا تضيعى مستقبل الولد.

وأعتقد أن هذه العبارة الأخيرة هى التى جعلت أمى تتحدى كل الأسرة وتوافق على أن أذهب إلى المدرسة وأكمل حفظ القرآن الكريم، حتى لا يضيع مستقبلى . .

ثم سمعت الرجل يعود إليها قائلا: ولماذا يجىء إلى المدرسة سرا؟ لماذا تفرضين عليه أن يصحو فى الفجر ويسبق جميع الأطفال إلى المدرسة؟ حرام عليك . . إنه لا يسرق، إنه يحفظ كتاب الله . .

وكانت أمى تأمرنى أن أذهب مبكرا جدا حتى لا يرانى إخوتها وأخواتها، ويكون ذلك خرقا لاتفاق غير مكتوب بمقاطعة المدرسة وصاحب المدرسة لأنه أخو زوجة المرحوم خالى . .

ولم يمض وقت طويل حتى عاد الأطفال إلى مدرسة هذا الرجل . . وبعد أن ذهب الأولاد تقارب الآباء والأمهات وانفتحت الحارات والبيوت . . وكنا نلتقى جميعا لنقرأ الفاتحة على روح المرحوم خالى . .

ويحدث بين الناس وبين العائلات ما يحدث بين الشعوب والدول، تختلف، وتتقاطع وتتمزق، وتتباعد وتتحارب، ثم تتقارب وتتفاوض ويكون سلام. وأساس السلام أن كل طرف يريد أن يحمى حياته وثرواته ومستقبل أجياله . . وهذه هى السياسة الكبرى، التى تبدأ بسياسة صغرى بين الأفراد والعائلات.

فما هى هذه السياسة التى كنت أطالب نفسى بها؟

إن سقراط العظيم عندما قال: «اعرف نفسك» كان سياسيا.

ولكن عندما قال: «اعرف نفسك بنفسك» كان فيلسوفا.

لأننى بالآخرين، أى بعلاقتى بالآخرين، من الممكن أن أكون اجتماعيا وسياسيا. . أن أكون ابنا لأحد، أو أبا أو زوجا أو رئيسا أو شريكا، فكل هذه علاقات بالآخرين. وهى علاقات اجتماعية، وتنظيم هذه العلاقة وتأصيلها ومتابعتها وتطويرها والتمرد عليها ـ كل ذلك سياسة. ولكن أن أجلس وحدى، وأغلق بابى وعينى، وأنطوى أفكر فى هذا الإنسان الذى هو أنا، وأحاور نفسى وأضبط نفسى، وأتخذ لى شعارا أو قرارا أواجه به الدنيا، فأنا هنا متفلسف. ولكن عندما أطالع الناس بما قررته، ثم أصطدم بالناس ـ فى هذه الحالة فقط، ومع هذه البداية فقط ـ أكون على عتبة السياسة. تماما كما يجلس الإنسان على الشاطئ بعيدا عن الماء، فإذا فعل ذلك فهو ليس فى حاجة إلى دراسة علم وفن السباحة، أو معرفة قوانين الطفو، ولكن إذا ألقى بنفسه فى الماء، هنا فقط سوف يقاوم الموج، وفى الوقت نفسه يطفو عليه . . فلكى أسبح لابد من الماء، ولابد أن أقاوم الماء حتى لا أغرق، ولابد أن أنظم هذه المقاومة حتى أطفو وأسبح . . أى لابد من الحركة بالماء وضد الماء وعلى سطح الماء. وكذلك العلاقات الاجتماعية: هى علاقات مع الناس، وبالناس، وضد الناس.

ومعرفة طبيعة هذه العلاقات هى أساس علم الاجتماع، ولكن تنظيم هذه العلاقات هو أساس السياسة . .

أما تحليل طبيعة الإنسان أيا كان أبا أو أخا أو ابنا ـ هو أساس علم النفس . .

وكل إنسان له تاريخان: تاريخه هو فردا فى أسرة صغيرة . . وتاريخه هو فردا فى الأسرة الكبيرة التى هى المجتمع الكبير: القرية أو المدينة أو الحضارة الإنسانية.

ولكن على الرغم من أننى جزء صغير من شىء كبير، فإننى جزء متميز تماما عن الآخرين جسما واسما وإثما .

والناس جميعا مثل حيوان الكانجرو يجلس على ذيله، وكذلك الناس يستندون إلى تاريخهم . .

وتاريخى فردًا فى أسرة صغيرة لم يؤهلنى لأن أكون سياسيا، إنما يؤهلنى لأن أكون متفلسفا، أو مشتغلا بالأدب . فقد كانت حياتى فى الريف قلقة، وكانت أسرتى تنتقل من مكان إلى مكان، وكان من الصعب أن تكون لى علاقة ثابتة بأحد . فالشىء الثابت فى حياتى هو : أنه لا ثبات، وعلى ذلك فلا علاقات، بل لا ضرورة لأن أفكر أو أندفع إلى تكوين علاقة لا تدوم، ولذلك حرمت طويلا من الصديق . . تمنيت ولكنى لم أستطع، حتى والدى لم يكن مقيما معنا، ولذلك كان شوقى الدائم إليه، وارتباطى العضوى بأمى .

وكان أبى رقيقا عطوفا شاعرا، أخذ بيدى إلى عالم الكلمة الجميلة؛ فجعلنى أحفظ القرآن طفلا، وأحفظ مئات الأبيات من شعره ومن شعر المتصوفين . وكان جميل الصوت، وكنت أيضا، وتوهمت أننى سوف أصبح مطربا؛ إما استمرارا فى حبى لأبى أو خالى، وإما ارتباطا أقوى بالكلام الجميل فى القرآن الكريم والشعر الصوفى الغنائى، وإما كسبا لمزيد من احترام الناس . . فقد كان الناس فى الريف يحترمون رجل الدين ورجل الشرطة .

وكنت أريد أن أصبح رجل دين، وكنت أجد متعة فى ذلك، فإذا سألنى أحد عن شىء فإننى أجيب؛ فإذا طلب منى أن أحلف بالله العظيم، فإننى أقول له : لا أحلف . إننى لا أكذب، لقد حفظت القرآن الكريم!

فإذا قلت ذلك تغيرت الوجوه وامتدت الأيدى إلى رأسى تباركنى وتدعو بالخير .

إذن فأنا لا أكذب، وأنا هكذا مختلف عن كل الأطفال، ثم إننى أحفظ الشعر وأقرأ القرآن بصوت جميل، وكذلك أتغنى بالقصائد . . وبعد ذلك بالأغنيات المعروفة .

وكنت أتمنى أن يسمعنى أبى، ولكننى لا أجده، ولم تكن أمى تجد شيئا غريبا فى كل ذلك؛ فقد ثقلت همومها، وأرهقتها أمراضها أيضا.

وهكذا وجدت أن حبى لأمى ليس متبادلا، إننى أحبها وأتوجع لعذابها وهوانها، ثم إنها ليست قادرة على التعبير، ففى عينيها كل الحب، ولكنها لا تقول ذلك، وإذا حاولت أنا، وقد حاولت، فإنها لا تسمعنى.. فهذا الذى أريده منها ترف عظيم لا تقوى عليه، وليست فى حاجة إليه. إنها تريد أن تسمع منى عبارة واحدة فى نهاية كل سنة: أننى نجحت وأن ترتيبى جاء الأول!

وقد سمعتها من أمى فى كل سنوات الدراسة.

وتدربت طويلا على الصمت وعلى العزلة وعلى الانكفاء على الكتب، وتدربت على أن أرى الناس عن بعد.. فلم أكن قادرا على أن أراهم وأنا بينهم.. فلم يكن بينى وبينهم شىء كثير. ولا ألوم الناس، إنما هى الأرض التى تتحرك تحت أقدامنا فتباعد بينى وبين الناس.

والتصق خيالى وقلمى بذلك المثل اليونانى القديم: إن الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب! وأيقنت أننى هذا الحجر المتحرك، أما العشب الذى لا ينمو عليه فهو الكثير من العلاقات الإنسانية..

ولكى ينبت العشب لابد للحجر أن يستقر، أن يسكن؛ فيسقط عليه الماء، ويجىء عصفور يلقى ببذرة يتمسك بها الحجر..

وهكذا تولد كل العلاقات الإنسانية.. وانتقلت من هذا الحجر الذى لا ينمو عليه العشب إلى كل الأحجار التى تحدثت عنها أساطير الإغريق.. فلم يفارقنى ذلك الحجر الذى يدفعه البطل سيزيف إلى قمة جبل.. فإذا بلغ القمة انحدر إلى السفح، فعاد سيزيف يدفع الحجر أمامه إلى القمة، لينحدر إلى السفح.. وإلى الأبد.

فقد حكمت عليه الآلهة بأن يقوم بهذا العمل الذى لا معنى له..

وعرفت أن عظمة سيزيف هى أنه برغم علمه تماما بأنه لا أمل فى أن يتخلص من هذا العذاب، فإنه كان يدفع الحجر بحماسة وحيوية وتصميم، كأن النهاية آتية

لا ريب فيها. وتعلمت أن سيزيف قد أغاظ الآلهة بذلك . . فهو لم يشعر بسخافة ما يقوم به . . ولم يشعر بالملل، وكأن الآلهة يريدون أن يعذبوه بالملل وأن يعذبوه باليأس . . ولكنه هو الذى عذب الآلهة باستمتاعه بما يفعل . .

ولم يغب عن عينى ذلك الحجر الذى كان يتعذب به تنتالوس أيضا . . فقد حكمت عليه الآلهة بأن يجلس عند مدخل أحد الكهوف . . ثم يجعلون حجرا ضخما يسقط على رأسه ويكون لهذا السقوط دوىٌّ هائل . . يسبق سقوطه وفى أثناء سقوطه . . ولكن الحجر يتوقف عند مسافة قصيرة من رأس تنتالوس . . أى يخيفه ولا يصيبه . . ويظل الحجر يعلو ويهبط إلى الأبد . .

ولكن تنتالوس اعتاد هذا الخوف . . أو اعتاد ألا يخاف، وقد أغاظ الآلهة بهذه اللامبالاة التى تدل على أنه عاقل، وأن الآلهة ليسوا كذلك . .

وتمنيت أن يكون عندى «حجر الفلاسفة» يلمسونه فيتحول كل شىء إلى ذهب، ولم يكن الذهب أملى فى الحياة . . وإنما كان أملى أن أكون قادرا على التعبير الجميل . . وأن أكون قادرا على فهم ألغاز الكون ومشاكل الحياة . .

وعرفت معنى الحجر الذى تصنعه عيون الجرجون، ففى الأساطير الإغريقية أيضا أن بنات الجرجون إذا نظرن إلى شىء تحول حجرا؛ فمن الخير لهن ألا ينظرن إلى شىء . . إذا نظرن إلى الطعام أصبح حجرا، إذا نظرن إلى الناس أصبحوا أحجارا . . إذن فمن الخير لهن أن يعشن وعيونهن مغلقة . .

فلكى يكون الإنسان سعيدا فى هذه الدنيا، لابد أن يطبق عينيه كثيرا . . وألا ينظر إلى الآخرين أو ما فى أيدى الآخرين!

وتذكرت قصة لوط التى جاءت فى التوراة، فعندما أمر الله بإحراق مدينتى سودوم وعمورة خرج لوط وزوجته وبناته . . واحترقت المدينتان . . وطلب إلى زوجته ألا تنظر وراءها . . أو طلب إليها ألا تندم على ما فات . . وما تركته وراءها، وإلا تحولت إلى تمثال من الحجر . . وحاولت زوجة لوط أول الأمر ألا تفعل ذلك، ولكنها لم تستطع أن تقاوم حب الاستطلاع، أو الشعور بالندم أو الأسف . . فنظرت وراءها فتحولت إلى تمثال من الملح . .

إذن كان لابد وأنا أحاول أن أعرف نفسى بنفسى أن أنظر إلى نفسى دون أن أكون حجرا . . وفى الوقت نفسه أريد أن أكون حجرا ثابتا لينمو عليه العشب .

أى أن هناك مشاكل لا حيلة لى فيها . . ولا علاج لها إلا بأن يسكن الحجر ، فإذا لم يسكن الحجر ، فلا أفقد الأمل فى أن عشبا سوف ينبت عليه . .

وعندما ذهبت إلى الجامعة تخصصت فى الفلسفة ، ومعنى ذلك أن الفلسفة بدأت مزاجا نفسيا لأسباب اجتماعية ، فأصبحت أسلوبا عقليا لأسباب مهنية .

وقد كانت لى محاولات فى نظم الشعر وكتابة القصة . . وقرأت كثيرا فى الأدب وتاريخ الأدب ، وأحببت عددا كبيرا من الأدباء ؛ أحرص على ما يقولون وأنتظره وأتابعه وأنشغل به . .

ورأيت فى الشعر الصوفى الذى حفظته صغيرا كلاما كثيرا عن الله والوجود والكون والروح والشفافية . . ووجدت احتراما للقلب واحتقارا للمعدة . . ووجدت تعظيما للروح وتحقيرا للجسد . . ووجدت الله فى كل شىء ، ولذلك فكل مكان نجد فيه الله هو مكان يستحق الاحترام والتأمل ؛ فالله فى كل شىء . . لأنه لا يمكن أن يخلو مكان من قدرة الله أو حكمة الله . . وأن أعظم ما فى الإنسان أن الله فى كل خلاياه . . وأن الإنسان جزء من الله وقبس من نوره . . وأن هذه الدنيا فانية . . وأن الدنيا جسر نعبره ولا نعمره . .

وكان والدى يردد هذه المعانى كثيرا . . وكان له صديق من رجال الدين كنت أراه نموذجا رفيعا لكل ما يجىء فى الشعر الصوفى . . فهو نحيف القوام . . وهو هادئ الحركة . . وهو هامس الصوت . . وهو مضىء الوجه . . وهو لا يرفع عينه عن السماء . . وأكثر الكلمات ترددا على لسانه : الله . . والرسول . . والجنة .

ولم أكن فى ذلك الوقت أعرف كثيرا : كيف يكون إنسان بهذه الطيبة وبهذا الصفاء ثم إنه فقير ؟ !

وكذلك أبى . . كان هو الآخر طيبا رقيقا رحيما ، يبكى لأحزان الناس ، وينهض لزيارة المريض وشراء أدوية له . . أى مريض . . فى أية ساعة من الليل . . ثم يتغنى بكثير من الشعر له ولغيره وبكثير من آيات الله . . ويرفع يديه يطلب من الله شفاء

كل مريض وعودة كل مسافر، وكان يكثر من دعاء الرسول عليه السلام: اللهم أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين.

وكان والدى يقطع الدعاء ويلتفت ناحيتى ويقول ضاحكا ـ وكأنه يعتذر لى عن الذى حدث أو الذى قال ـ: ولكنك إن شاء الله سوف تكون شيئا آخر.. إن الله قادر على كل شيء.

ولم أكن أعرف بالضبط ما هو هذا الشيء الذى هو «أنا».. أو الذى لا يحب أبى أن أكونه.. لم أعرف..

وحفظت الكثير من أدب الدنيا والدين «للماوردى».. وأكثر ما فى هذا الكتاب عن آداب السلوك الأخلاقى.. أو العادات الفاضلة بين الناس..

وكنت مشغولا بالكلام الجميل. وكنت مشغولا بروايته، ولابد أن مثل هذا الكلام قد استقر فى أعماقى: متعة وأملا.. متعة عندما أرويه، ومتعة عندما أجد الناس يقدرون لى ذلك.. وأملا فى أن يكون لى مثل هذا الاقتدار فى التعبير..

وكان من الطبيعى أن أتجه إلى الفكر والتأمل.. وهذا أحد معالم نشأتى العقلية أو بداية اهتماماتى الفلسفية التى استغرقت كل حياتى.. فهى أقرب إلى المزاج الشخصى، والسلوك الاجتماعى.. أو «اللااجتماعى» على الأصح. ثم أسلوبى فى الاقتراب من الأشياء والناس والعلاقات الإنسانية والأحداث التاريخية..

ومثل كل الطلبة الصغار اتجهت إلى كتب الفلسفة، وأول كتاب وجدته كان فى «المكتبة الفاروقية» ـ وهى المكتبة العامة بمدينة المنصورة، وهى «الفاروقية» نسبة إلى الملك فاروق..

الكتاب صغير فى ٢٥٠ صفحة وعنوانه «تاريخ الفلسفة فى كل العصور» تأليف محمد أفندى حسن الهلالى. لقد ظللت أتردد على هذه المكتبة شهرا أقرأ هذا الكتاب؛ قرأته عشرين مرة، هل فهمت منه شيئا؟

يمكن أن أقول إننى التهمت الكتاب، ولا أقول تمتعت بذلك؛ أى أننى ابتلعت

الصفحات والمعانى والأسماء دون أن أجد لها مذاقا لذيذا. لقد كان مذاقها «خاصا» أى مختلفا فقط، ولكن بعض المعانى هزتنى، وبعض الأفكار صدتنى.

وأدهشنى أن أحدا من زملائى لم يعرف هذا الكتاب، ولم أشأ أن أحدث أحدا عنه، وظل الكتاب سرا. ثم هدانى هذا الكتاب إلى كتب أخرى فى الفلسفة، ووجدتنى أختلف عن زملائى، وأهتم بما لا يهم الكثيرين، ومضيت فى طريق تهيأت له نفسيا تماما.

إن هذا الكتاب قد فتح على نفسى، وأطلعنى على أعماقى، وأغمضت عينى لأرى أوضح وأجمل وأعمق، وعرفت الجلوس وحدى، والنظر إلى الأشياء وإن كنت لا أراها. وتوهمت أن الأشياء تحدثنى، وتوهمت النجوم تكلمنى، وتخيلت القمر يغازلنى، وقلت فى ذلك شعرا..

وفى مسجد الشيخ حسين بالمنصورة كان الخطيب فصيحا بليغا قويا يتزاحم الناس على سماعه كل يوم جمعة، وذهبت أيضا. ولم أكن فى حاجة إلى أن أسأل الناس لماذا هذا الزحام على الرجل، وعرفت السر الكامن وراء ذلك: إن الرجل يتفلسف، إنه يروى قصص الأنبياء ويفسر فلسفتها.. ثم إنه أول إنسان سمعته يتحدث عن المعنى وراء ما تنشره المجلات الأدبية للأستاذ العقاد ولطه حسين.. ولم أكن أعرف هذين الكاتبين العظيمين.. وكان يناقشهما ويعترض، وكان يعارضهما ويستفز، وكان يستفزنا وينتظر أن ننهض وراءه لنقتل هذين الرجلين!

وتخيلت فى ذلك الوقت أن خطيب المسجد قد اهتدى إلى الكتاب الفلسفى الذى قرأته كثيرا، وأنه هو أيضا، لا يريد أن يعرف الناس ذلك.. فهو يقلب الكتاب قبل أن يلقى خطبة الجمعة، فقد عثرت على بعض المعانى فى خطبه، أتى بها من هذا الكتاب، وأسعدنى هذا الاكتشاف؛ فقد التقيت مع خطيب المسجد عند الإعجاب بكتاب واحد، وأننا اهتدينا معا إلى كنز سرى لا يعرفه أحد!

ولابد أن يكون كتابا «قصة الفلسفة اليونانية» و «قصة الفلسفة الحديثة» اللذان ألفهما أحمد أمين وزكى نجيب محمود، ثم ترجمة زكى نجيب محمود لبعض «محاورات أفلاطون»، هى التى جعلت الأرض تستقر تحت قدمى نهائيا، وأصبحت الفلسفة طريقى وهدفى وطعامى وشرابى ومستقبلى.

فهذه الكتب تمتاز بالوضوح وجمال العبارة، ولا أظن أن أحدا استطاع أن يجعل الفلسفة تبدو أجمل وأمتع وأروع كما فعل زكى نجيب محمود. فهو فيلسوف أديب، أى أنه قادر على الفهم السليم وقادر على نقل الذى يفهمه فى عبارة أسهل وأجمل، ففى هذه الكتب يتحقق للقارئ المعنى العميق والفهم الواضح والأسلوب المشوق .

وكلها مشهيات قوية لمن لديه استعداد فلسفى . . وكان عندى هذا الاستعداد، أى الرغبة القوية والصبر على ذلك والأمل فى التفوق . .

وربما الذى أعجبنى فى الفيلسوف العظيم سقراط هو الذى أعجبنى فى الأستاذ العقاد بعد ذلك، فكلاهما قادر على توليد المعانى، بعضها من بعض، وكلاهما صاحب منطق قوى وحجة مقنعة، وكلاهما قد تفرغ للفكر، وكلاهما يرى أن الإنسان أعظم الكائنات وأن العقل أعظم ما فى الإنسان . . وأنه هو مركز هذا الكون، وأنه من الممكن أن يكون الإنسان فقيرا وعظيما . . وأن العظمة من شروطها الفقر أيضا؛ لأن الفقير إنسان حر من كل قيد . . فهو لا يملك، وما دام لا يملك فهو ليس مقيدا بما يملكه؛ لأن الذى يملكنى هو الذى أملكه . . فصاحب البيت ينام خائفا على بيته، وصاحب المال ينام خائفا على ماله . . وكذلك صاحب الأولاد والأحفاد، أما الفقير فقد تحرر من كل الأشياء التى يملكها . . والتى هى تملكه أيضا . . إلا عقله العظيم الذى لا يستطيع أحد أن يسرقه، والذى لم يحصل عليه من أحد . . وإنما هو هبة من السماء . . وهذا هو الفارق بينهم وبين الناس العاديين .

أذكر أن الأستاذ العقاد قال لى مرة ـ ردا على أنه جاء من أسوان ليضيء الحياة فى القاهرة ـ يا مولانا وهل تتصور أن الله يخلق موهبة عبثا . . خلقها «هناك» لأن لها ضرورة «هنا»!

وسقراط نفسه قال: إن آلهة الإغريق يحسدون الفلاسفة . . لأن الفلاسفة هم وحدهم الذين يعرفون ضرورة وجود الآلهة، ولكن الآلهة لا يعرفون ضرورة الفلاسفة!

ووجدت كتابا يتحدث عن حياة سقراط أكثر مما يتحدث عن فلسفته . . الكتاب اسمه «حياة سقراط» من ترجمة عباس ذهني حسنين، ومن تأليف رنيه كاستيلو، ولاحظت أن المؤلف يخرج المعاني والحكم من حياة سقراط، ومن علاقته بتلامذته، ومن علاقته بزوجته وأولاده . . وعلاقته بتلميذه أفلاطون.

أما المفاجأة الكبرى فهى أن لسقراط فلسفة فى السياسة . . إنه ينادى بقيام دولة من نوع خاص يتحقق فيها العدل ويكون الفلاسفة عند قمتها، والفنانون أصحاب العواطف والنزوات عند سطحها بل فى قاعها.

ولم أجد سقراط يتحدث عن «الدنيا» أى عن هذه الحياة اليومية . . عن هذه العلاقات الإنسانية وعن مشاكل الناس ومتاعب الناس . . إنه غير راض عن هذه الدنيا . . ولذلك يريد أن يخلق دنيا جديدة . . شعوبا أخرى . . علاقات نموذجية . . إن سخطه على هذه الدنيا جعله يفكر فى الدنيا المثالية التى لا وجود لها إلا فى خياله .

ووجدت فى الكتاب أيضا أن تلميذه أفلاطون حاول أن يحقق هذه الدنيا العادلة النموذجية، ولكنه فشل. وأذكر أننىٰ وجدت مثل هذه العبارة للمؤلف الفرنسى: عاش سقراط غريبا عن دنياه، ومات غريبا عن دنياه أيضا، كان أكبر من شعب أثينا، وأعظم من القضاة الذين حكموا بإعدامه.

ولكن أحلام سقراط لم تمت، ثم إن الكثير الذى استنكرته الإنسانية من خيال سقراط، قد تبنته كل المذاهب الديموقراطية والاشتراكية والشيوعية بعد ذلك . . فسقراط أستاذ الفلسفة والسياسة فى كل العصور!

ولم أعد أجد شيئا ممتعا عن الفيلسوف العظيم سقراط . . الفيلسوف «التوربين» أى الذى تتولد لديه المعانى من شدة تساقط الأفكار فى كل حوار مع تلامذته . .

ففى النقد الفلسفى يقال: إن سقراط هو الذى أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض . . أى أنه هو الذى جعل قضايا الفلسفة قضايا إنسانية . . فهو يحاور الشباب ويسألهم عن الحب والزواج والجنس والفقراء والأغنياء والجمال والجسد والفضائل والرذائل . . ولكن الذى فعله سقراط هو أنه فقط جعل لأفكاره صوتا . .

فهو لا يلقى خطابا أو يملى مقالا . . وإنما هو يجرى حوارا . . مع أى أحد . . ولذلك فكل الذين يحاورهم هم «أى أحد» فليست لأحد فيهم معالم متميزة . .

ومن الممكن أن تكون محاورات سقراط التى سجلها تلميذه أفلاطون ـ حوارا بينه وبين نفسه . . فهى تعطيك انطباعا بأنها مناقشة ولكنها ليست مناقشة علنية . . إنما هى مناقشة سرية . . فسقراط يريد أن يعرف نفسه بنفسه . .

* * *

ومن متابعتى لما تنشره مجلتا «الرسالة» و«الثقافة» وجدت سلسلة من المقالات عن «فلسفة دستويفسكى» والمفاجأة أن دستويفسكى لم يكن إلا روائيا عظيما ، وكنت أتصور قبل ذلك أن الفلاسفة هم سقراط وأفلاطون وأرسطو وهيجل وشوبنهور ونيتشة عباقرة تفرغوا للفكر فقط ، وليس بينهم واحد يؤلف القصص الطويلة أو القصيرة . . ولكن وجدت أمامى شيئا جديدا ؛ وجدت أديبا فيلسوفا ، ووجدت له فلسفة فى الحياة الاجتماعية وقواعد فى علم النفس الجنائى ، ووجدت قواعد وأصولا لبناء الرواية .

إذن هناك بين الفلاسفة : فلاسفة لهم دراسات تحليلية ، وفلاسفة لهم روايات فيها حياة وصراع . . ومن تصارع الأشخاص تتوالد أفكار جديدة ، مواقف جديدة ، وأنماط جديدة من الحياة .

ووجدت مقالا مترجما يقول : إن دستويفسكى هو «الينبوع الحقيقى» للفلسفة «الوجودية» المعاصرة . .

وكانت هذه أول مرة أقرأ كلمة «الوجودية» ولم أعرف معناها . . ولا شرح أحد ذلك ، وأصبحت هذه الكلمة «ضالتى» التى يجب أن أعثر عليها .

وفى امتحان مادة الفلسفة فى المسابقة التى أجرتها الدولة لطلبة التوجيهية سألنى الفيلسوف الكبير الأستاذ يوسف كرم قائلا : هل تعرف كيف تصف وجود الله؟

فقلت : إن «الوجود» ليس من صفة الله . إن الوجود من صفة الإنسان الذى يولد ويموت . . ولكن الله هو «الأبدية» هكذا تقول الفلسفة الوجودية !

ولا أظن أن الأستاذ يوسف كرم، ود. أبو العلا عفيفى قد أقنعهما ما قلت، ولابد أن الدهشة لما سمعاه قد جعلتهما يكتفيان بهذا القدر من الإجابة الجريئة من طالب ريفى، لا يعرف تماما ما يقول، ولكنه ذكر كلمة «الوجودية» ولم تكن معروفة كثيرا فى ذلك الوقت.

فالوجودية لا تزال ترى أن الأبدية والخلود من صفات الله، ولكن الوجود إنسانى؛ ولذلك فهو محدود. والله لا يوصف بأنه كائن ولا بأنه موجود، فالحيوان والنبات والجماد يوصف بأنه كائن، والإنسان يوصف بأنه موجود . . أما الله فاللغة لا تسعفنا فى أن نجد له صفات أخرى غير أبديته وخلوده . . بلا بداية وبلا نهاية . .

واهتديت إلى الفلسفة الوجودية الفرنسية فيما كتب الفلاسفة: سارتر وكامى ومارسيل، والفلاسفة الألمان: هيدجر ويسبرز، والفيلسوف الدنماركى كيركجار، وفيلسوفا إسبانيا: أونامونو وأورتيجا إى جاست، وفيلسوف روسيا: بردياف، وفيلسوف إيطاليا: أبانياتو، وفيلسوف إسرائيل: مارتن بوبر، وفيلسوف مصر: عبدالرحمن بدوى، وهو الذى قدم لنا كل مدارس الفلسفة الألمانية فى الحضارة والوجود والعذاب والألم واليأس والموت . . وقدم أيضا كل مصطلحاتها الغامضة، فكانت هذه المصطلحات هى مفاتيح كنوز المعرفة الجديدة.

وقد امتاز الفلاسفة الوجوديون الفرنسيون بالأسلوب الأدبى الجميل . . فسارتر كتب الرواية والمسرحية والقصة القصيرة . . وكامى كتب الرواية . . ومارسيل كتب المسرحية . . وكذلك أونامونو . .

وكتب كيركجار «اليوميات» الدينية والأدبية الممتعة . .

إنها دنيا جديدة مثيرة.

فوجدت فى الفلسفة الوجودية كل شىء أروع وأمتع . . فقد تحولت الأفكار الوجودية إلى قصص ومسرحيات وروايات ومقالات فى الأدب وفى السياسة وفى علم النفس.

وكانت الفلسفة الوجودية أقرب إلى مزاجى النفسى: إنها تؤكد فردية الإنسان . . أو تصحح فردية الإنسان. وترى أن الإنسان فرد حر . . أو أن الفردية

هى الحرية ذاتها . . فأنا عضو فى أسرة . . ولكنى عضو متميز تماما . . بل إننى أقوى من هذه الأسرة ومن هذا الكون كله . . فالكون من أوله لآخره ليست له ملامح متميزة مثلى . . ليست له عين مؤكدة ولا ذراع ولا ساق . . ولا هو قادر على أن يعبر عن نفسه . . أما أنا فأستطيع . . صحيح أننى جزء من كل، ولكنى أكثر وضوحا ويقينا من هذا الكل . .

وأنت عندما تتحدث عن «المجتمع» مثلا، فأنت لا تعرف ما الذى تقصده بهذه الكلمة . . وأنت عندما تقول الجماهير والشعوب، فأنت لست على يقين من المعنى المحدد الواضح لهذه الكلمات الضخمة . . ولكن عندما تقول أنا وأنت، فأنا وأنت على يقين من ذلك تماما . . فلا يوجد كائن حى منفرد اسمه : الشعب . . أو الجمهور . . إنما يوجد كائن حى متميز تماما اسمه : أنا . . واسمه أنت .

وقد ظهرت هذه المعانى الوجودية فى القصة والرواية والمسرحية . . أى كانت لها حياة اجتماعية ونفسية وسياسية . . أى أنه من الممكن أن يكتب الإنسان عن السياسة أو يكتب سياسة بصورة أخرى . . غير أن تجىء فى شكل مقال أو تحليل منطقى جاف مهما كان واضحا مقنعا . .

أى أنه من الممكن أن يكون الإنسان فيلسوفا سياسيا وأديبا سياسيا . . وشاعرا سياسيا .

وفى التاريخ كله فلاسفة وأدباء وشعراء سياسيون . . أى أنهم أدباء وفلاسفة وشعراء أولا، وسياسيون بعد ذلك .

وفى الوقت نفسه عاش فلاسفة وأدباء دون أن يشاركوا فى السياسة، فقد وجدوا أنهم عاجزون عن ذلك، أو وجدوا أن متعتهم الحقيقية فى أن يكونوا بعيدا تماما كما يفعل الرهبان فى الصوامع، أو كما يفعل العلماء فى المعامل .

وقد وجدتنى فى عالم الفلسفة مبكرا، ولكننى دخلت المجتمع متأخرا .

وقد حاولت أول الأمر أن أجد نفسى . فنظرت فى مرايا كثيرة . . وكانت المرايا صغيرة وكبيرة، وملونة وصافية، ومقعرة ومحدبة . وعندما لا أجد نفسى، أو

لا أجد صورتى كما تمنيتها ـ فإننى أنطوى وأنزوى وأعود إلى سقراط أعرف نفسى بنفسى . . وليس بالآخرين .

واشتركت فى جمعيات دينية وفكرية وروحية . . وكنت حجراً متحركًا ، لم ينبت عليه عشب كثيف . . (أرجو أن تقرأ ما جاء فى ثلاثة كتب من تأليفى ، هى : طلع البدر علينا . . وفى صالون العقاد . . ثم وداعًا أيها الملل) .

وقرأت ما كتبه المؤرخون السياسيون : الجبرتى والطهطاوى ، وابن النديم ، ومحمد عبده ، والعقاد ، وطه حسين ، والحكيم ، ود . هيكل ، والرافعى ، ونجيب محفوظ . ووجدت أنهم أدباء يكتبون فى السياسة ، أو ساسة يصنعون الأدب . أى أنهم جميعًا حريصون على الوضوح والجمال ، أى على جذب القراء ، أى كسب القراء بالفن والمنطق .

ورأيت فى السياسة الكثير من الفن والقليل من المنطق ، فمن مظاهر الفن : الخطابة . . أى العبارة التى ترن وتطن وتكتسح المستمع ، وتكتسح عقله قبل أى شىء آخر . .

ووجدت أن أسوأ ما كتب العقاد هو الذى كتبه فى السياسة ، فقد كان غاضبا دائما . ولم يكن سبب غضبه أنه على حق ، إنما سببه أنه وهو «رجل منطق» قد وجد من يعارضه . فالعقاد يرى أنه قادر بمنطقه وعقله الكبير ، على إقناع أى إنسان بأى شىء . . ولكنه عندما لا يجد ذلك ، فإنه يتخلى عن المنطق ويترك نفسه لعواصف الغضب ، ولذلك فالدراسات السياسية التحليلية التى كتبها العقاد ولم يكن يخاطب بها الجماهير ، كانت أفضل وأبقى . وهى أبقى لأنها أقرب إلى الأدب منها إلى السياسة .

وسلسلة «العبقريات» الإسلامية التى كتبها العقاد ثم كتابه عن «سعد زغلول» الزعيم السياسى ـ لم تكن سياسة ، إنما كانت أدبا فى السياسة ، أو كانت تحليلا نفسيا للسياسة .

وقد اختلفت أنا مع د . طه حسين ، وكان لنا حوار عنيف حول أسلوب العقاد فى دراسة الشخصيات الدينية والأدبية ، وكان رأى طه حسين أن العقاد عالم نفسى

وليس مؤرخا أو ناقدا أدبيا، وأن تفسير الأديب يكون استنادا إلى أدبه، والشاعر إلى شعره.

ولم أوافق طه حسين على ذلك . .

وكانت مقالات طه حسين فى السياسة أدبا جميلا، ولم يكن فى استطاعة طه حسين إلا أن يكون أديبا، فهو عندما يجلس للكتابة تطل عليه مئات الكتب من روائع الأدب والفن العربى والعالمى. ولم يكن فى استطاعة طه حسين أن يسد أذنيه عن الذى يدور حوله، ولا أن يمحو من ذاكرته تجارب السنين فى الأدب وتاريخه ونقده . .

وكذلك كان توفيق الحكيم، بل ربما الحكيم هو أقرب الجميع إلى الفنان الذى اختار أن يتفرج على المجتمع دون أن يشارك فيه كثيرا . . فكان إذا كتب مقالا أطل برأسه مثل نوح عليه السلام من سفينة النجاة، ثم رأى وسمع . . وأغلق النافذة وجلس يكتب.

وليس صحيحا أن توفيق الحكيم كان صاحب «البرج العاجى» إنما هو صاحب «البرج العالى» . . من فوقه يرى، وإليه يعود . . فهو ليس بعيدا عن الناس، ولكنه تباعد عن الناس ليرى أوضح . . فأنت إذا ألصقت لوحة بعينيك فإنك لا تراها بوضوح . . ولذلك يفضل الحكيم وغيره أن ينظروا من بعيد . .

ونجيب محفوظ هو المتفلسف بين الروائيين العرب، فهو قد درس الفلسفة وعلم النفس، وهو قد استوعب التاريخ . . ثم إنه قد تمكن من فن الرواية، ولذلك فنجيب محفوظ هو المؤرخ الحقيقى للحياة السياسية فى مصر. ولكن ليست له صفات المؤرخين الذين يعرضون ما حدث كما حدث، معتمدين على الوثيقة والتجربة الشخصية، ولكنه يعرض التاريخ شاعرا وفنانا وعاشقا وناقدا - وهو أكثر حرية من المؤرخين، وأطول عمرا أيضا. فالمؤرخون فى خدمة فنه، ولكن فنه تاج على رءوس المؤرخين . .

وإذا كان لابد أن أفاضل بين اثنين من المؤرخين: الجبرتى والرافعى - فإننى أفضل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى؛ فالرجل لم يكن سياسيا، إنما هو شاهد عيان ينقل بصدق وأمانة، وسجل رأيه بوضوح.

وتاريخ الجبرتى سجلٌ لكثير من العادات والتقاليد والألفاظ العربية والمصرية والأجنبية والمصطلحَاَت السائدة فى عصره، وعلى الرغم من أن الجبرتى كان حريصا على الصدق والأمانة ـ فإنه لم يشأ أن يكون جهاز تسجيل، وإنما كان يعلن غضبه واحتقاره لكل أشكال الظلم والقهر الفرنسى . . وكان يشيد أيضا بعظمة مصر . . وهذا هو الذى جعل مؤرخا عظيما مثل توينبى يقول «إن الجبرتى هو أعظم المؤرخين فى كل العصور» هكذا قال بالحرف الواحد .

أما أسباب ذلك فى رأى توينبى فهى أن الجبرتى قد أعجب بالتطور العلمى الفرنسى . وأعجب بالعدل الذى أظهرته المحاكمات الفرنسية ، فقد كانوا يأتون بالمصرى المتهم ويحاكمونه ويتركون له حرية الدفاع عن نفسه، ويأتون له بالمحامى يترافع عنه، وقد انبهر الجبرتى بكل ذلك، ولكنه فى الوقت نفسه ثار على الغزو والاحتلال .

وكان عبد الرحمن الرافعى رجلا طيبا على خلق كريم، وكان يسجل ما حدث كما حدث ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يقوم «بتصفية» التاريخ من الشوائب الأخلاقية أو الاجتماعية ، فتاريخ الرافعى تاريخ «مهذب» . . إنه يشبه الطعام المسلوق؛ إنه طعام صحى ، ولكنه لا طعم له . . أو ليست له نكهة النباتات الطازجة أو الغابات الوحشية .

وكان الرافعى رجلا حزبيا وسياسيا، وكذلك كان العقاد وطه حسين ود. هيكل . . ولم يكن الجبرتى وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ .

وقرأت فلاسفة التاريخ . . وهم أيضا فلاسفة السياسة . . أى السياسة التى سار عليها التاريخ أو فلاسفة التاريخ السياسى ، وتطور المجتمعات، وقواعد تطور المجتمعات .

قرأت فيلسوف الحضارة أوزفالد اشبنجلر ، قرأت مقدمة كتابه «انحلال الغرب» وقرأت تبسيطا لهذا الكتاب .

وقرأت ما كتبه د . عبد الرحمن بدوى ، وهو أول من قدم لنا فلسفة هذا الرجل ووضعها فى مكانها من الفلسفة الألمانية ومن الفلسفة الوجودية أيضا .

وقرأت ما كتبه المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى، وهو أيضا من فلاسفة الحضارة ولكن أسلوبه الأدبى على الرغم من قوته وتماسكه الشديد ـ لا يخلو من جمال، ثم إن له كتبا ممتعة فى تاريخ الأديان أيضا.

وقرأت ما كتبه فيلسوف الحضارة بندتو كروتشه، وهو أسهل الجميع عبارة وأبسطهم منطقا، وأقربهم إلى الأدباء والشعراء.

وقرأت «مقدمة ابن خلدون» فيلسوف علم الاجتماع العربى الأول، أو هو أول فلاسفة الاجتماع فى التاريخ، ووجدت أن ابن خلدون كان أقدر على أن يضع يده على التاريخين العربى والإسلامى، وأغناهم فى ضرب الأمثلة، وإن لم يكن أكثرهم إحاطة بتاريخ الحضارة الإنسانية.

والفيلسوفان هيجل وماركس كلاهما يستخدمان المصطلحات نفسها، ولكن لأسباب أخرى؛ فالفلسفة المثالية الهيجلية هى الفلسفة الماركسية تماما، ولكن هيجل جعل الدنيا تمشى على رأسها، وجاء ماركس فجعلها تمشى على قدميها، وكلاهما ينشد عالما ليس موجودا، ولكنه يرى أنه ممكن التحقيق.

ووجدتنى مستغرقا فى الفكر السياسى، والمذاهب السياسية.

وعندما أعود إلى ما كتبته عندما كنت طالبا فى الجامعة، فإننى أجده فلسفيا، أو فلسفيا أدبيا، أو فلسفيا دينيا، بما فى ذلك الشعر والقصة القصيرة والتأملات الرمزية.

ولكنى فضلت دائما أن أكتب «فى» السياسة.. أى أن أمس السياسة دون أن أنغمس فيها.. فقد كان من الصعب عقليا ووجدانيا أن أرتضى «إطارا فكريا» جامدا.. أى مذهبا فى السياسة أو فى الاجتماع أو فى الدين..

وربما كانت الفلسفة الوجودية أقرب دائما إلى مزاجى النفسى؛ لأنها ليست «مذهبا» ولا إطارا، وإنما كانت تمردا على الإطارات وعلى الأشكال.. لم تكن زيا فكريا، وإنما كانت نوعا من الملابس الواسعة لها شكل الملابس وإن لم تكن لها أناقتها.. وهى بذلك تغطى جسمى ولا تقيد حركتى، وإذا أنا خُيِّرت بين الزى المريح والزى الذى يبدو أنيقا فإننى أفضل الذى يريحنى!

وعندما أعود إلى فلسفة سقراط ـ ولا مفر من ذلك ـ فإننى أجد أن الذى عرفته عن نفسى قليل، وأن القليل ليس مؤكدا، وأن هذا الذى ليس مؤكدا لم يساعدنى كثيرا على معرفة الآخرين . . ولذلك لم أكن متأكدا من علاقات كثيرة.

وهذه الشكوك تجعل اتصالى بالآخرين ليس مريحا لهم، وليس مريحا لى . . فالذى ينزل البحر وهو ليس متأكدا تماما إن كان ماء البحر مالحا أو حلوا، أو كان عميقا أو ضحلا، والذى ليس متأكدا إن كان من الضرورى أن يعبر الإنسان الماء سابحا، بدلا من أن يركب زورقا ـ لا يمكن أن يتعلم السباحة، وإذا تعلمها فلن يكون سباحا ماهرا . . إنما سوف يسبح دائما إلى جوار الشاطئ، وفى الوقت نفسه سوف يكون لديه شعور دائم بأن الشاطئ أسلم. أما البحر فلا أمان معه.

وفى الوقت نفسه يرى أن الشاطئ وإن كان أسلم، فلا أمان فيه أيضا؛ لأنه ما دام هناك أناس آخرون، أو آخرون، فلا أمان لأحد . . ولا عزلة لأحد، ولذلك لابد أن يخرج الإنسان من عزلته ليأمن الناس، ثم يعود إليها مرة أخرى . . وهكذا . . مثل كل القواقع، ومثل كل الرهبان فى الصوامع، والعلماء فى المعامل، ومثل كل نوح صاحب سفينة فى طوفان العلاقات الاجتماعية المضطربة المعقدة.

وفى دراستى الفلسفية كنت أتقلب على مذاهب الفكر السياسى . . أى أصول ومبادئ التفكير السياسى فى الحرية والترابط الاجتماعى وحتمية التاريخ وتطوره أو تطويره بالقوة والثورة.

وكان أول درس تعلمته من الكتابة السياسية قاسيا، فقد كتبت مقالا بعنوان «حمار الشيخ عبد السلام» وعاقبنى عليه الرئيس جمال عبد الناصر بالفصل من عملى، وكنت فى ذلك الوقت سنة ١٩٦١ رئيسا لتحرير مجلة «الجيل» ومدرسا فى الجامعة.

ووجدت نفسى فى الشارع، بلا مرتب، محروما من الكتابة ومن التأليف ومن الخروج من مصر إلى أى مكان آخر. وفى ذلك الوقت طلب منى عدد من الأصدقاء والأمراء السعوديين أن أترك مصر نهائيا، وفكرت فى الهرب من بورسعيد، ولكن ظروفا خاصة منعتنى من ذلك!

أما هذا المقال فكان تعليقا على رواية توفيق الحكيم «السلطان الحائر» وقد عكست المعانى الواردة فى رواية الحكيم على أوضاع الصحافة فى مصر، وكانت قد أممت نهائيا. ولقى الأستاذان مصطفى أمين وعلى أمين كل أنواع الهوان، ولكنهما رفضا ذلك، ووجدا أن موقف الرئيس عبد الناصر لم يكن موقفا قوميا من الدرجة الأولى، ولكنه موقف شخصى. وكنت وثيق الصلة بالأستاذين على أمين ومصطفى أمين - وبعلى أمين أكثر - صداقة وحبا وتشجيعا وحزنا على ما أصابهما وأصابنى.

وأذكر أننى عندما أعدت نشر هذا المقال فى مجلة «أكتوبر» قرأه الرئيس السادات فقال ضاحكا: أعوذ بالله . . إن هذا المقال تستحق عليه الشنق وليس الفصل!

وفى أول لقاء للرئيس السادات بمحررى أكتوبر فى «ميت أبو الكوم» رويت قصة هذا المقال وحرية الصحافة فى عهد الرئيس عبد الناصر، وأعدت تعليق الرئيس السادات، وقلت مداعبا: سيدى الرئيس إنك تحيرنى . . فالرجل الذى كان يشنق الناس اكتفى بفصلى وأنت الذى لا تفصل الناس تطالب بشنقى!!

والدرس الثانى عندما انتقلت مع الأستاذين مصطفى أمين وعلى أمين إلى دار الهلال، فقد كتبت مقالا أقارن بين «الوحدة والعزلة»، وكان مقالا فلسفيا نفسيا. ولكن الذى لم يخطر على بالى أن الرئيس عبد الناصر قد وجد فى هذا المقال أيضا تعريضا به وسخرية بالوحدة مع سوريا والانفصال عنها، ولذلك أمر بمنعى من الكتابة. وأذكر أن د. محمد عبد القادر حاتم وزير الثقافة والإعلام فى ذلك الوقت قد دعانى للقائه، وذهبت فقال لى إن السيد الرئيس قد أمر بأن تعود إلى الكتابة.

ولما سألت الصديق د. حاتم: ولكن لماذا منعنى من الكتابة؟

فتضايق من ذلك قائلا: لقد أمر السيد الرئيس أن تعود إلى الكتابة، وهذا كل ما عندى.

ولما عدت إلى سؤال د. حاتم بعد وفاة الرئيس عبد الناصر: ولكن لماذا منعنى؟

فأقسم أنه لا يعرف.

وقبل ذلك تلقيت خطابا رقيقا من المرحوم على أمين، وكنت وقتها فى طوكيو، أدور حول العالم سنة ١٩٥٩، جاء فى خطابه:

إن الرئيس جمال عبد الناصر قرأ مقالك المنشور فى «أخبار اليوم» عن نظام «الشيوعيات» الصغيرة فى الصين فأعجبه جدّا وقال: إنه مقال سياسى ممتاز فلماذا لا يكتب فى السياسة؟

وفى واشنطون قابلت رئيس هيئة الاستعلامات وكان مريضا فى أحد المستشفيات وقال لى: إن الرئيس جمال عبد الناصر قد كتب بقلمه على هذا المقال.. إنه مقال سياسى رائع!

وفى سنة ١٩٦٣ ذهبت أتلقى جائزة الدولة فى أدب الرحلات من الرئيس جمال عبد الناصر، ولما اقتربت منه كانت له نظرة فاحصة.. أو هى نظرته العادية، لا أعرف، ثم سمعته يقول: هوه أنت!

ولم أفهم المعنى المقصود من ذلك، ولكن فى أحد الأيام روى لى المرحوم يوسف السباعى أن الرئيس عبد الناصر سأله: إن كنت شيوعيا؟

وكان رد يوسف السباعى: الشيوعى أنيس آخر.. عبد العظيم أنيس.. وليس أنيس منصور.

ربما أدى هذا الخلط بين الاسمين إلى أن يكون للرئيس عبد الناصر موقف خاص فيما أكتبه..

وفى يوم أخبرنى الصحفى اللبنانى الكبير سعيد فريحة أنه التقى بالرئيس جمال عبد الناصر وتحدث فى عودة الأستاذين مصطفى أمين وعلى أمين إلى مكانهما من «أخبار اليوم» بدلا من وقفهما عن العمل، فقال له: بل لابد من إذلالهما.. وحتى هذا الأنيس منصور اللى طالعين به السماء، قد فصلته هو أيضا!

وظل الشك يلاحقنى فى كل الذى أكتبه فى السياسة.. أو يكتبه غيرى فى مجلة «الجيل» التى أرأس تحريرها. فأنا لا أعرف أين يقع هذا الذى أكتبه - إذا سمح بنشره - من نفس الرئيس عبد الناصر أو الذين حوله..

بل أذكر أن الصديق إبراهيم بغدادى وكان وكيلا للمخابرات جاء يسألنى عن صورة على شكل ظلال قد ظهرت فى مقال عن صيد الأسماك فى بور سعيد،

وكان الموضوع عن نقص السردين بسبب السد العالى الذى أنهى عصر فيضانات النيل . ولم نجد صورة لصيد السمك نضعها مع المقال ، فوضعنا صورة ظلالية لرجل وامرأة ليست لهما معالم واضحة ؛ وقد وقفا عند السور الحديد على قناة السويس . وسألنى إبراهيم بغدادى : من الذى وضع هذه الصورة؟

فقلت : سكرتير التحرير . .

وسألنى إن كنت أعرف من هما صاحبا هذه الصورة . فقلت : لا أعرف .

واستدعيت سكرتير التحرير . وقال إنه لا يعرف من هما .

وسأله إبراهيم بغدادى : هل تعرف ناهد رشاد؟ فأجاب : لا .

وسأله : ولا يوسف رشاد؟ فأجاب : لا أعرفه .

وكانت الصورة الظلالية الباهتة لناهد رشاد وزوجها يوسف رشاد الذى كان طبيب الملك فاروق ، ولا أحد يعرف ذلك ، ولا معنى لها إذا عرف أحد ذلك ، ولا علاقة لها بنقص السردين بسبب بناء السد العالى !! وإنما وضعت هذه الصورة لتجميل الصفحة التى خلت من الصور . .

ومرة أخرى جاء الصديق إبراهيم بغدادى يسألنى : ما معنى أن تنشر فى مجلة «الجيل» أن الرئيس جمال عبد الناصر قد أقام حفل زفاف ابنته فى بيته «المتواضع» فى منشية البكرى؟

ولم أفهم ، وناديت المحرر الذى كتب هذا الخبر . . فقال : لابد أن يكون حفلا متواضعا لأنه لم يقمه فى فندق سميراميس أو فى فندق شبرد . .

وكان سؤال إبراهيم بغدادى : ولكن كيف عرفت أن بيت الرئيس متواضع؟

ولم يكن هو ولا أنا نعرف أن بيت الرئيس عبد الناصر ليس متواضعا بسبب التعديلات التى أدخلت عليه وعلى حديقته وعلى ملاعب التنس ولا أن به حمام سباحة . .

فظن الرئيس عبد الناصر والمخابرات أننا نغمز ونلمز !

وعرفت فيما بعد أن الشك والقيود لم تكن قاصرة على أنا وحدى وإنما لحقت كثيرين . .

* * *

ويمكننى أن أقول بمنتهى الوضوح إن نكسة سنة ١٩٦٧ هى التى جعلتنى كاتبا سياسيا، وجعلت الفلسفة أبعد عن قلمى، وإن كان الأدب والتاريخ وعلم النفس هى المداد والدم والعرق الذى أمزج به كل ما كتبت بعد ذلك.

فقد بدأت الصدمة الكبرى بأن ذهبت إلى الجبهة فى الأيام الأولى من شهر يونيو سنة ١٩٦٧، ورأيت وسمعت وانبهرت، وتوقعت أن النصر لنا لا شك فى ذلك، وقد جمعت قصائد الشبان وخطبهم . . ووعد بنشرها . . وامتلأت عينى وأذنى وعقلى وقلبى، وأصبحت مثل مدفع سريع الطلقات قد أعد إعدادا تاما لينطلق فى أية لحظة ضد العدو اليهودى.

وكنت آخر الذين عادوا من الجبهة يوم ٤ يونيو . . أو آخر مدنى قد عاد، فقد دعانى الفريق صدقى محمود إلى طائرته؛ لتكون النكسة بعد ذلك بساعات . . وليكون كل الذى رأيناه ترابا، والذى سمعناه صدى، والذى توقعناه سرابا. وليكون يوم النصر هو يوم الهزيمة، وليكون جمال عبد الناصر ـ ذلك البطل المصرى القومى ـ هو الزعيم الذى هوى، والفراغ السحيق الذى امتلأ بالألم واليأس والشك والذل والهوان . . وليكون أيضا هو الذى أجهز على الروح المصرية يوم قرر أن يتخلى عن الرياسة والزعامة، تماما كما يقرر قائد الطائرة أن يقفز بالمظلة بسبب الخلل التام فى المحركات . . ثم يترك الطائرة والركاب وينجو بنفسه جريحا مهينا!!

فتكون نجاته بالمذلة . . لا بالمظلة!

كأن انسحابه يعوضنا عن فضيحتنا وعارنا، أو كأن هذا فقط هو العقاب الذى يستحقه . . ولم يكن ذلك إلا لحظات وبعدها خرجت الجماهير تؤيد بقاءه مهما كان. فقد عاشت معه «على الحلوة والمرة» وعرفت معه العظمة والثورة ولن تتخلى عنه فى محنته الكبرى . .

وكان هو أسبق من الناس إلى المناداة بكل ذلك . . فحشد رجاله مئات الألوف

من الناس تطالبه بالعودة، وعاد جمال عبد الناصر، عاد غائبا . . وظل غائبا عن مصر والساحة العربية حتى مات .

بل إن غياب جمال عبد الناصر قد بدا يوم انتصر سنة ١٩٥٦ على العدوان الثلاثى، وكان غيابه نشوة غامرة، لأن انتصاره كان شخصيا .

ثم غاب مرة أخرى عندما كوفئ على هذا النصر السياسى بالوحدة مع سوريا . . وكان غيابه نشوة النصر العظيم . . غاب لأنه ارتفع وارتفع حتى لم يعد يراه أحد، أو يرى هو أحدا أو يسمعه أو يدرى به .

ولما وقع الانفصال كانت أعنف ضربة وجهت إليه فى كبريائه وفى كل ما يعتز به .

وكان احتشاده لمعركة ١٩٦٧، ولم يكن يقصد به إلا انتصارا على إسرائيل من أجل استعادة سوريا التى انفصلت .

وكانت النكسة أكبر هزيمة فى حياته وفى حياة الأمة العربية . . وقد أدت الهزيمة إلى غيابه نهائيا فى غياهب الهوان العسكرى، والعار المصرى، والشماتة العربية . .

إن هذه المعانى وغيرها قد هزتنى من أعماقى، ودفعتنى إلى الاعتقاد بعدد من الحقائق؛ فى مقدمتها : أننا حاربنا عدوا لا نعرفه، وحاربنا عدوا يعرفنا تماما؛ فكان لنا ما نستحقه، وكان له ما يستحقه .

ولذلك لابد أن نعرف عدونا . . واتخذت شعار «اعرف عدوك» فرحت أكتب عن اليهود فى التاريخ كله . . وعن إسرائيل وكيف أقيمت، وما الذى تريده الصهيونية العالمية من العرب ومن العالم كله . . ومن مصر بصفة خاصة . . وكتبت مئات المقالات فى «أخبار اليوم» و«الأخبار» و«الجيل» و«آخر ساعة» . . وهذه المقالات هى دراسات متعمقة للبيئة اليهودية والكيان الصهيونى .

ثم جمعت الكتب التى صدرت عن اليهود، والتاريخ اليهودى، والصهيونية وإسرائيل؛ باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية، ورحت أنتقل بهذا المعرض بين العواصم المصرية والعواصم العربية . وأذكر أننى ذهبت إلى طرابلس، وألقيت

محاضرة عامة، وكنت أدعو فيها إلى أنه إذا لم نعرف من هم هؤلاء اليهود وما الذى يريدونه لنا وبنا ـ فلا أمل فى نصر فى حرب .

وأصدرت ثلاثة كتب جمعت فيها كل هذه المقالات، هى : الحائط والدموع، والصابرا : الجيل الجديد فى إسرائيل، ووجع فى قلب إسرائيل .

وكانت هذه هى قضيتى فى الصحف وفى الإذاعة وفى التليفزيون .

وكانت المعانى التى أدور حولها هى : أننا يجب أن نعرف عدونا لأن عدونا يعرفنا . . فقد عاد جنود مصريون من القتال وهم يقولون : لم نر جنديا يهوديا .

بل إن واحدا من الجنود قال لى بمنتهى السذاجة : إننى لم أر إلا عددا من الخواجات!

ولم يخطر على باله أن اليهود «خواجات» لأنهم قد جاءوا من كل دول العالم ليحتلوا بالقوة أرضا ليست لهم . .

وفى ذلك الوقت آمنت بما قاله المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى عن أن الدولة اليهودية فى قلب العالم العربى لا يمكن أن تعيش طويلا، فليس لها نظير فى كل التاريخ . لابد أن تنقرض؛ لأنه مستحيل أن تعيش فى سلام؛ لا فى سلام داخلى بين جميع الطوائف والأجناس اليهودية، ولا فى سلام مع العرب حولها، ثم إن اليهود بسبب تاريخهم الطويل، ليس لديهم شعور بالأمان، وعدم الأمان يدفعهم إلى الشك، والشك يدفعهم إلى سوء الظن بكل الناس، وسوء الظن يدفعهم إلى الكراهية، والكراهية أم الحروب . . فهم يحاربون لا لأنهم يريدون الموت، ولكن بسبب الخوف وسوء الظن .

وكان من رأيى أن العالم كله قد اتخذ موقفا واحدا من اليهود، وهذا الموقف هو سوء الظن بهم؛ لأنهم حريصون على الانطواء والانزواء والاستفادة من المجتمع الذى يأويهم، دون أن يكلفوا أنفسهم شيئا فى التضحية من أجله . .

فهم هكذا؛ استغلاليون أو متطفلون، وهم أول من يقفز من السفينة إذا غرقت . . وأول من يتحالف مع العدو والقوى ضد أى شعب يعيشون فيه . . ثم إنهم لا ولاء عندهم لأحد . وإنما لدينهم ولشعوبهم . . ولإسرائيل!

وانتهيت إلى أنه لا سلام مع إسرائيل، وأن إسرائيل إذا كانت قد انتصرت على مصر والشعوب العربية فى سنة ١٩٦٧، فلابد من الانتقام . . أى لابد من حرب بعد حرب، فالسلام مع إسرائيل مستحيل، لأنهم لا يريدون السلام، وهم لا يريدون السلام لأنه مستحيل عليهم أن يعرفوه. انظر إلى كل تاريخهم فى العالم وفى هذه المنطقة.

ثم كتبت عن عشرات من الكتب تؤكد هذه المعانى . .

وقد ظهرت فى إسرائيل وفى أمريكا وفى بريطانيا كتب عن العلاقات المصرية الإسرائيلية، وكلها تهاجمنى، وتنقل عنى ما كتبته بعد النكسة.

وعندما بدأت أتحدث عن إمكانية السلام بين مصر وإسرائيل - كان تعليق الصحفى البريطانى دافيد هريست والصحفى الإسرائيلى أموس إيلون وغيرهما: أننى لا أقصد ذلك، فالذى أقصده قد جاء فى كتبى التى تهاجم اليهود، والتى هى عداء صريح للسامية.

وفى أعقاب النكسة العنيفة الموجعة كان رأيى أن السلام مستحيل مع إسرائيل . . ولكن بعد أن تمكن الرئيس السادات من أن ينتصر فى حرب أكتوبر وأن يفك الاشتباك بيننا وبين إسرائيل مرة ومرتين . . ثم أن يبادر بالسلام، ثم بالاتفاق بين البلدين - فوجئت بأن شيئا كنت أراه مستحيلا قد أصبح ممكنا، وفوجئت بأن أمامنا فرصة جديدة لنعرف إسرائيل بلا حرب؛ حتى لا تقع حرب، وإذا وقعت فلن نكون الجهلاء الذين ذهبوا فلم يروا ولم يسمعوا، وعادوا يقرءون ما يكتبه اليهود عن الذى حدث ليعرفوا ماذا جرى لنا . . ولكن بأقلام وعيون الآخرين، أعدائنا!

وما دام السلام المستحيل أصبح ممكنا، وما دام قد أصبح حقيقة، فلابد أن نعترف بما حدث، وأن نسعد بذلك، وأن نرى الصعوبات الكثيرة التى تواجهنا، أمرا طبيعيا. فالسلام أيضا صعب كالحرب، وإن كانت الحرب أقصر عمرا وأعنف أثرا، ولكن مصر التى حاربت وانتصرت، هى التى سالمت وانتصرت أيضا.

ولم تستوعب الدول العربية الشقيقة ما حدث، ولم يكن أحد يتصور أن شيئا من ذلك سوف يحدث، والموقف غريب وعجيب، ولكنه أصبح ممكنا.

ولم أشعر بأن انتصار السلام هزيمة لى، فأنا لم أكن أدعو إلى الحرب، ولكن كنت أرى الحرب ضرورة. وقد حدث أن حاربنا وانتصرنا، ولولا حرب أكتوبر ما كانت «مبادرة» سنة ١٩٧٧ ومعاهدة سنة ١٩٧٩ وانسحاب سنة ١٩٨٢ . .

والدول العربية الشقيقة معذورة إذا أفزعها أن مصر حكومة وشعبا قد اختارت السلام، فهذا الذى حدث لم يكن يتوقعه أحد، فلم يكن أحد يثق بأن إسرائيل سوف تفى بكلمة واحدة، ولا أحد كان يثق بقدرة مصر على أن ترغم إسرائيل على ذلك . . ولكن السلام فى صالحنا، كما أنه فى صالحهم أيضا.

وإذا كانت إسرائيل تصنع المشاكل، فسبب ذلك أنها يجب أن تساوم لتحصل على أطول وقت وأكبر مكسب، ولأنها بتاريخها لا تثق فى أحد، ولا فى قدراتها، ولا فى وحدة شعوبها وراء سياسة أية حكومة لها.

ولابد أن يكون هجوم الدول العربية على مصر بأقلام أبنائها، وبأقلام وخناجر مصرية - سببه أن مصر قد اختارت أن تمشى فى طريقها هى، لأنها هى وحدها التى حاربت والتى أضيرت والتى تهدمت مدنها وتهدمت معنويات ملايينها، ولأنها هى التى تجوع وتتعرى والتى لا تريد أن تسأل العرب عونا، مهما زاد عدد أبنائها ومهما زادت حاجتهم إلى السكن والطعام والشراب والنصر والسلام.

وكما لقيت مصر من رفض وعداء الدول العربية والمنظمات المتطرفة، لقى كتابها أيضا . . وأنا واحد منهم. ولكننى، ولكننا، لم نجد فى ذلك إلا تضحية عارضة من أجل سيادة مصر . . فلم يكن أسهل أن أعود إلى أصدقاء لى فى السعودية والكويت . . لهم صحف ضخمة . . ولهم دور نشر . . ولهم أموال كثيرة تفتح الطريق إلى المصايف الأوروبية شهورا من كل سنة . . ولكن كان نداء الواجب - ولا يزال - أعظم من ذلك.

ولا أزال أحتفظ بخطاب من الصديق الأمير عبد الله الفيصل، هذا الخطاب وجهه إلى الرئيس أنور السادات يستأذنه فى شراء قطعة أرض فى مصر الجديدة نقيم عليها مطبعة ودارا للنشر، قيمة هذا الدار عشرون مليونا من الجنيهات، وأنه يكلفنى أن أتولى ذلك، وقد تحدثت فى أمر هذه الدار الكبرى مع الصديق د. فؤاد إبراهيم، وكان عضوا منتدبا لدار المعارف . . ومع الصديق الناشر أحمد يحيى . .

وفجأة قررت أن أسكت نهائيا عن هذا المشروع الذى لم يعرف عنه الرئيس السادات شيئا، فقد وجدت أن الذى يغرينى فى هذا المشروع العظيم هو أننى لا أريد أن أشتغل بالسياسة، أما هذه السياسة فهى تأييد مصر فى موقفها من أجل السلام بغير حرب، ومساندة مصر فى موقفها من الدول العربية التى ترى أن مصر قد خرجت عن «طوعها» وليست الدول العربية التى خرجت عن «الواقعية المصرية» فى حل مشاكلها تمهيدا لحل بقية المشاكل العربية، وفى مقدمة هذه المشاكل هى أن تكون للشعب الفلسطينى دولة، تماما كما أن للشعوب اليهودية دولة هى إسرائيل، وأنه بغير هيئة تكوين الدولة الفسطينية فلا سلام لا مع مصر ولا مع العالم العربى . . وهذه هى إحدى الحقائق التى آمنت بها، بعد النكسة وبعد النصر، ولا أزال أؤمن بها بعد الانسحاب التام.

ويوم طلب منى التليفزيون الإسرائيلى عند خروجى من مكتب الرئيس الإسرائيلى نافون أن أتحدث عن السلام، قلت: هل من الممكن أن يذاع ما سوف أقوله؟ فقيل: طبعا.

قلت: إن السلام مع مصر هو سلام ناقص؛ لأن السلام يجب أن يكون كاملا، ولا يكون السلام كاملا إلا بعد قيام الدولة الفلسطينية المستقلة ذات السيادة، فإذا لم تقم اليوم أو غدا أو بعد عشر سنوات أو عشرين، فالسلام مؤقت . . فنحن قد ارتضينا السلام خطوة نحو هدف، الهدف هو السلام الشامل مع كل العرب، ولا يكون السلام شاملا إذا لم يكن للشعب الفلسطينى دولة . . تماما كما أن الشعوب اليهودية أقامت لها دولة، وليس من العدل أن يقال للشعب الفلسطينى لا تقل: آه إذا ضربك اليهود، بينما ملأ اليهود الدنيا صراخا عندما ضربهم هتلر وعندما طردتهم كل الشعوب الأخرى . . وهذا كلام ثقيل وموجع، ولكن هذا هو طعم الحقيقة . . اليوم وغدا!

ولذلك فإننى أعتبر نفسى «أحد الجيوب» التى قاومت الاحتلال الإسرائيلى لسيناء، وأن مقاومتى اتخذت شكل المقالات العنيفة والكتب الملتهبة، وقد انغمس قلمى فى مرارة الهزيمة، ونارالانتقام.

وفى الوقت نفسه، لا أعرف مثل ملايين الناس، ما الذى يمكن عمله عسكريا، وكنت أؤمن أنه لابد من حرب.

وعندما كان الرئيس السادات يتحدث عن الحرب كنت واحدا من الذين لم يصدقوه، وصارحته بذلك أيضا، ووجدت أن العالم كله لا يصدقه، لأننا أناس صناعتنا الخطابة والكلام.

وبعد ذلك اكتشفنا أنه من فضل الله علينا أن أحدا لم يصدقنا عندما نادينا بالحرب والاستعداد لها، ولذلك انصرفت عنا عيون المخابرات الإسرائيلية والأمريكية والسوفييتية، وكانت الحرب مفاجأة مفزعة، أبكت عيونا كبيرة من قادة إسرائيل، وأدمعت عيونا كثيرة على إسرائيل فى العالم كله . .

فلما كانت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣، كان ذلك انتصارا عظيما للذين يقاومون الاحتلال اليهودى بأقلامهم، وللرافضين للهزيمة النفسية . .

وأنا أجد عذرا مقبولا لكل الأدباء والمفكرين الذين تشككوا فى صدق نيات الرئيس السادات عندما أعلن أنه يستعد للحرب، وأن الحرب هى الوسيلة الوحيدة للنصر النفسى أولا، والكرامة العربية ثانيا، والعزة العسكرية ثالثا . .

وعندما طلب منى الرئيس السادات أن أصدر مجلة «أكتوبر» كان أمله أن تحمل هذه المجلة اسم النصر العظيم، وأن تمضى فى حمل عبء النصر تمهيدا إلى نصر أكبر . . أو إلى السلام، وكان السلام حلما قديما فى رأس الرئيس السادات، بدأ بما أعلنه سنة ١٩٧١ . . وكان مجرد فكرة يقلبها ويناقشها ويستشير فيها ويحسب لها الخسائر والأرباح . . ووجد أن الأرباح، مهما كان الطريق إليها صعبا، أعظم وأبقى . . وسوف يقتنع بها المصريون والعرب واليهود على سنوات طويلة، لأن خطوة السلام أجرأ وأعظم من أن يستوعبها أحد فى حينها.

وعاودنى الشك كثيرا بعد النصر فى أكتوبر، فقد رأيت الصعوبات التى تضعها إسرائيل على أرضنا وفى طريقنا، ولكن لم أعرف كيف تكون الحرب بعد ذلك، وكيف تنتهى هذه الحرب الصليبية - أى الحرب الدينية بين المسلمين واليهود.

وارتفعت نبرة الكلام، وحدة المنطق، واتسعت الهوة بيننا وبين ما نحلم به. ولم

يجرؤ أحد أن يقول إن الخطوة القادمة هى الحرب، فقد أصبح معروفا أن حرب أكتوبر كانت مغامرة عنيفة، وأننا لا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك . .

ولكن برغم الاعتراف بهذه الحقيقة المؤلمة، فإننا قد انتصرنا . . أو إننا قد هزمنا إسرائيل وأوجعناها وأبكيناها حكومة وشعبا . . وإنه إن لم يكن سلام هذه المرة، فحرب أخرى وبعدها حرب إلى غير نهاية . . أو إلى نهاية إسرائيل، كما تنبأ المؤرخ البريطاني توينبي وقد يكون ذلك بعد عشرات السنين، أو بعد عشرات القرون . . ولكنها نهاية مؤكدة، والتاريخ الإنسانى بكل أشكاله وألوانه وتجاربه أكبر دليل يقدمه لنا علي ذلك!

وسوف أعود إلى ذلك فى كتاب مستقل إن شاء الله . .

* * *

وكما تطورت المذاهب السياسية، تغيرت أيضا أساليب الكتابة عنها . . ولا أريد أن أذهب إلى بعيد جدا، فقد كان من أحلام الملوك أن يكونوا فلاسفة، وكان من أحلام الفلاسفة أن يكونوا ملوكا.

كان الإسكندر يحلم بأن يكون مثل أستاذه أرسطو . .

وكان من أحلام الفيلسوف أرسطو أن يكون مثل تلميذه الملك الإسكندرالأكبر، فصاحب الفلسفة يحلم بالقوة التى تجعله يرى أفكاره حقيقة واقعة، وصاحب القوة يريد أن يضيف إليها نور العقل الذى يهديه إلى تحقيق ما يريد.

وقد حاول فلاسفة كثيرون أن يكونوا ساسة، فأفلاطون حاول أن يطبق مدينته المثالية فى إحدى الجزر وفشل . .

والفيلسوف توماس مور أعدموه.

والفارابى فيلسوف العرب كفروه . .

ولكن فلاسفة عقلاء حكماء رأوا أن المسافة بعيدة جدا بين ما يفكرون فيه وبين ما يقدرون عليه؛ فرفض الفيلسوف الإيطالى كروتشه أن يكون رئيسا للجمهورية، ورفض الرياضى الكبير أينشتين أن يكون رئيسا لإسرائيل . . ورفض العالم الفلسفى لطفى السيد أن يكون رئيسا لمصر . .

بينما وافق رجل كيميائى مثل فايتسمان على أن يكون أول رئيس لإسرائيل؛ لأن العلاقات الإنسانية هى نوع من «الكيمياء» أى إضافة عناصر إلى عناصر تتفاعل لتكون مادة جديدة . .

ومن النادر أن تلتقى الفلسفة والسلطة، فلم يفلح الفيلسوف الثورى كارل ماركس أن يكون له سلطان، فى حين أفلح لينين فى أن يكون الفيلسوف الملك . . وكذلك ماوتسى تونج . .

وحاول فولتير عندما وقف إلى جانب الإمبراطور الألمانى فريدريش الأكبر.

وحاول الفيلسوف الهولندى أرازموس برسائله إلى كل الرؤساء والملوك، فإن لم يكن واحدا منهم، فقد حاول أن يكون قريبا منهم . .

ولكن الأديب الفرنسى كوكتو قد حقق هذا المستحيل عندما صنع لنفسه عملة ذهبية جعل على وجه منها الإسكندر الأكبر وعلى الوجه الآخر أرسطو، أى أن الملك والفيلسوف لم يلتقيا إلا مرة واحدة على هذه العملة الذهبية . . التقيا وجهين لرأسين، وليس وجها واحدا لرأس واحد! . .

ففى عصر النهضة الأوروبية مثلا كانت الاهتمامات الأولى لكل المفكرين إنسانية ، أى كان الاهتمام بالإنسان صانع كل شىء والهدف من كل شىء، ومركز الكون. فقد كانوا يرون أن الكرة الأرضية هى مركز الكون، والإنسان هو سيد الأرض، إذن فهو سيد الكون. وما خلق الله السموات والأرض إلا لكى يتفرج عليها الإنسان إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل! . .

ولكن ابتداء من القرن السابع عشر حتى التاسع عشر، خضع الفكر الإنسانى كله للعلوم الجديدة، والعلوم الجديدة هى العلوم المادية: الفيزياء والكيمياء. فكل شىء مادة، وهذه المادة لها وزن وحجم وكثافة وحرارة وأشكال تتغير حسب التفاعلات المختلفة، فالفيزياء أساسها المادة، والكيمياء أساسها تحول المادة من صورة إلى صورة. ولكن حركة المادة مضبوطة، أى أن هناك قواعد رياضية لحركة المادة.

وعلى ذلك فالمثل الأعلى للفكر الإنسانى أن يكون ماديا محدودا واضحا، وأن يكون بسيطا مثل المعادلات الرياضية.

ولذلك فالكون كله عمل هندسى . . ساعة لها عقارب . . والله هو المهندس الأعظم، أو أن الخلق ليس إلا معادلات كيميائية أبدعتها أصابع الله، دون تدخل من الإنسان، أى أن الإنسان ليس مركز الكون، إنما هو واحد من المخلوقات، أو صورة من صور تطور المخلوقات من المادة إلى الحيوان إلى الإنسان . .

وأصبحت كل العلاقات الإنسانية معادلات كيميائية . . كل العواطف كيمياء . . كل التغيرات والتطورات والثورات كيمياء . .

ففى التفسير المادى للتاريخ نجد هذه القاعدة: التراكمات الكمية تؤدى إلى كيفيات جديدة . .

ومعناها: أننا إذا رفعنا درجة حرارة الماء مائة درجة فإنه يتحول إلى بخار . . أى تراكم درجات الحرارة يؤدى إلى خلق كيفية جديدة هى البخار . . وكذلك كل المواد . . وكل العلاقات المادية بين الناس . . فالظلم المستمر يؤدى إلى الثورة، والتسيب المستمر يؤدى إلى الانحلال، تماما كما يذوب الجليد فيصبح ماء . . أو كما يذوب الحديد فيصبح سائلا . . وهكذا . .

ولكن ابتداء من الثورة الفرنسية والأمريكية والسوفييتية والانقلابات العسكرية التى أدت إلى تحرير الشعوب من الاستعمار والاستغلال أصبحت السياسة هى سيدة العلوم الأخرى . .

وفى القرن العشرين أصبحت السياسة هى العلم الذى «يسود» العلوم الأخرى . . فكما كانت الطبيعة سيدة علوم القرن الثامن عشر، والرياضة سيدة علوم القرن التاسع عشر، والفلك سيد علوم القرن العشرين، فإن السياسة أيضا سيدة العلوم كلها بما فيها الفلك . . فالتنافس بين السوفييت والأمريكان على الكواكب الأخرى ليس علما بالدرجة الأولى ولكنه سياسة تماما، فكل منهما يحاول أن يثبت أن مذهبه فى السياسة هو الذى أدى به إلى بلوغ القمر أولا، وإنزال إنسان عليه وإعادته . .

وكان أستاذنا أرسطو يرى أن الإنسان حيوان سياسى، أى أنه حيوان أولا، ثم يحاول أن يتحكم فى غرائزه الحيوانية بالسيطرة عليها، وهذه السيطرة هى السياسة . .

على حين كان أستاذه أفلاطون يرى أن الإنسان حيوان ناطق، أى أن الفرق بين الإنسان والحيوان هو النطق أو هو التفكير . .

ولكن السياسة الحديثة ترى أن الإنسان سياسى حيوان، أى أنه سياسى أولا، ثم أنه حيوان بعد ذلك . أى أنه يفرز قواعد السلوك، ثم يتمسك بها بصورة حيوانية، أو يحطمها بصورة حيوانية . .

فالإنسان مثل دودة القز، يفرز سريره الذى يصبح نعشه بعد ذلك . . أو إنه يريد أن يقول: إن الإنسان سياسى أولا، وحيوان أو إنسان بعد ذلك . فهو ولد فى مجتمع، والمجتمع قد سبقه إلى الحياة . أى أن الإنسان كما يقول كارل ماركس قد ولد فى ظروف سبقته إلى الوجود . . سبقته بالاسم والدين والجنس والعنصر والطبقة والمشاكل، ولذلك ما دام هكذا غارقا فى أوضاع وظروف اجتماعية ودينية واقتصادية وطبقية، فهو لا يمكن إلا أن يكون سياسيا . .

ولذلك لم يعرف العصر الحديث إلا أدباء وفلاسفة فى السياسة . ولأنهم حريصون على أداء هذا «الواجب» أو الوفاء بهذا الالتزام الفكرى والوطنى والقومى، فلابد من أن يكونوا على صلة بالجماهير: فى الصحف والإذاعة . . فليس بين جميع الكتاب الكبار من لم يكتب فى الصحف والمجلات . . أو لم يصدر الصحف والمجلات . . لأنه لكى يكون سياسيا، أو مشتغلا بالسياسة أو منشغلا بها، فلابد من أن يضع أصابعه على نبض الناس . . على نبض الآخرين الذين يكتب لهم ويقف متهما بينهم . .

ولأن الكاتب السياسى يلتقى بالقراء فى الأندية والمؤسسات، فليس فى حاجة إلى أن يتخيل حوارا معهم؛ لأنه يحاورهم . . فى حين أن الكاتب الذى اختار أن يرى من بعيد، وأن يسمع كذلك فإنه يفعل ما فعله سقراط: يجرى حوارا بينه وبينهم . . أو يتخيل ذلك . .

والفيلسوف العظيم برتراند رسل قد استغرقته السياسة فى آخر أيام حياته بصورة مؤلمة، فقد كان وهو فى الثمانين من عمرة يتظاهر ضد الأسلحة النووية، وما كان أغناه عن ذلك، يكفى وزنه الأدبى العالمى . . ولكنه عندما سئل عن ذلك قال: لم أعد قادرا على الكتابة، وفى الوقت نفسه لا أستطيع أن أتحدث إلى نفسى كما كان

يفعل القديس أوغسطين فى اعترافاته، أو چان چاك روسو فى هذيانه وشذوذه . . فـأنا أريد أن أجـعل حـوارى مع الشبـاب عـضـويا . . أزاحـمـهـم فى التظاهرات ويزاحموننى أيضا . .

ولذلك كـان الفيلسـوف الوجودى سارتر يكتب القصص والمسرحيات، وعندما توقف عـن الإبداع الفنى، راح يتـزاحـم بـجـسـمـه المريض فى تظاهرات الشـبـاب، وعندما حاول أن يكون له حزب سياسى، كان حزبه نموذجا جديدا لفشل الفيلسوف إذا أراد أن يكون حاكـما، فليس من الضرورى أن يكون صاحب المذهب الفلسفى، هو رئيس الحزب السياسى- أى يكون الفيلسوف والملك معا.

ولذلك كـان لكثير من الأحـزاب فلاسفة لا يظهرون فى الصـفـوف الأولى من السلطة . . كان سوسلوف فيلسوف الاتحاد السوفييتى، وكذلك كان ألفرد روزنبرج فيلسوف النازية، والشاعر داتسيو فيلسوف الفاشية. وإذا ظهر فلكى تكرمه الدولة فقط، دون أن تلزمه بأعباء الملك والسيطرة.

وأقـرب نموذج لكل الذى أريد هو مـا كـتبـه د. عـبـد الرحـمن بـدوى فى رواية له بعنوان «هموم الشباب» فـقد كـان عبد الرحـمن بدوى شابا ألمانى الفلسفة أسطورى الأمل، حـالما بالبطولة، وقد قدم لنا الكثير من أحلامه البطولية والفلسفية فأضاف إلى أجنحـتنا الخـضـراء ريشـا طويلا قـويا . . جـعلنا نرتفع مـثل الفـتى الإغـريقى «إيكاروس» الذى ألصق الريش فى جناحيه بالشمع فلما اقترب من الشمس ذاب الشمع؛ فسقط أول إنسان حاول أن يطير بجسمه هاربا من جاذبية الأرض.

ولكن الصـمغ الذى استخدمه د. بدوى لتثبيت ريشنا لم يذب بهذه السرعة . . إنما أصبح الشمع غددا تفرز الكثير كلما احتجنا إلى ذلك.

والصـفـحات الأولى من رواية «هموم الشباب» مثل مـوج البحر الهـادر الثائر بالعبارات الضخمة الفخمة الصارخة الجارحة . . وبعد ذلك يظهر الإرهاق على البطل وهو يرى ما حدث لعزيز باشا المصرى وآخرين . .

وكـما أن المؤلف قد خـمدت جذوته بسرعة، فقد انزوى هو بالسرعة نفسـها؛ فابتعد تماما عن السياسة وعن مصر كلها.

لقد قال كلمته وأراح نفسه ومضى .

والحقيقة أنه لم يكن فى استطاعته أن يقول أكثر أو يفعل أكثر، فهو رجل الفلسفة وليس رجل السياسة . . فهو الإنسان الذى امتلأ بنفسه، ولم يعد فى نفسه مكان لنفس أخرى . . وهو الذى أوقف الزمن حين لم يرتبط بتاريخ أو حدث . . فلا تربطه بالسياسة اليومية أو الأسبوعية صلة أو ضرورة . . وهو الذى تصور أن رواية كهذه من الممكن أن يكون لها أثر «آلام فرتر» للشاعر الألمانى جيتة، فتنتحر الفتيات العاشقات حزنا على البطل .

ولم يكن لهذا الكتاب الأثر الذى تركه كتاب «هكذا قال زرادشت» للفيسلوف نيتشه فى فلاسفة البطولة وفى النازية بعد ذلك .

ولم يكن لهـذا الكتاب ما كان لكتـاب «الأميـر» لميكيافيللـى من أثـر فـى حياة موسولينى .

لقد ألقى عبد الرحمن بدوى حجرا ملتهبا أطلق دخانا عندما لامس الماء، ثم اختفى خامدا بعد ذلك . .

* * *

والمشكلة التى تواجه أديب السياسة هى ألا يفقد حماسته الأدبية تحت ضغط الأحداث العنيفة المستمرة، وفى الوقت نفسه ألا تغرقه السياسة فينسى خط البداية .

إنما أديب السياسة هو الذى يعرف جيدا أدوات التعبير وقاعدة الانطلاق، وأن يقول كلمته ثم يمشى . . ويقولها فى اليوم التالى ويواصل المشى أو الحركة، أو يتعهد بذلك . .

وقد ذهبت بعيدا فى هذا الذى كتبته، لأننى لا أريد أن أقترب من المقالات التى جمعتها هنا . . ولا أريد أن أفسر وأن أبرر أو أتحفظ، وإن كنت أعتذر عن أى نقص أو غموض فى كل الذى كتبت هنا . وكنت أتمنى لو اتسع وقتى فأعيد صياغتها وأغير فى نتائجها، أو فى توقعاتى التى لم تجئ مطابقة تماما لما حدث بعد ذلك .

وعلى الرغم من أن هذا حقى، فإننى أخشى أن أكون قد «حرفت» أو «زورت» فيما كتبت، وقرأه الناس فى ذلك الوقت .

ولا أدعى أن هذا الذى كتبته هو صورة من نفسى تماما، ولا صدى لأعماقى، ولكنه كذلك إلى حد كبير. وما دمت قد نشرتها ثم أعدت نشرها؛ فأنا مسئول تماما عن كل ذلك . .

وأقول إننى كاتب سياسى حاولت أن أكسو السياسة أدبا وفلسفة . . فإذا كان هذا هو ما تراه أنت أيضا بعد ذلك، فسوف تجد الكثير فى كتبى أيضا: مزيجا من الأدب والفلسفة والتاريخ والدين وعلم النفس . . ومن حياتى.

ومعنى هذا أننى جربت ذلك منذ وقت طويل، ولا أزال . .

وسوف أعود إليه بصورة أخرى عندما أتحدث عن «رحلة السلام». فقد عايشت الكثير من الأفكار والقرارات، وكنت شاهدا على فترة استغرقت ست سنوات، ومن واجبى أن أدلى بشهادتى السياسية، التى هى وثيقة تاريخية.

وليست هذه المقالات إلا تعليقا على بعض ما حدث؛ على جوانب من الذى حدث، كما أحسست بها . .

فإننى دائما مشتغل بالأدب، وأنت قل بين غابات السياسة الخارجية والداخلية . .

وأعود مثل دودة القز ومثل قواقع اللؤلؤ؛ أنسج وأفرز راضيا عن الذى حاولت وعن الذى استطعت، وأملى أن أكون ممتعا ومفيدا لك.

الفهـــرس

الموضوع	صفحة

رقم الإيداع ٢٩٥٧/٩٩
الترقيم الدولى 9 - 0525 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ٨١٧٢١٣ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

هذا نوع آخر من التاريخ. إنه مجموعة عظام، أى أن الحيوانات التى كانت تعيش من ملايين السنين قد ماتت فى ظروف لم نعرفها، وتركت بقاياها. وجاء العلم الحديث فجعل العظام فحما. ثم درس وحلله وراح يعد ذراته ليعرف كم واحدة من هذه الذرات قد ماتت... وعن طريق الذرات الباقية يعرف عمر هذه الحيوانات. ويمكن أن يقال: إن التاريخ كومة تراب وجدها أحد العلماء فى أحد الكهوف. ففى الكهوف جاء الإنسان القديم وامسك غصن شجرة وغمسه فى الدم ثم رسم على الجدران صورا لهذه الحيوانات... وجاءت الأجهزة واستخرجت من الدم شهادة ميلاد الإنسان وشهادة دفن هذه الحيوانات. وجاء الإنسان مرة أخرى وجمع التراب والعظم ونظم منها معانى جديدة لكل ما حدث ... فالتاريخ عمل إنشائى... أو موضوع إنشاء... فيه الكثير من الكذب الجميل

دار الشروق